

منشورات أبناء الأنبا غريغوريوس

موسوعة الأنبا غريغوريوس

٣ـ الرهبنة القبطية وأشهر رجالها

للمتنيح الأنبا غريغوريوس

أسقف عام

للدراسات العليا اللاهوتية والثقافة القبطية

والبحث العلمي

منشورات أبناء الأنبا غريغوريوس

موســـوعة الأنبا غريغوريوس

في الذكرى السنوية الثانية

للعالم القديس المتنيح الأنبا غريغوريوس

٣ - الرهبنة القبطية

وأشهر رجالها

بقلم

المتنيح الأنبا غريغوريوس

أسقف عام

للدراسات العليا اللاهوتية والثقافة القبطية

والبحث العلمى

٢٢ اكتوبر ٢٠٠٣م

بابه ١٧٢٠ش

الكتاب : موسوعة الأنبا غريغوريوس - ٣ - الرهبنة القبطية.

المؤلف : المتنيح الأنبا غريغوريوس.

إعداد : الإكليريكى منير عطية.

الناشر : مكتبة المتنيح الأنبا غريغوريوس.

دير الأنبا رويس بالعباسية مصر ت: ٦٨٢٤٩٦٢ - ٤٨٨٢٥٢٢.

المطبعة : شركة الطباعة المصرية ت: العبور ٦١٠٠٥٨٩.

تصميم الغلاف : الفنان عادل لبيب.

الجمع : شركة فاين للطباعة والتوريدات ت: ٤٨٢٠٩٠٣

رقم الإيداع بدار الكتب : ١٧٠٠٣ / ٢٠٠٣



قداسة البابا المعظم الأنبا شنوده الثالث



نيافة الحبر الجليل المتنيح الأنبا غريغوريوس

إهداء

إلى القديس العظيم بطل الأرثوذكسية الأشهر

البابا أثناسيوس الرسولى

إليك يا سيدى البابا نهدى سلسلة المباحث اللاهوتية والعقائدية، لأنها من وحيك وإلهامك، وبفضل توجيهك وإرشادك، وثمرة لكفاحك وجهادك.!

فيك رأينا أرثوذكسية الإيمان وأرثوذكسية السيرة معاً!

ومنك تعلمنا كيف يكون الوفاء للحق، والإستمساك بالتقوى، والحرص على وديعة الإيمان.

ولقد وهبك الرب عقلاً شاخصاً فى الإلهيات، فكان تعليمك سليماً كل السلامة، وكان تعبيرك دقيقاً غاية الدقة!

ولم يكن طريقك سهلاً.. كان قولك مؤذياً لمسامع المنحرفين، وكان شخصك ثقيلاً على أنفاسهم الفاسدة، فكرهوك ولعنوك.. ومع ذلك لم يقووا على أن يقاوموا النعمة الساكنة بجنانك، أو يناقضوا الحكمة الناطقة على لسانك!

أثاروا عليك حرباً شعواء وطاردوك ونفوك، ولكنك صمدت وقاومت وأخيراً غلبت ونجحت، لأن الحق الذى فيك أعظم من الباطل الذى فيهم!

لولاك يا سيدى البابا لكان الإيمان الذى عندنا غير الإيمان الذى تسلمته أنت من أسلافك أيها البطريرك الرسولى!

لهذا نحييك تحية للفضيلة فى شخصك، ونطأمن رأسنا أمام عظمة أبوتك، تقديراً لتاريخك، واقتداء بسيرتك فى الإيمان، يا حامى الإيمان!

من إبنك

غريغوريــوس

باخوم المحرقى - وهيب عطا الله

٢- فهرس الموضوعات

صفحة

فلسفة الحياة الرهبانية (١)

الحق أن الرهبنة عندما نتأملها نجدها فى الحقيقة فلسفة أو حكمة عظيمة، ومن دونها تفقد المسيحية قوتها وعمقها، فالرهبنة هى التى تعطى للديانة المسيحية أبعادها العميقة، ولذلك نستطيع أن نلاحظ الفرق بين الروحانية الأرثوذكسية التى تختلف إختلافاً جذرياً عن الروحانية البروتستانتية، فالروحانية البروتستانتية قائمة على أساس مفاهيم أفقية، الإنسان عند البروتستانت إنسان سمع عظه فتاب وخلص، وفى اليوم الثانى يتحول إلى مخلص للعالم، تجده مدفوع أنه يعظ ويتكلم ويحدث الآخرين بكم صنع الله به ورحمه، بالأمس كان إنسان خاطىء واليوم يتحدث كيف أنه تاب وكيف أنه خلص، ويتكلم بحماسة بالغة، يكلم الناس أنهم لابد أن يرجعوا لله.

هذا المفهوم مفهوم ضحل، ولا يمكن أبداً أن يصلح لحياة روحية ثابتة قوية عميقة تستمر طويلاً، إنما الروحانية الأرثوذكسية قائمة أساساً على مبدأ، أولاً أن التعليم الإلهى يلقى فى باطن الإنسان كأنه بذرة وهذه البذرة تدفن، تدفن فى تربة القلب ويلزمها وقت كافى تظل فيه مخفية مستورة عن عيون الناس، وربما فى الظلام، والظلام ضرورى جداً لحياة النبتة لأنه جزء من مكوناتها، وواسطة لابد منها، لكى تنمو هذه النبتة لابد أن تختفى فى الأرض مدة، وأن تكون مستورة فى الظلام لا يرى أحد منها شيئاً، وبعد قليل تظهر على سطح الأرض صغيرة، ثم تنمو نمواً بطيئاً وئيداً قليلاً، وتحتاج إلى وسائط صيانة من الحشرات أو من الحيوانات أو من الصقيع أو من العوامل الطبيعية التى ممكن أن تحرقها. فإذا توافر لها عوامل الصيانة تنمو نمواً طبيعياً وتأخذ وقت حتى تؤدى إلى نتيجة وإلى ثمر.

وهذه فى الواقع هى سياسة ربنا فى الطبيعة، قصة يقطينة يونان التى كانت بنت ليلة، وأخذت بنت ليلة، هذه قصة غير طبيعية، وأراد الله منها أن يعطى ليونان درس لكى يقول له أن هذه اليقطينة.. أنت حزنت عليها مع أنها بنت ليلة كانت وبنت ليلة أخذت، فكيف لا أحزن على نينوى المدينة العظيمة.

فاليقطينة كانت مجرد وسيلة إيضاح وقصد الله بها أن يقدمها درس ليونان ليتعلم منه شيئاً، إنما الواقع فى الطبيعة ليس كذلك. فإننا نجد أى نبته فى الدنيا لابد أن يمر عليها هذه المرحلة التى تكاد أن تكون قاعدة، وهى أن البذرة ترمى فى الأرض وتدفن وتختبىء، وبعد ذلك توجد وسائط تنمية، مثل الهواء والحرارة والضوء والأملاح المعدنية، وتأخذ نسب معينةمن الكربون

---

(١) محاضرة ألقيت لرهبان دير الأنبا بيشوى بوادى النطرون ـ مساء الإثنين الموافق ٢ يوليو ١٩٧٩م الموافق ٢٥ بؤونه ١٦٩٥ ش ـ نقلاً عن شريط كاسيت.

ومن السكر ومن المنجنيز، ومن كافة الأملاح الموجودة فى الأرض بقدر ما يلزمها، وتنمو قليلاً قليلاًوتحتاج إلى عامل زمنى، ولا يمكن تجاهل الزمن. إلى جانب وسائط التنمية التى أيضاً لابد منها ووسائط الصيانة التى لابد منها ضد العوامل الطبيعية وضد الحيوانات والحشرات التى يمكن أن تقتلعها.

إذا كفلنا لهذه النبتة هذا فنكفل لها النمو الطبيعى، وكل شيء ينمو فى الطبيعة طبيعياً يكون ناجح النجاح الحقيقى، طريقة ربنا فى الطبيعة طريقة بطيئة لكنها ناضجة، يوجد ألماظ طبيعى ويوجد ألماظ صناعى، الألماظ الطبيعى يتكون فى وقت طويل جداً، يقولوا ملايين السنين لكى يتكون ألماظ طبيعى، لأنه أصلاً نبات وهذا النبات أندفن فى الأرض، فمع الظلام والدفء وعدد السنين يحرق ويتفحم مع ملايين السنين والحرارة وعدم الضوء يتبلور ويتحول إلى ألماظ، لذلك إذا وجدت قطعة ألماظ طبيعى فهذه ثمنها غالى جداً جداً بملايين الجنيهات، لكن الألماظ الصناعى ثمنه رخيص بقروش، ففى الحياة الروحية نفس القاعدة، لأن هذا هو أسلوب ربنا. السرعة لا تأتى بنتيجة، هناك قوانين فى الطبيعة، مثل ما يوجد قوانين فى الطبيعة بالنسبة للنبات يوجد قوانين طبيعية بالنسبة للحياة الروحية، لابد أن تبدأ بقانون وتسير بقانون توجد قاعدة للحياة الروحية، والآباء الروحانيين الذين تعلمنا منهم وسبقونا فى الحياة الروحية لهم خبرات طويلة المدى، وعرفوا الخطأ من الصواب وعرفوا أنه توجد طريقة غلط وطريقة صحيحة للحياة الروحية، وهم الذين علمونا ووضعوا أمامنا القواعد بناء على خبرات سابقة كلفتهم متاعب كثيرة، كلفتهم أحياناً صحتهم وكلفتهم حروب، فالنصائح التى يعلموها لنا ثمينة لأنها نتيجة خبرات طويلة، ولذلك نحن اليوم لا يصح أن نبتدى من الصفر إنما نبتدى كأبناء عرفنا نصائح الأباء، فمن هذه النصائح نتعلم، نأخذ هذه النصائح ونبنى عليها، وهذا هو الفرق بين واحد له أصل وواحد ليس له أصل، الكنيسة الأرثوذكسية بتعلم أننا لنا أصول، والأصول هى الآباء الذين سبقونا، نحن نحترمهم ونحترم خبراتهم ونقدرهم ولا ندوسهم بأقدامنا ولا ندوس نصائحهم، فهؤلاء الأباء علمونا أن طريق الفضيلة طريق بطئ وطريق طويل، وطريق له طول وعرض وعمق على مايقول الرسول بولس، وأن الإنسان ليس بسهولة أنه بالأمس كان خاطىء وشرير واليوم يصبح مخلص للعالم! لا هذا كلام غير منطقى وغير معقول وكلام ضحل وتافه، وطبعاً كل واحد يمشى فى هذا الطريق أكيد أن روحانيته كاذبة ومبنية على أساس خاطىء مهما ظهر أن هذا الإنسان له بريق، ويمكنه أن يتكلم ويمكنه أن يعظ ويمكنه أن يجيب بآيات ونصوص فى الكتب المقدسة، ويمكنه أن يدلل ويملأ الدنيا كلام مواعظ أو كتابات، لكن هذا كله بالنسبة للأباء الذين تعلمنا منهم الذين رسموا أمامنا الطريق مئات السنين، هذا كله طريق خاطىء وطريق تافه

وطريق سطحى وطريق لا يؤدى إلى فهم عميق إلى الحياة الروحية وطريق مسدود، ولذلك معظم هؤلاء الناس يصيحوا على المداخل فقط، يعملوا مظاهرة وهم على المداخل، إنما لا يقدروا أن يدخلوا للداخل لا يوجد عندهم وقت ولا أعصاب ولاإستعداد نفسى للدخول للعمق فيكتفوا مثل الأطفال الصغار أن يستمروا على الشاطئ لأنهم لا يعرفوا العوم، فيستمروا على الشاطئ يهيصوا ويطرطشوا الماء على بعض، هذا بالضبط فى الحياة الروحية الذين يصنعوه الناس السطحيين الذين لا توجد عندهم أى خبرة، أكثر من أنه كان بالأمس سمع عظة وتأثر بها، فيفتكر فى نفسه أنه دخل إلى الكمال، ولما يعظ، يعظ من فوق فيخرج كلام فيه إدانة للآخرين، ويتصور أن كل الناس فى ظلام وهو وحده الذى فى النور وهذه هى الروحانية البروتستانتية كلها مبنية على الكبرياء ومبنية على الضحالة.

١ـ مبدأ التخبئة:

نحن تعلمنا من أبائنا، أننا عندما نبدأ لابد أن نبدأ على ما وصل إليه السابقون، و نبدأ ببطء وندخل دخول عميق، نسير على المبدأ الذى نسميه مبدأ التخبئة، ومبدأ التخبئة هذا هو الذى تكلم عنه المسيح وقال إن النبتة تدفن فى الأرض ثم تنمو والناس نيام، جميل جداً هذا التعبير «والناس نيام» أى أن الناس لا يدرون به، أما الشخص الذى أحاط نفسه وأضفى على نفسه جو بحيث الناس يتطلعوا إليه، هذا الإنسان لن ينمو إلى الأمام، يظل قزم فى الحياة الروحية إذا تطلع الناس إليه، وبوصوله فى أول الطريق وأصبح منظور، لن يكبر ولن ينمو وسيظل قميئ طول عمره. كثير من الناس على هذه الصورة إنما الناس المباركين الذين ينمون والناس نيام عنهم، هؤلاء هم المغبوطين لأنهم أصحاب النفس الطويل الذين لا يدرى الناس بهم وهم ينمون نمواً طبيعياً، نمو غير مفتعل.

فالمبدأ الأول الذى تعلمناه من الأباء والذى نستشفه من كتب الأباء مبدأ التخبئة، أن الإنسان لا يجعل الآخرين يلتفوا حوله وينظروا إليه نظرة خاصة ينال بها نوع من التحية والإكرام والمدح والثناء، وأنتم خير العارفين بما قرأتموه فى كتب الرهبنة كيف أن بعض الرهبان كان فى بعض الأحيان يرتكب بعض أعمال العبط، أو يقوم بتصرفات لينتقده الناس وكل ذلك ليحول أنظار الناس عنه. يقولوا عبيط، يقوم بتصرفات يجعل غيره يقول أنه شرير أو لا يفهم، ويكون هو أحسن باطنياً من حقيقته الظاهرية أى يخبئ النعمة التى فى قلبه يظلل عليها، هذه هى سياسة التخبئة التى سار عليها الأباء، لم يحاول أحد منهم أنه يظهر بمظهر معين، أو يضفى على نفسه صورة جميلة بل يمكن أحياناً يعمل أعمالاً عكسية. داود النبى يقول: «خبأت كلامك فى قلبى لكى لا أخطئ إليك» فمبدأ التخبئة مبدأ موجود فى الكتاب المقدس، وطبعاً مبنى أيضاً على ما

قاله السيد المسيح ومبنى أيضاً على الخبرات الطويلة فى الحياة الروحية، أنا أتصور مثلاً على سبيل المثال أن السيد المسيح نفسه هو النموذج الأعلى للراهب.

وعندما ننظر إلى حياة المسيح له المجد نجد أيضاً أنها سارت على مبدأ التخبئة: فمثلاً وهو صغير كان لا يتكلم كثيراً ولم يصنع معجزات إلا فيما ندر، وفيما تقتضيه الضرورة، وحتى عندما كان فى مصر وهو طفل صغير، وكانت أمه تمر بالمنازل تطلب طعام وشراب، وأحياناً تبكى بدموعها عندما يطردها الناس أو يغلقوا الأبواب فى وجهها وفى الآخر يتحرك أحياناً لما تصل الحالة لهذا الحد فيلاطفها ويكفكف دموعها، ويعمل بصابعه على الأرض فتنفجرعين ماء مثل ما حدث فى المطرية وأيضاً فى سمنود، وبالقرب من الزقازيق أيضاً عند تل بسطا، كل هذا السيد المسيح لم يصنعه منذ الإبتداء، إنما فى الآخر خالص عندما يجد أن العذراء حالتها سيئة جداً ومتألمة فيتدخل فى الآخر.

فالسيد المسيح فى طفولته كل شئ ماشى ببطء وبهدوء وبدون إفتعال وبدون تسرع، كذلك حتى بعد ما بلغ سن الثلاثين، وخدمته نفسها امتدت وبدأ طبيعى أنه لازم يظهر تجد أنه كان يسير على مبدأ التخبئة، فكان يخفى لاهوته فى ناسوته وعندما يعمل أى عمل من أعمال القوة كان يتبعه بعمل من أعمال الضعف، فمثلاً عندما حل الروح القدس فى نهر الأردن والمجد العظيم الذى ظهر والآب يتكلم والروح القدس نازل عليه، بعد ذلك مباشرة يذهب إلى البرية ويسمح للجوع أن يصيبه ويجعله ضعيفاً لدرجة أن الشيطان يجرؤ ويقول له إن كنت ابن الله فقل أن تصير هذه الحجارة خبزاً، ونجده مرة نائم على وسادة فى السفينة ويعرض نفسه لكل أنواع الضعف من جوع، من عطش من ألم، ومرة يبكى كما بكى على قبر لعازر وكما بكى على أورشليم، يتعب كإنسان ويجلس على البئر، كل مظاهر الضعف وهذه المظاهر هى التى كانت تشكك الشيطان فيه.

أباء الرهبنة على وجه الخصوص كانوا يتخذوا أيضاً نفس الطريق من الناحية الروحية، عندما يجد نفسه منتعش روحياً لا يهلل أو يعمل أى مظهر من المظاهر التى تدل على الروحنة أو التى تكشف روحانيته، بل يمكن أن يعمل عمل عكسى لكى لا يلفت النظر إلى الخبرات الروحية العميقة التى وصل إليها. وفيه بعض الأباء كان لا يرضى إذا رأى رؤى - وكثيراً ما كان يرى الرؤى - أن يتحدث عن هذه الرؤى خوفاً من أن يلفت النظر إليه فينال كرامة له، وبعضهم كان يقبل الإهانة ويقبل الإتهام الظالم، يتهم ظلماً فيقبل الإتهام الظالم أو يشتم فيقبل الشتيمة ولا يرضى أن يرد عليها لكى يبقى مدة طويلة فى حالة الإتهام والناس تنظر إليه نظرة الإحتقار. مثل القديس أبو مقار لما أتهم أنه زنى بإمرأة، قبل هذا الإتهام ولم يدافع عن نفسه، والولد عندما

اتولد أعطى له ولما كبر كان يقول كد يا مقاره فإن لك ولداً، ولم يحاول أبداً أن يدفع الإتهام عن نفسه، ولما كشف الأمر واعترفت هذه الفتاه ببراءة القديس أبو مقار حضر الناس ليعتذروا ويعملوا ميطانية له، فخاف من هذا المجد فهرب من المكان وذهب إلى مكان آخر. فالرهبان الأوائل الكبار كانوا يعملوا تصرفات من هذا القبيل، يخافوا من أن يتحدث عن الرؤى أو الكشوف التى يروها من جهة، وأيضاً لا يمانع أن يقبل الظلم ويقبل الإتهام الظالم ويقبل الإحتقارحتى نفسيته تتذل، وهذا الذل ينفعه، وأنتم تعرفون القصة المذكورة عن الأنبا أغاثون لما حضر له مجموعة من الشبان وقالوا له أنت أغاثون الكذاب؟ قال لهم أنا هو، أنت أغاثون اللص؟ قال لهم أنا هو، أنت أغاثون الزانى؟ قال لهم أنا هو. واستمروا يشتموا فيه شتائم كثيرة جداً أنت أغاثون كذا كذا كذا كل شتيمة قبلها، وفى الآخر قالوا له أنت أغاثون الهرطوقى؟ قال لهم لا .. قالوا له لماذا أنت قبلت كل الإتهامات فيما عدا الإتهام بالهرطقة، قال لهم أنا من جهة إنى كذاب، كذاب لا أقدر أقول لا ... لا يخلو الأمر إنى أنا كذاب، وحرامى نعم أنا حرامى لأنى أسرق حقوق ربنا فهذا الكلام ينطبق علىّ لا أقدر أن أنكره، زانى نعم قد يكون أحب قلبى شىء آخر أكثر من الله (الزنى الروحى)، أى شىء نعم، وفى الوقت نفسه يمكن لما أقبل هذا الكلام ربنا يرحمنى ويغطى خطاياى إذا قبلت هذا، إنما كونى أقبل أن أكون هرطوقياً معناه إنى قبلت أن أكون عدواً لله وأنا لا أقبل هذا.

فالأباء كانوا ينفذون مبدأ التخبئة، وأنه لا يحاول أن يضفى على نفسه أى مظهر من المظاهر التى تلفت النظر إليه، وتضعه موضع التمجيد والتكريم والتحية والإعزاز والمدح وما إليها هرباً من هذه الحالة، ولكى يقدر أن ينمو باطنياً لأنه يخاف أن صيته يجعل الشياطين تقوم عليه وتزود عليه الحرب، ولكن عندما يبقى إنسان مغمور يقدر ينمو فى هدوء وفى سكون.

فالرهبنة مبادئها مأخوذة من الإنجيل، هناك إناس وخصوصاً البروتستانت ومن يدور فى فلكهم يقولوا من أين هذا الكلام؟ نقول لهم طريق الكمال موجود فى الإنجيل. السيد المسيح قال هذا «إن أردت أن تكون كاملاً، فاذهب وبع كل مالك ووزعه على الفقراء وتعالى اتبعنى حاملاً الصليب».

فمن هنا جاءت كلمة طريق الكمال، عندما نقول الرهبنة طريق الكمال ليس معناها أن الراهب أصبح كاملاً ! لا .. هو يسير فى طريق الكمال، إنما مثل ما قال بولس الرسول لا أقول إنى أنا بلغت إلى الكمال إنما أسعى لعلى أبلغ، فعندما الإنسان يترهبن ليس معنى ذلك أنه وصل إلى الكمال! لا .. إنما معناها أنه وضع رجله على الطريق الذى يبلغ به إلى الكمال. قريباً كان يوجد راهب اسمه أبونا عبد المسيح المقارى وتنيح فى القريب، كان فى بلد اسمها المناهرة، هذا الرجل كان من هذا النوع الذى يسيرعلى مبدأ التخبئة، أكيد أن هذا الإنسان كان فى درجة

السواح بدرجة عالية جداً، مستوى غير عادى هذا الرجل إنما كان من هذا الطراز الذى يضفى على نفسه تصرفات معينة ليخبىء الحالة التى هو فيها، لدرجة أنه يقول أنا عاوز أتزوج ويعمل تصرفات غير عادية والأولاد يجروا وراءه يضربوه بالطوب ويشتموه، ولكن كان أكيد فيه هناك أمور كثيرة بينت وكشفت أنه هو كان إنسان غير عادى أى على مستوى رهبانى غير عادى، كان عميق جداً جداً بدون أن يدرى به أحد وكان يضفى على نفسه صورة عكسية، ليس كل الرهبان عملوا هذا لكن نقول لأى درجة كان مبدأ التخبئة موجود، ليس من الضرورى أن كل واحد يعمل هذا.

سيدنا له المجد نفسه، لما تجلى على جبل التجلى أوصى تلاميذه أنهم لا يقولوا لأحد، هذه تعطينا فكرة عن مبدأ التخبئة، حتى الرؤى والمكاشفات الروحانية، بولس الرسول عندما اضطر أن يدافع عن نفسه، كشف بعض من المكاشفات الروحانية، أولاً لم ينسبها إلى نفسه فقال أعرف إنساناً قبل ١٤ سنة وهو يقصد نفسه، الأمر الثانى يقول لهم ألزمتمونى... لماذا؟ لأن هناك إناس من الأخوة الكذبة كانوا يذهبوا وراءه فى كل مكان ويقولوا أنه رجل كذاب وليس رسول للمسيح، وبهذه الطريقة ضيعوا كل الخدمة التى قام بها، وكثير من الناس رجعت بعد ما صاروا مسيحيين رجعوا مرة أخرى إلى اليهودية أو إلى الوثنية، لدرجة أنه قال لأهل غلاطية أيها الغلاطيون الأغبياء من رقاكم، من سحركم... ياليت الذين يقلقونكم يقطعون أيضاً، فاضطر أن يدافع ليس عن نفسه الحقيقة ولكن ليرد الناس إلى المسيح مرة أخرى.

٢- مبدأ التجرد:

أخذ هذا المبدأ من قول السيد المسيح «إن أردت أن تكون كاملاً، فاذهب وبع كل مالك ووزعه على الفقراء، وتعال اتبعنى حاملاً الصليب». وطبعاً المسيحية لا تطالب كل واحد مسيحى أن يبيع كل مايملك ويترك كل شىء ويتبع المسيح بالطريقة التى قال عنها السيد المسيح، قال هذا الطريق لمن يطلبون طريق الكمال. وطبعاً الأباء الرسل ساروا فى هذا الطريق، إن الواحد يترك كل شىء ويتبع المسيح، أو يبيع كل شىء، هذا هو الفقر الإختيارى وهو شرط من شروط الرهبنة، إختيار الفقر، وما هى أهمية الفقر فى حياة الكمال؟ لماذا الواحد يختار حياة الفقر؟ فالغنى أفضل من الفقر، فكلما يكون الإنسان غنى يستطيع أن يقوم بمشروعات كثيرة تخدم الفقراء ويصنع بها الخير للناس، لماذا تتطلب الرهبنة الفقر الإختيارى لدرجة أنه يبيع كل شىء، مثلاً أنبا أنطونيوس كان عنده ٣٠٠ فدان يقولون أنها من أجود الأراضى فى الصعيد، فباعها كلها لماذا؟ الأنبا بولا حدث بينه وبين زوج أخته كلام على الميراث فترك كل شىء، هناك أشخاص كانوا أولاد ملوك تركوا كل شىء مثل مكسيموس ودوماديوس أو مثل أرسانيوس

معلم أولاد الملوك. هناك أشخاص كانوا ملوك فعلاً مثل إيلارية التى سميت بإسم الراهب إيلارى، وناس كثيرين كانوا مقتدرين وكانوا يقدروا أن يعيشوا حياة غنية جداً وتركوا هذه الحياة، اختاروا حياة الفقر، لماذا لا يأخذ معه بعض أمواله للدير؟! الرهبنة تشترط أنه يدخل الدير بلا شيء، وهذا الكلام مبنى على حكمة أولاً كونه يختار الفقر هى فضيلة التجرد، لأنه يحتاج إلى هذه الفضيلة نفسياً وروحياً، فكرة التجرد، ماذا يعنى التجرد؟ يعنى التخلص من الإرتباط، التخلص من التعلق بالمادة، هذا هو التجرد فى معناه الحقيقى، التجرد معناه التخلص من الإرتباط بالمادة. فكونه يبيع كل شيءوبعد ما كان رجل غنى يصبح لا يملك شيء، هذا مطلوب لأن هذا هو البرهان الحقيقى على أنه اختار هذا التجرد، فيه حاجه جميلة فى داود، داود النبى مرة اشتهى أن يشرب ماء وعطش جداً، فقال من يسقينى ماءاً من بيت لحم؟ فعنده ثلاث رجال أقوياء ومن أجل أن يحضروا له ماء، لابد أن يعدوا على محله الفلسطينيين ويمروا من معسكرهم وكان هذا يعرضهم للخطر وللموت، فهؤلاء الأبطال الثلاثة غامروا بحياتهم وذهبوا وأحضروا الماء من بئر بيت لحم، وبعد ما أحضروا الماء صعب عليه هذا الأمروقال كيف أشرب ماء عبارة عن دم هؤلاء الرجال الثلاثة، لأنهم كان يمكن أن يموتوا فى سبيل هذه الشهوة. لا.. أنا اسكبها للرب، وسكب الماء على الأرض، هل الله يشرب الماء؟ ويقول أسكبها للرب؟ ثم يسكبها على الأرض!! لأن نيته من الداخل أن يعطيها لربنا.

فهنا فكرة التجرد مبنية على أساس أنه هو ترك كل شيء من أجل ربنا، هذا نوع من العبادة وهو إمتحان صعب، ولكن كونه يغامر ويجرد نفسه هذا التجرد دليل على صدق عبادته وعلى صدق نيته فى أنه يكون لله، النواحى المادية يبقى لها أثر فى النفس البشرية ولها تعلقات، فكون الواحد يقسو على نفسه هذه القسوة هذا يدل على أنه فعلاً راغب صدقاً وحقاً فى أنه يمشى فى طريق ربنا بدون مبالاه بأى شيء آخر. وفى نفس الوقت هذا دليل على إيمانه المطلق بالله أنه يبيع كل شيء ويظل فقير، وهذا طبعاً إمتحان لمحبته لربنا وإمتحان لإيمانه بربنا إنه لن يفشل إذا كان فقير، ولا يوجد شيء يذل النفس مثل الفقر، فيصير إنسان متواضع لا يملك شيئاً ويعيش مع الرهبان الآخرين فقيراً مثلهم، ليس له ماضى، الماضى إنتهى، واحد مثلهم يعيش معيشتهم، ولماذا لا يعطى للدير وقد يكون الدير فى حاجة إلى هذا المال؟ حتى لا يدخل ويكون له فضل على الذين فى الدير. أو يكون هذا نوع من أنواع التأثير على رئيس الدير، وحتى لا يكون له دالة فى الدير، ويستطيع أن يحكم كما يقول:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم   فطالما استعبد الإنسان احسان

مثل الإنسان الذى يتبرع للكنيسة ويعلن اسمه، المتبرع فلان الفلانى فطبعاً من حقه أن يعطى

مكان محترم فى الكنيسة، ومن حقه أيضاً يبقى له كلمة عند الكاهن، وكلمة محترمة والكاهن يعطى له إعتبار، فبهذه الطريقة الحقيقة بيسبى الكنيسة، فالرهبنة منعت إن واحد راهب مهما كان عنده، وحتى لو كان الدير فى حاجة إلى هذا، أنه يأتى بشىء مما يملكه ويعطيه للدير لئلا تصبح له دالة بسبب هذا المال، ويطمع فى مركز ممتاز أو يطمع فى معاملة خاصة نتيجة ما قدمه للدير أو يصبح فى يوم من الأيام صاحب فضل على الدير، فى القديم أيضاً كان عندما يبنوا كنيسة يرفضوا رفضاً باتاً أن الكنيسة يبنيها رجل واحد، مهما كان هذا الرجل غنى، لماذا؟ حتى لا تصبح الكنيسة ملكه، وهو الذى بناها مثل الكنائس التى يبنيها بعض الأغنياء لكى تكون مقبرة له، خلاص هذه كنيستهم يقدروا يفتحوها ويقفلوها مثل ما يريدون، ويقدروا أن يتحكموا فيها ويحضروا الكاهن الذين يريدوه ويعطوه المرتب الذين يريدوه والقسيس يكون خاضع لهم. مرفوض هذا المبدأ فى الكنيسة إن رجل واحد أو سيدة تبنى كنيسة، حتى لو كان قادراً على هذا لازم كل الشعب يساهم، كل إنسان يساهم لأن هذا بيت ربنا ولابد أن يكون الكل يساهم فيه، وكان زمان حتى الملك لا يتبرع ببناء الكنيسة كلها، لكن كان يشترك فى عملية البناء، الملك المسيحى كان يشيل طوب، ومن هنا جاء مبدأ وضع حجر الأساس، ما هو مبدأ وضع حجر الأساس؟ عندما يقولوا الملك أو رئيس الجمهورية وضع الحجر، فكرتها كانت فى الأصل إن الملك أو رئيس الجمهورية إذا كان مسيحى ويحب أن يساهم فى الكنيسة لا يبنى الكنيسة كلها، مع قدرته على أن يبنى الكنيسة، لكن لأنه لو بناها تصبح كنيسة الملك وله اليد الطولى فيها، وله اليد العليا ويقدر يفتحها ويغلقها كما يريد ويصبح الشعب ليس له حق، يصبح الشعب ضيف فى هذه الكنيسة، هذا المبدأ مرفوض من جهة المسيحية، ولكن يساهم مع الكل، هكذا مرفوض إن الراهب يدخل بشىء إلى الدير لئلا يظن أو تصبح له دالة أو يترتب على هذا أن يطمع فى أن يكون له بالنسبة للمبلغ الذى دفعه دالة أو مركز خاص، أو يعامل معاملة معينة، وبهذا يسبى رئيس الدير أو المسئولين فى الدير حتى أنهم يمالئوه أو يحابوه أو يعاملوه لا كمعاملة الرهبان الآخرين، فهذا مرفوض حتى يدخل الدير بإتضاع ولا يملك شيئاً ويصير مركزه مثل مركز الباقين كلهم.

وفى نفس الوقت هذا أساس للمبدأ الذى اتخذته الرهبنة أن الراهب يأكل من تعبه، فجميع الرهبان لابد أن يعطوا حتى لا يأكل الراهب خبز الكسل، وهو المبدأ الذى قاله الرسول بولس فى تسالونيكى الثانية اصحاح ٣ عدد ١٠ «من لا يريد أن يعمل فينبغى أن لا يأكل» فهو مبدأ رسولى، فطالب الرهبنة لابد أن يدخل الدير متجرداً لكى يخضع لناموس الدير، ويشتغل ويعمل والعائد من عمله يعيش منه، وأيضاً الفائض من هذا يعود للدير كله، مثله مثل باقى اخوته الرهبان.

فبهذا يبدو أن مبدأ التجرد مبدأ رهبانى وهو تطبيق لما قاله السيد المسيح يبيع كل مايملك. هذا هو التطبيق العملى للآيه.

ومبدأ التجرد هذا يزداد وينمو عند بعض الرهبان خصوصاً من يصلوا إلى درجة السياحة، فالسائح يصل إلى درجة مرتفعة من التجرد بحيث أنه يتجرد نهائياً من الإرتباط بالقنية، فيصير لا يملك شيء، ليس له كوب، أو طبق، أو ملعقة، ليس له شئ إطلاقاً وهذا ما يسموه «التجرد المطلق» ، لا يوجد له قلاية، أو غرفة، أو مكان، وهذا ما قاله الكتاب المقدس على ابن الإنسان أنه ليس له مكان أين يسند رأسه، ولذلك نجد السائح ينتقل من مكان إلى مكان ولا يأسف على مكان،وهذا ما يسموه التطبيق العملى لما قاله الرسول «تائهين فى البرارى» وهى حالة «تائهين فى البرارى والجبال وشقوق الأرض» ونحن نردد هذه العبارة فى قسمة الصوم الكبير لكن نضيف إليها كلمة من أجل محبتهم فى الملك المسيح. لكن التعبير فى الأصل مأخوذ من رسائل بولس الرسول، وهذا الكلام قاله عن المكابيين وهم أتباع يهوذا المكابى وهى الحركة الدينية اليهودية لتطهير الهيكل التى تزعمها يهوذا المكابى، ولكن فى سبيل هذه الحركة احتمل المكابيون صنوفاً من العذاب والآلام. وفترة المكابيين تبدأ من ١٥٠ قبل الميلاد أى بعد عصر ملاخى النبى، فالمكابيين هم الذين قصدهم بولس الرسول عندما قال «تائهين فى البرارى والجبال وشقوق الأرض» ففى الرهبنة يعتبر الرهبان أن هذه الحياة هى التى ينبغى أن يحيوها «تائهين»، هذا التيه يكون بالنسبة للسواح أو الدرجة التى يسموها درجة السياحة، من هو السائح؟ هو الذى يترك الدير ويسيح فى البرية، والسياحة هى التجرد بالمعنيين، أولاً تجرد بمعنى الإنحلال والتخلص من كل نوع من أنواع الإقتناء، فلا يصير له شيء إطلاقاً، لا يملك شيئاً ويمارس عملياً أنه لا يملك شيئاً، حتى لا يكون له شئ يعتز به. ولا أى شيء متعلق به ولا شيء يأسف عليه، إذا وجد أو إذا فقد لا يأسف على شيء، لأنه تجرد منه تجردا تاما، فلكى يمارس عملية التجرد التام يصير ليس له شيء، أى لا يقول هذا لى، وهذا أيضاً نابع من التعليم الرسولى للآباء الرسل والمسيحيين الأوائل كما جاء فى سفر الأعمال إصحاح ٢، وإصحاح ٤، أنه لم يكن أحد يقول عن شيء أنه يخصه. بل كان كل شيء بينهم مشتركاً، ولذلك الحياة الإشتراكية أصبحت محصورة اليوم فى الرهبنة لأنه أصبح صعب فى المجتمع الخارجى أن يحيا الحياة الإشتراكية كما عاشها الرسل ، فالحقيقة الرهبنة اليوم هى الممارسة العملية للإشتراكية المسيحية، أو نقدر أن نقول أن الإشتراكية المسيحية التى نادى بها الأباء الرسل الأوائل أو التى عاش بها المسيحيون الأوائل لن تمتد، وأنها إنحصرت اليوم فى حياة الرهبان ونحن نقول هذا الكلام فى المحيط الخارجى، نقول أن مبدأ الإشتراكية اليوم مطبق عندنا فى المسيحية ولكن فى داخل الرهبنة.

٣- مبدأ نذر التبتل:

مبدأ التفرغ والإنقطاع والتبتل، حتى فى اللغة العربية كلمة تبتل تفيد معنى انقطع، فالمتبتل هو الشخص الذى انقطع لناحية معينة، تفرغ لها وأعطاها حياته، ومن هنا مبدأ عدم الزواج بالنسبة للراهب لأنه تفرغ لناحية أخرى، لأن الزواج ليس خطيئة، الزواج أيضاً يبنى أسر ويبنى المجتمع، لا نقدر أن نحكم على الناس المتزوجين هذا الحكم الظالم. هل المتزوجين أشرار ونحن أفضل منهم؟ لا.. إنما الفكرة أن التبتل مبنى على أساس الإنقطاع، الإنقطاع لله والتفرغ لله، انقطع لله وتفرغ لخدمته لأنه مثل ما قال الكتاب المقدس أن بين الزوجة والعذراء فرقاً، غير المتزوجة تهتم فيما للرب كى تكون مقدسة جسداً وروحاً، أما المتزوجة فتهتم فيما للعالم كيف ترضى رجلها.

إن الحياة الزوجية أيضاً فيها تضحية إن الإنسان يلتفت لزميله ورفيقه ويعمل على إرضائه، هذا الإرضاء مطلوب لحياة إثنين يسيران معاً وهذه فضيلة أن يلتفت الواحد لغيره ويهتم بغيره.

فكون الواحد يكون متزوج، وهذا الزواج يقتضيه أنه يرضى الطرف الآخر، هذه فضيلة مفروضة، لكن الإنسان الذى يسير فى طريق إن أردت أن تكون كاملاً، طامع فى شىء أكثر من هذا، يستخسر الوقت ويستخسر الطاقة التى يصرفها فى سبيل إرضاء الزوجة أو فى سبيل إرضاء الآخرين، ويحس أن فترة الحياة قصيرة لا تتحمل أن يعطى هذه الحياة أو يقتطع منها لبيته أو لأسرته، فيريد أن يعطيها كلها لربنا ويريد أن يحرق كله، ويصير قربان كله، هذه الكلمة قالها أوريجينوس بطريقة لطيفة جداً، عندنا ما يعرف فى الكتاب المقدس بذبيحة السلامة، ذبيحة السلامة تقدم عندما يشفى مريض، أو يعود من سفر فيقوم بعمل ذبيحة السلامة، ذبيحة السلامة هذه تنقسم إلى أربعة أجزاء، جزء يحرق لربنا على المذبح، والجزء الثانى من حق الكاهن أن يأخذه، والجزء الثالث يوزع على الفقراء والمساكين، والجزء الرابع يأخذه صاحب الذبيحة نفسه ليأكل منه هو وأولاده هذه اسمها ذبيحة السلامة.

لكن هناك ذبيحة أخرى اسمها المحرقة، المحرقة ذبيحة عندما تذبح تحرق كلها لربنا، لا يبقى منها شىء لا لكاهن ولا لفقراء ولا لصاحب الذبيحة، كلها تحرق من فوقها لتحتها بالنار لله.

فأوريجينوس يقول أن الناس المتبتلين مثل ذبيحة المحرقة يقدم ذاته كلها لربنا، فلا يبقى قطعة من حياته أو من مجهوده أو من فكره أو من أعصابه لا لزوجة ولا لأولاد ولا لأحد آخر أبداً، بل يبقى كله لربنا محرقة.

فمن هنا جاءت قيمة التبتل، فنحن لسنا ضد الزواج مثل ما يزعم البروتستانت يقولون أن بولس الرسول يقول فى تيموثيئوس الثانية أنه فى آخر الأيام يرتد قوم عن الإيمان تابعين أرواحاً مضلة وتعاليم شياطين موصومة ضمائرهم يمنعون عن الزواج وعن أطعمة قد خلقها الله لتتناول بالشكر، يقولوا هذا ما يصنعه الأرثوذكس الرهبان بيمنعوا الزواج؟ لا.. نحن لا نمنع الزواج بل بالعكس نحن عندنا الزواج سر مقدس ورابطة إلهية، لكن موضوع الرهبنة، إن أردت أن تكون كاملاً، هذا موضوع إختيارى وغير مفروض على أحد. بل أحياناً نفس الراهب إذا وجد نفسه بعد مدة غير قادر أن يكمل يريد أن يتزوج، الكنيسة لا تمنعه عن الزواج لكن بيعد كسر نذر، ارتبط مع ربنا بنذر فكسر النذر، فالزواج بالنسبة له خطأ ليس لأن الزواج خطيئة، ولكن لأنه نذره نذراً مع ربنا، ولكن إذا اقتضى الأمر أنه يتزوج يأخذ قانون ويتزوج. مفيش مانع، فهنا مفيش مانع من الزواج، إنما المسألة إن أردت أن تكون كاملاً فهذا طريق الذين يريدون الكمال، يريد أن يتبتل لله، يريد أن ينقطع لله، يريد أن يتفرغ لله، يريد أن يكون مقدساً جسداً وروحاً، يريد أن يكون محرقة كاملة لا يبقى منه شيء لأحد لا لزوجة ولا لأولاد ولا لأحد كله لله، وأمواله يوزعها.

فالرهبنة بنيت على مبدأ التبتل، والتبتل فهم فى مبدأ الأمر على أنه عدم الزواج، ولو أن المفهوم العميق للتبتل هو الإنقطاع التام، لكن يتبعه أن الإنسان فى سبيل هذا التبتل والإنقطاع لا يتزوج، فعدم الزواج جزء من عملية التبتل لكن ليست هى كل التبتل، التبتل معناه أنه ينقطع ويتفرغ لله كلية ويكون مقدساً جسداً وروحاً، فالرهبنة فيها مبدأ النذر، فيه نذر أى فيه إرتباط مع الله أى وعد أو كلمة شرف، يقول لربنا أنا أعطيتك حياتى كلها.

والتبتل لغوياً يفيد الإنقطاع، التبتل ليس فقط عدم الزواج، لكن عدم الزواج جزء من عملية التبتل، ولكن هناك أشخاص آخرين ليسوا فى الأصل متبتلين قد يكونوا متزوجين قبل ذلك وهم المترملين، من الممكن المترمل الذى سبق له الزواج أن يترهبن، وممكن يدخل الحياة الرهبانية بنفس الدرجة، ولو أنه أصلاً لم يكن بتولاً إنما ممكن أنه يصل إلى التبتل بمعنى أن روحه تتنقى وتتصفى وتلمع وتبرق وتصل إلى الطهارة وإلى النقاء، بل وأضيف إلى هذا أيضاً ليس فقط المترملين الأطهار، ولكن لو فرضنا أن هناك إنسان سار فى طريق الخطيئة أو النجاسة أو العلاقات المحرمة والزنى، يمكن لهذا الإنسان الذى كان خاطىء ونجس وفاسق، ولكنه تاب توبة صادقة توبة نصوح، ممكن أن يدخل فى الرهبنة وممكن يبلغ فى الرهبنة مراتب روحية عالية، وعندنا فى تاريخ الرهبنة حياة أشخاص لم يكونوا أطهاراً فى مبدأ الأمر ولكنهم تابوا، ولعل من بين الأسماء أوغسطينوس الذى كان فى يوم من الأيام يقول، أنا مستحيل لا يمكن يمر على يوم

من الأيام ممكن أكون مسيحى، لأن المسيحية تتطلب مثالية فى الأخلاق، لا يمكن أبداً أن أصل إليها فى يوم من الأيام، فكان يقطع قطعاً جازماً أن بينه وبين المسيحية فاصل أساسى لأنها تتطلب مثالية لا يقدر عليها، ولكن أمكن بعد أن تاب أوغسطينوس أن يمارس الحياة الرهبانية ويدخل فى أعماقها إلى مستويات عالية جعلته من الخالدين فى تاريخ الكنيسة وفى تاريخ المسيحية، وسيظل أوغسطينوس مثلاً ونموذج للتوبة، التوبة الصادقة الروحانية التى لم تترك أثراً فى نفسه بحيث أنها تشوب بتوليته، بل أشرقت نفسه بالنور والتقوى وبالروحانية كما لو لم يكن أخطأ فيما قبل.

٤- مبدأ معرفة النفس:

فى طريق الزهد والنسك والسكون والصمت والبعد عن الضجيج وعن الكلام مع الناس والوجود فى وسط العالم، يمكن للإنسان من جهة أن يدخل إلى أعماق نفسه ليفحصها ويدرسها ويعرفها، مثل ما قال سقراط أعرف نفسك بنفسك، وهو فى الواقع سقراط لم يقل هذا الكلام إنما أصلاً وجده مكتوباً على معبد أبوللو فى دلف فى بلاد اليونان، فوجد هذه الحكمة مكتوبة على الأثار «أعرف نفسك بنفسك» فأخذ هذه العبارة وجعلها أساساً لفلسفته.

فمبدأ معرفة النفس للنفس مبدأ رهبانى، وكل نوع من الرهبنة مسيحية أو غير مسيحية لابد أن يكون فيها معرفة النفس، والسبيل إلى هذا بإستبطان النفس والدخول إلى النفس، وهذا الدخول يقتضى الهدوء ويقتضى السكون ويقتضى الصمت الطويل ويقتضى البعد بعيداً عن حياة العالم، ربما نعود إلى هذا فيما بعد، إنما المهم هنا نقط إلتقاء مابين الرهبنة الهندية والوثنية بصفة عامة والرهبنة المسيحية.

إنما الفرق الأساسى الكبير هو أن الرهبنة الوثنية تقوم على مبدأ تعذيب الجسد على أساس أن الجسد مركز الخطيئة وسبب الخطيئة، ووسائط تعذيب الجسد تكون كثيرة، وهذا عرف أيضاً فى التصوف اليهودى، فى الأسكندرية هناك متصوفه يهود أو رهبان يهود ساروا على هذا المبدأ مبدأ تعذيب الجسد، والتعذيب كان يقتضى أن يضرب جسده ضربات كثيرة ويجرح جسده ويقطع فى جسده تقطيعاً لكى يتألم، وهذا الألم فى تفكيرهم أنه يهدىء من ثورة الجسد وهى نداءات الغرائز وإشتعال الجسد بالشهوة.

فمبدأ تعذيب الجسد مبدأ لا نقره فى المسيحية، لأنه فى الواقع الجسد ليس هو أساس الخطيئة، وهذه نظرة تختلف فيها المسيحية إختلافاً جذرياً فى موضوع الخطيئة، فلو كان الإنسان جسد بلا روح لما كان يخطىء، مثل الحيوان أو مثل النبات، فإذا أكل سيأكل بالقدر الذى يحتاجه الجسد، وحينما يأخذ الجسد حاجته تنطفىء رغبته فى المزيد ولا يمكن للجسد أن يطلب المزيد. فعند

النبات مثلاً الموز يزرع بجوار الفول السوداني بجوار البصل بجوار الثوم بجوار البرتقال بجوار البلح، الفجل، الكرات، أى نبات يأخذ نصيبه من ذرات الأوكسجين والأيدروجين والكربون والسكر والأملاح المعدنية التى فى التربة، ويأخذ نصيبه من الضوء ومن الحرارة ومن الماء على قدر ما هو فى حاجة إليه، ولا يمكن أن يزيد على الرغم من غنى الطبيعة من حوله فيأخذ حاجته فقط بحسب تركيبه الجزيىء أو الذرى وبعد ذلك يتوقف تماماً عن أن يأخذ المزيد.

ونلاحظ هذا أيضاً فى الحيوان، الكتكوت يشرب الماء على قدر إحتياجه وبعد ذلك يكف، حتى لو ضربته، وقل هذا فى الحمار، وقل هذا فى الأسد وفى الحمامة وفى اليمامة وفى العصفور وفى أى كائن، لا يمكن أبداً أن يأكل أكثر مما يحتاجه جسده وبعد ذلك يقف مباشرة، وحتى معروف هذا أيضاً من الناحية الجنسية فعند الحيوان إذا حملت الإنثى لا يمكن أن يقترب إليها ذكر حتى لو ضربت، فلو كان الإنسان مجرد حيوان، أقصد جسداً بغير روح كانت الغريزة تحكمه فيتوقف. يأخذ حاجته من الطعام على قدر إحتياجه ويقف، أى تنطفيء رغبته فى المزيد من أى نوع آخر من الطعام أو الشراب، لكن الإنسان بيطلب المزيد ومثل ما قال سيدنا له المجد «الذى يشرب من هذا الماء يعطش أيضاً»، السبب طبعاً يرجع إلى أن الإنسان مفكر وعنده ذاكرة والذاكرة من صفات الروح، فلما يأكل التفاحة مثلاً أو البرتقاله يشعر فى أثناء الأكل ولو أن الأكل مقصود به أن يسد إحتياج الجسد، أن هناك لذة مصاحبة لأكل التفاحة أو البرتقاله أو البصلة أو الفجل أو ما إلى ذلك، هذه اللذة تسكن فى ذاكرة الإنسان وتعاوده الحاجة أنه يريد أن يأكل تفاحة ثانية أو ثالثة، لا لأن جسده فى حاجة إليها، ولكن من أجل اللذة التى حصل عليها فى المرة الأولى. فلولا الفكر الذى احتفظ بذكريات هذه اللذة المصاحبة فى المرة الأولى لما كان الإنسان يطلب المزيد بما يدمر صحته الروحية والجسدية والنفسية. أكيد من ضمن الأسباب التى تدمر صحة الجسد، أن الإنسان يأخذ أكثر من حاجته، ولذلك العلماء يقولوا أن الحيوانات معروف أن لها عمر معين، وعادة هذا العمر لا يزيد ولا ينقص، فمعروف أن الذبابة تعيش ١٥ يوم، الأسد يعيش ٣٠ سنة كل حيوان معروف تقريباً مدى عمره إلا الإنسان، وكذلك فى النباتات وفى الفواكه كل حاجة لها عمر معين معروف ولا يتغير إلا إذا كان هناك حوادث طبيعية مثل الصقيع أو نواحى أخرى تتلف النباتات، لكن الإنسان تجد عمره يتغير لدرجة أنه لو توأم من بطن واحدة مع ذلك يحدث إختلاف فى السن بينهما، وذلك بسبب الأخطاء التى يخطئها الإنسان ضد جسده، وبسبب أنه يأخذ أكثر من إحتياجه فى الطعام، وفى الشراب وفى سائر الشهوات والرغبات والأرضيات والميول.

إذن ما هو السبب فى الخطيئة؟ ليس الجسد هو أساس الخطيئة، الخطيئة مصدرها الروح الإنسانية التى نسيت مركزها بالنسبة لله، والتى تبنت الشهوات الجسدية وأصبحت تسعى إليها أكثر مما يسعى إليها الجسد وأصبحت تستغل الجسد وتملى إرادتها على الجسد لطلب المزيد.

٥- مبدأ التحكم وضبط النفس:

الحقيقة الفضيلة المسيحية تكون مبنية على مبدأ التحكم وضبط النفس، الضبط هو ما يسمى بالعفاف، وما هو العفاف؟ هو الضبط، مبدأ الضبط إن الواحد يأخذ بقدر ثم يعف عن أن يأخذ المزيد، فالعفاف هو مبدأ ضبط النفس، وهذا الضبط لابد أن يأتى من جانب العقل والروح العاقلة فى الإنسان، ولذلك يعد الصوم للإنسان إحدى الوسائط التى تساعده على ضبط النفس، ولذلك الرهبان والمسيحيين بعامة يمارسوا فضيلة الصوم لأن الصوم هو الواسطة التى بها تقوى الإرادة والتى يصل بها الإنسان إلى العفة، وإلى أن يحكم رغباته بقوة إرادة، وتعد غريزة الطعام هى غريزة الحياة الأولى، أول وأقوى وأعظم غرائز الإنسان وأشدها أثراً عليه، غريزة الطعام هى غريزة الحياة الأولى ولذلك تعد سائر الغرائز تابعة أو أقل مرتبة فى حياة الإنسان من غريزة الحياة الأولى، فهى أقوى من غريزة الجنس، ومن غريزة الأبوة والأمومة، وعندكم كلام أرميا النبى «أيادى الأمهات الحنائن طبخن أولادهن» أى أن الأم وهى فى حالة جوع شديدة جداً اضطرت أنها تطبخ ولدها لتأكله، ومذكور أيضاً فى سفر الملوك، قصة الأم التى طبخت ابنها فى أثناء الحصار الشديد على مدينة أورشليم وعلى مملكة يهوذا.

ومذكور أيضاً فى التاريخ فى أيام حصار تيطس الأمبراطور أو القائد الرومانى لمدينة أورشليم، أن وصلت المسألة بأن الناس ومن ضمنهم النساء كانوا يطبخوا أولادهم الصغار ويأكلوهم من شدة الجوع. أى أن الجوع قاتل لهذه الدرجة.

فالصوم يروض أقوى الغرائز كيف؟ يكون أمامك الطعام وتمنع نفسك عنه تحت فكرة معينة سواء كانت هذه الفكرة إرضاء لله أو طاعة للشريعة أو الوصول إلى مقامات روحية عالية، المهم أن الإنسان يكون أمامه طعام يمنع نفسه عنه وهذا المنع يكون بالإرادة، فيعد هذا أول تدريب وأقوى تدريب للإرادة، وإذا نجح فى هذا التدريب بالتالى ينجح فى التداريب الأخرى، أى ينجح فى السيطرة على الغرائز الأخرى، على غريزة الغضب، على غريزة الجنس، على غريزة الأنانية وما إلى ذلك. إنما العكس ليس صحيح، فإذا انهزم الإنسان أمام غريزة الطعام فممكن أن ينهزم بالتالى أمام جميع الغرائز الأخرى.

الفرق بين الرهبنة المسيحية والرهبنة الوثنية:

إن الرهبنة فى المسيحية قائمة على ضبط النفس، ضبط بالإرادة ومن القوة العاقلة التى تشكم الرغبات والشهوات والميول والنزوات وما إليها.

وبناء على كلام السيد المسيح. الخطيئة من القلب لأن من القلب تصدر الأفكار الشريرة، من القلب يصدر الزنى والقتل والسرقة وما إليها. فكون الإنسان يعذب جسده أو يقتل عضو من أعضاء جسده هذا لا يحل المشكلة أبداً. وإلا كان معنى ذلك أن العميان يكونوا أطهار أو يكونوا أنقياء من الخطيئة لأن عيونهم مقفولة أو الطرش أو ما إلى ذلك. لكن ممكن جداً يكون الإنسان أعمى ومع ذلك الخطيئة فى قلبه، ممكن يكون أطرش والخطيئة فى قلبه، لو فرضنا إن واحد أعثرته عينه أو يده أو رجله وقطع اليد أو قطع الرجل فهذا ليس حل للمشكلة، وهذا ردنا على إخوانا المسلمين التى تقول شريعتهم بقطع يد السارق عقاباً له، فهذا ليس حل لمشكلة الخطيئة، الحل فى القلب قبل أن يكون فى الأعضاء. وهذه هى النقطة الأولى أو **الفرق الأول** ما بين الرهبنة الوثنية والرهبنة المسيحية **وهو مبدأ تعذيب الجسد عند الوثنيين على أساس الجسد أصل الخطيئة**. إنما نحن عندنا الضبط ضبط الروح وضبط الجسد بالقوة العاقلة التى فى الإنسان.

الفرق الثانى الجوهرى بين الرهبنة الوثنية والرهبنة المسيحية **أن الرهبنة الوثنية قائمة على أساس وسائط طبيعية، بينما أن الرهبنة المسيحية تقوم على أساس وسائط طبيعية وفوق الطبيعة**، أى تضيف إلى الوسائط الطبيعية وسائط فوق الطبيعة، الوسائط الطبيعية وهى الهدوء والصمت والسكون والتأمل والاستبطان الباطنى وما إليها، لأن النفس البشرية سواء أكانت مسيحية أو يهودية أو وثنية مخلوقة على صورة الله، فالتأمل والصمت والهدوء والسكون ممكن أن يحقق لهذه النفس البشرية مستوى روحى فوق المستوى العادى. جاجارين الذى كان أول رائد للفضاء قال لنا ولو أنه رجل رسمياً ملحد، على خبرات معينة تدل على أن النفس البشرية بالوسائط الطبيعية ممكن أن تصل إلى مستوى روحى، وإن كانت المسيحية تقدم لنا وسائل أخرى مضافة ممكن أن ترفع الإنسان فوق المستوى الطبيعى إلى مستوى أعلى من الطبيعة، فجاجارين قال أنه باعتباره أول رائد للفضاء فلما أرادوا أن يدربوه على الحالة التى سيكون عليها فى الفضاء البعيد، الظلام الدامس والسكون المطلق أو السكون التام فلكى لا يفزع نفسياً عندما يطلع فوق أخذوا يدربوه على الأرض لكى عندما يصل هناك يكون ألف هذه الصورة، فوضعوه فى غرفة أو قاعة من الفولاذ وهو الصلب لكى يتوافر له الظلام الدامس والسكون الشديد، طبعاً كانوا يوفروا له الأوكسجين فى القاعة وأيضاً الطعام والشراب بما

يلائمه. طبعاً دربوه أن يستمر ساعة أو ساعتين أو ثلاثة فى اليوم، ثم يوم ثم يومين ثم أسبوع ثم أسابيع على بعضها أو شهور على بعضها، فقال لما توافر له الصمت الشديد لمدة طويلة، وهى الشهور التى على بعضها مع الظلام الحالك، يقول أن ذاكرته قويت جداً وبدأ يتذكر أشياء عمره ما تذكرها فى حياته، ويقول بدأت أتذكر حياتى كأنها فيلم سينمائى يتحرك منذ بداءة نزولى على الأرض. وطبعاً هذه حقيقة معروفة أنه ما يمر بالنفس البشرية من أفكار ومن عواطف ومشاعر وإنفعالات وأيضاً من أعمال ومن خبرات، كل هذه الأشياء تترسم فى النفس البشرية وترسم على العقل الإنسانى، واليوم يقولوا إن هذه الأشياء ترسم ليس فقط على المخ ولكن حتى على العظام والأيدى والأرجل وكف الإنسان وبناء عليه علم الكف قائم على هذه القاعدة، واليوم يقدروا من أرجل الإنسان أن يتابعوا الأمراض وحالته النفسية، المهم أن العقل الإنسانى كل شىء يرسم عليه، لما يكسروا جمجمة الإنسان بعد موته يجدوا فرق بين جمجمة العالم وبين الجاهل أو جمجمة الشخص كبير السن الذى عنده خبرات أكثر من الشاب الصغير. إن كل شىء يرسم على العقل الإنسانى ويحفر مجارى، المهم أن جاجارين يقول أنه مع الظلام الدامس ومع السكون الشديد، لأن النور يشتت الانتباه، ولذلك المعابد المصرية القديمة دائماً أكثر مكان مظلم هو قدس الأقداس، والكنائس القبطية فى مصر القديمة والأديرة كانت دائماً تبقى دامسة ولا يوجد إلا فتحات أو طاقات عليا وعادة يضعوا عليها من الزجاج الملون حتى لا يدخل الضوء الساطع، وبهذه المناسبة الحقيقة من الخطأ أن نضع على المذبح كهرباء، هذه الكهرباء مزعجة للكاهن وتشتت إنتباهه، ولا تساعد على تركيز الإنتباه ولا تساعد على الخشوع وعلى تجميع الأفكار فى الصلاة.

فجارين يقول أنه عندما صارالصمت الشديد والسكون الشديد ذاكرته قويت وبدأ يتذكر حياته من أولها فى تسلسل تاريخى لأحداث حياته، دقيقة بعد دقيقة وساعة بعد أخرى ويوم بعد آخر بترتيب تاريخى وأيضاً كانت نفسه مثل ما قال تنفعل بنفس الإنفعال الذى كانت تنفعل به نفسه بحسب السن أو بحسب الحدث الذى يتذكره.

طبعاً الحقيقة شىء جميل أن يصدر ذلك من شخص ملحد، وفى الوقت نفسه تؤيد أن النفس البشرية لها أعماق عميقة جداً، وأنه فعلاً لو الإنسان يهدأ ويسكن ويصمت ممكن تحيا فيه الأمور الماضية ويتذكرها ويفهم نفسه على حقيقتها، وهذا الفهم للنفس على حقيقتها هو الذى يساعد الشخص على أنه يعرف نفسه ولا يكون مغرور فى نفسه، يعرف نقط القوة ويعرف نقط الضعف، يعرف ماضيه ويمكن أن يبنى على أساس الماضى الحاضر والمستقبل.

هذه النقطة فى الواقع من فلسفة الرهبنة، الإختبار الذى قاله جاجارين هو الرهبنة عند كل الناس، هذه نقطة سواء كان عند المسيحيين أو المسلمين أو اليهود أو الوثنيين، النفس البشرية التى خلقت على صورة الله سواء كانت وثنية أو مسيحية أو يهودية، فهذه النفس البشرية المخلوقة على صورة الله عندما تتاح لها ظروف أو يعطى لها الهدوء والسكون والصمت والظلام يساعدها على أنها تفهم نفسها على حقيقتها، ثم يمكن أن يتقدم الإنسان فى الحياة الروحية ويمكن أيضاً أن يتلامس مع القوة الإلهية، هذا من حيث المعرفة الطبيعية، لأن الذى يعوق الإنسان أو الروح البشرية عن هذا التلامس مع القوة الإلهية، وعن الأخذ من القوة الإلهية ومن إشعاع القوة الإلهية على رأس الإنسان، هو اشتغال العقل الواعى بالمثيرات التى تشتت الانتباه، فكلما وفر الإنسان لنفسه هذا الهدوء كلما نفذت أشعة القوة العليا للكون إليه، وهذا خصوصاً يكون عن طريق الرأس. ولذلك رأس الإنسان رأسية، فالحيوان الذى يسير على أربعة رأسه لتحت، وهذا هو السبب فى أن كل أنواع البركة توضع الأيدى على الرأس، بالذات الرأس، فى غاية الأهمية الرأس لأنها نقطة الإتصال بين القوة العليا وبين الإنسان.

فقوة الله العليا الموجودة فى الكون، الإنسان جزء من الكون ويأخذ من هذه القوة العليا، فيحدث هذا التماس ولكن لابد أن يكون الإنسان فى وضع معين يساعد على سهولة التوصيل، والوضع المعين الذى يساعد على سهولة التوصيل هو الهدوء والسكون والصمت والتأمل وما إليها، هذه الوسائط الطبيعية، فممكن جداً أنك تجد واحد وثنى غير مسيحى ويكلمك عن هذه الصلة التى بين الله أو القوى العليا وبينه، واحد مسلم، واحد يهودى ويكلمك عن هذه العلاقة، ويكلمك عما يعرف بالإشراق، الإشراق هو أن قلبه ينور بنوع من المعرفة، وهذا الإشراق نتيجة أو نوع من إنعكاس المعرفة فى القلب مباشرة. وهذا النور يمكن أن ينبثق فى النفس البشرية لو أن النفس البشريةكانت فى صورة طبيعية غير مفتعلة، وهذا الإشراق يتكلم عنه الهنود، ويتكلم عنه الوثنيون، ويتكلم عنه المسلمون، ليس فقط فى المسيحية، ولكن الفرق أن فى المسيحية الوسائط الطبيعية والوسائط فوق الطبيعة. الفرق أن الرهبنة الوثنية أو غيرها قائمة على أساس طبيعى، والرهبنة المسيحية قائمة على أساس طبيعى ثم أساس فوق الطبيعة، ما هو الأساس فوق الطبيعة؟ هى الأسرار المقدسة، فواعيل الروح القدس، وأيضاً وسائط النعمة التى بها يستدر الإنسان أو يستمطر الإنسان مواهب عالية على الطبيعة، لكى تنزل وتساعد القوة الطبيعية فى الإنسان، ولذلك من الممكن أن المسيحى أو الراهب المسيحى يصل إلى أضعاف أضعاف ما يصل إليه الراهب الهندى أو الوثنى الذى لا يوجد عنده وسائط الخلاص أو الأسرار المقدسة، لا يوجد عنده الوسائط التى تقدمها المسيحية بإعتبارها نعم أخرى إضافية فوق الطبيعة، تنزل وتنحدر على الإنسان من خلال المواهب، مواهب الروح القدس عن طريق استحقاقات المسيح الكفارية.

هنا الفرق ما بين الإثنين أولاً على أساس أن الفلسفة الهندية تقوم على أساس تعذيب الجسد أما فى المسيحية تقوم على أساس ضبط أو التحكم فى الروح وفى الجسد معاً بالقوة العاقلة. النقطة الثانية أن الرهبنة الوثنية أو الهندية تقوم على وسائط طبيعية وهى تهيئة الهدوء والسكون والصمت والظلام للنفس البشرية فيتوافر لها التفاعل والتعامل والتلامس ما بين القوة العليا وما بين الإنسان، أما فى المسيحية بالإضافة إلى هذه الوسائط جميعها، لأن نفس الرهبنة يتوافر فيها الهدوء والصمت والسكون والاستبطان والتأمل الباطنى، لكن بالإضافة إلى هذا هناك وسائط أخرى خلاصية قائمة على استحقاقات المسيح الكفارية وفواعل الروح القدس عن طريق الأسرار المقدسة تعطى نعمة إضافية أو وسائط ثانية إضافية فوق الطبيعة بالإضافة إلى الوسائط الطبيعية.

خبرات لبعض الرهبان ولكنها ليست نماذج:

هناك لبعض الرهبان خبرات مروا بها ولكنها ليست بالضرورة تكون نموذج للرهبنة، بمعنى ليس كل شيء جاء فى بستان الرهبان يصير تعليمى، لأن هناك أشياء شخصية جداً، على سبيل المثال يوجد بعض قصص ليست بالضرورة فى بستان الرهبان نفسه، لكن فى حياة الرهبنة، مثلاً القديس سمعان العمودى فى مبدأ حياته عندما كان صغير سنه ١٦ سنة، ربط نفسه بحبل ليف على وسطه فعندما كان يعمل ميطانيات كان الحبل ينغرز فيه حتى تعب وسطه من الميطانيات، وحدثت تقيحات كثيرة والدم كان ينزل منها، وهو أخذ الأمر على أنه إحتمال آلام الرهبنة من أجل المسيح، وفى يوم من الأيام أب الدير لاحظ عليه علامات العبوسه فأشفق عليه وقال له أنا أرى أنك أنت مغالى وأنت سنك صغير، وطريق الأباء ينصحوا الشاب الصغير أنه لازم يتدرج وأنه لا يمارس أعمال النسك الزائدة التى لا تحتملها قوته وهذا ما قاله سليمان الحكيم «لا تكن باراً بزيادة» أى أكثر مما تحتمل قوتك، فكان واقف صامت أمام أب الدير، وفى أثناء كلام أب الدير له لاحظ أن هناك دم ينزل من تحت جلبابه، فرفع الجلباب فوجد وسطه مقطوع والحبل الليف اللحم إلتف حوله ورأى التقيحات، أريد أن أقول أن هذه القصة قصة رجل قديس، لكن هذا التصرف ليس مطلوب، لا أستطيع أن أقدم هذا التصرف كتصرف نموذجى ليتعلم منه الرهبان، يربطوا وسطهم بحبل ليف ويقطعوا جسمهم، أعنى هناك تصرفات حصلت من بعض الأباء الرهبان، هى فى ذاتها تدل على فضيلة لأنه عملها من أجل الفضيلة، ولكن لا أعتبرها نموذج فى الرهبنة وأعلم بها، وأقول أن لابد للراهب أن يعمل كذلك، هذا خطأ، أو مثلاً يقولوا الراهب الفلانى لم يستحم كل أيام حياته، لا أقول أن مبدأ عدم الإستحمام مبدأ صحيح، طبعاً

لا .. المفروض الجسم يكون مفتوح المسام، فالإستحمام مطلوب، إنما ثقافة هذا الراهب فى هذا الوقت ظن أنه بهذه الطريقة يرضى الله.

وأنا أريد أن أقول شيء فيما يتصل بالرهبنة مهمة جداً فى التفريق ما بين الرهبنة الوثنية كما كانت عند الهنود والرهبنة المسيحية.

الرهبنة الوثنية كانت قائمة على مبدأ التعذيب، تعذيب الجسد لأن الجسد أساس الخطيئة، أما مبدأ الرهبنة المسيحية مبنى على ضبط الجسد، ضبط الروح والجسد، ضبط وليس تعذيب، إنما التعذيب مبدأ وثنى قائم على أساس أن الجسد أصل الخطيئة، نحن فى المسيحية لا نعتبر الجسد أصل الخطيئة، لأن القيادة فى يد الروح، ما علينا على كل حال مبدأ الرهبنة المسيحى غير قائم على مبدأ التعذيب. لكن يوجد من الأباء الرهبان مَن عذبوا أنفسهم مثل الجماعة العموديين، سمعان العمودى وغيره كان يسكن فى عمود ويرفع رجله كام سنة أو يرفع يده كام سنة، هؤلاء ليسوا معلمين فى الرهبنة لا أستطيع أن أقول إن الراهب لابد أن يعمل مثلهم. نحن فى الكنيسة نفرق ما بين القديسين وما بين الأباء وما بين المعلمين، فليس كل واحد عمل شيء الواحد يعمل مثله، المعلمين قلائل فى الكنيسة الذين أخذوا لقب معلم، مثل أثناسيوس أو ديسقوروس أو كيرلس الخ... هؤلاء معلمين، وأيضاً هناك ناس قديسين ولكن ليسوا معلمين، بمعنى لا آخذ تصرفهم قدوة، فمثلاً سمعان الخراز قلع عينه بالمخراز، هذا العمل يدل على طيبة..، وعلى أنه فهم أن المسيح يريد هذا فعمل الذى طلبه المسيح، فبلا شك أن هذا يدل على قداسة من هذه الزاوية، لكن العمل فى ذاته خطأ والتفسير خطأ ولذلك عندما أوريجينوس عمل مثل هذا الخطأ لابد أن يشلح من الكنيسة، لأن أوريجينوس علاَّمة، فعندما يعمل شيء ألوف وملايين من الناس تتبعه فيها، لكن سمعان الخراز لن يتأثر به أحد، إنما عندما أُعلم فى الكنيسة لا يصح أن أقول قصة سمعان الخراز دون أن أعمل عليها التحفظ، لئلا يترتب على هذا واحد يقلع عينه، نحن لا نريد الناس تقلع عيونها، «إن أعثرتك عينك فإقلعها وإلقها عنك» ليس بهذا المعنى إطلاقاً، وإلا كان يبقى الإنسان الأعمى طاهر، قلع العين لا يحل المشكلة، لأن مصدر الخطيئة مثل ما قال السيد المسيح من القلب تصدر الأفكار الشريرة، الزنا.. وكل الخطايا من القلب، لكن الرجل لأنه رجل بسيط فى المعرفة، فالقصة عندما تمر علينا فى تاريخ الكنيسة أو تقال للناس لابد أن يكون هناك شرح، فهى تبرهن على أن الرجل كان من البساطة بحيث أنه فهم أن المسيح يريد ذلك فطبق ما قاله السيد المسيح بطريقة خاطئة، فهو قديس من أجل إستعداده أن يطبق ما أراده المسيح، لكن التصرف فى ذاته خطأ لذلك آباء الإسكيم نصحوا مع الخبرة الطويلة أن الواحد لا يدخل فى النسك مرة واحدة لابد أن يتدرج، مبدأ التدرج، ولابد أن يكون فيه مرشد لكى يمنعوا الإنسان

الناشيء أن يسير بحسب تدبيره هو أو بحسب رأيه الخاص أو بحسب استحسانه، وقالوا لابد أن يخضع لمرشد سبقه فى الطريق ولأخذ خبرات، وتعلم من أخطاء، سواء من أخطائه هو أو من أخطاء الآخرين. لذلك لابد من مبدأ التدرج، وهذا مبدأ من مبادىء الرهبانية المعروفة، ليس كل الذى تجده فى الكتب أو فى بعضها فى سير الرهبان تصلح أن تكون نموذجية يقتدى بها، من الجائز أن يأخذ منها مبدأ مثلاً بساطة الشخص، أو روحانيته أو صموده أو احتماله، أو إستعداده بأن يموت من أجل المسيح، لكن التصرف في ذاته لازم يخضع لمقياس آخر للتفسير السليم وهو تفسير معلمى الكنيسة إذا كان هذا التصرف صح أو لا.

٦- مبدأ الإعتزال:

مبدأ إعتزال العالم للتعبد، وهذا خط أساسى فى حياة الرهبنة وهو إعتزال العالم للتعبد، وفلسفة الإعتزال موجودة على نوع ما فى الكتاب المقدس عندما قال الله لإبراهيم «أخرج من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التى أريك»، وكانت الأرض التى أراه إياها أرضاً صحراء جرداء، أقام فيها إبراهيم فى خيام، بينما أن لوط اختار لنفسه الأرض الخضراء، وكانت النتيجة أن لوط تعذب بخطايا الناس الموجودين فى الأرض الخضراء. وإبراهيم الذى عاش فى الأرض الصحراء نما فى الحياة الروحية نمواً عالياً فأصبح خليل الله، ما أبعد الفرق بين المستوى الروحى الذى كان لإبراهيم والمستوى الروحى الذى كان للوط، ولا شك أن البيئة التى أحاطت بإبراهيم ساعدته على أن يصل إلى هذه الروحانية التى لم يصل إليها لوط بسبب الصخب والضجيج والخطايا المحيطة به.

فيه مبدأ يقول: «طوبى للذين فى النار ولم يحترقوا» وهذا المبدأ يساء إستغلاله، ويستخدم تبريراً بأن الإنسان يبقى وسط الخطيئة، ويقولوا له ممكن أنك أنت تبقى وسط الخطيئة ومع ذلك لا تخطىء، فيه فرق بين واحد ظروفه تقتضى غصب عنه أن يكون موجود فى هذا الوسط فيضطر يصارع، وبين واحد آخر يمكن أن يخرج من هذا المكان حتى لا يقضى معظم جهده العصبى فى المقاومة للمؤثرات البيئية يهرب من هذه البيئة إلى بيئة أخرى أسهل، ليست أسهل من ناحية الفضيلة ولكن أسهل فى أنه يقدر أن يتقدم بدلاً من أن يضيع وقته وجهده وأعصابه فى المقاومة، يتخذ هذا الجهد وهذا الوقت وهذه الأعصاب فى خطوات أمامية، ومن الممكن أن يقطع مع هذه السهولة خطوات أبعد مدى مما يقطعه الإنسان الذى وضع نفسه فى البيئة الشريرة، وترك نفسه فى هذه البيئة ويقول أنا أحافظ على نفسى. صحيح ممكن أن يحافظ على نفسه ولو أنه قليلاً أن ينجح، ولكن يكون أفضل إذا أمكنه أن يخرج كلية من المكان، لأن المكان

والبيئة لها أثر عليه، قطعاً ولا شك لم يوجد بعد هذا الكائن الذى يقدر أن يزعم أن البيئة لا تؤثر عليه أى نوع من الأثر، صحيح الأثر يختلف فى الدرجة، لكن لابد للبيئة من أن يكون لها أثرها.

فكون الإنسان يخرج من البيئة إلى بيئة أخرى لا يكون فيها هذه الحرب العنيفة التى يواجهها يكون من الحكمة، من الحكمة له ومما يساعده أن ينمو أن يترك هذه البيئة.

هناك نقد خاطىء للحياة الرهبانية يقولوا أن الرهبنة هروب من الخطيئة، من قال أن الرهبنة هروب من الخطيئة؟ هى هروب فى الواقع كمرحلة أولى، هروب من البيئة التى يمكن أن تعطل الإنسان عن النمو، فبدلاً من أن يصارع يكون عنده فرصه أوسع أنه يمتد إلى الأمام ويقطع مرحلة إلى الأمام بدل أن يقضى كل وقته فى الصراع.

فمبدأ الإعتزال مبدأ أولاً موجود فى الكتاب المقدس، وصحيح أن السيد المسيح عاش فى وسط العالم، ولكن لأن المسيح كان لابد أن يعيش وسط العالم لأنه جاء من أجل رسالة مهمة، ومع ذلك اعتزل أربعين يوماً قبل أن يبدأ الخدمة، لكن عموماً نحن نجد فى الكتاب المقدس طرازين من الناس. طراز الراهب، وطراز الخادم، طراز الراهب مثل إيليا وأليشع فإيليا النبى استمر طول وقته على الجبل أو فى البرية وكان ينزل إلى العالم ليؤدى رسالة، ولذلك مظهر إيليا كان مظهر الراهب تماماً، شعره أبيض لابس ملابس قصيرة وغير مهتم بمظهره، وصفوه فى الكتاب المقدس بهذه الأوصاف التى تدل على أنه مثل أنبا نوفر وأنبا بولا وما إليهم من النساك، فى أكله وفى شربه وفى ملبسه وفى تبتله، وإنقطاعه وفى حياة التعبد وفى كل شيء وأليشع أيضاً كان فى الجبال وكان له خادم اسمه جيحزى، ولذلك أمكن لأليشع أن يصل لمراحل عالية، لأن حياة الجبال وحياة الهدوء وحياة السكون وفرت له هذه الحالة وكلنا نتذكر لما جاء جيحزى يصرخ ويقول لأليشع أن جيش ملك أرام أحاط بالجبل من كل ناحية ألوف من العساكر ومن الجنود محيطين بنا، كانوا يريدون أن يأخذوا أليشع لأنه كان يخبرملك إسرائيل بالأمور وبالخطط التى يعملها ملك أرام وهو فى مخدع فراشه، وبكل بساطة أليشع يقول: يارب افتح عينى الغلام فيرى، ياسلام على هذه العظمة الروحية، لا يصلى من أجل نفسه لأنه هو مفتوح العينين. إنما يقول افتح يارب عينى الغلام فيرى، ففتح الرب عينى الغلام، فتح العينين هذه نضع تحتها خطوط ماذا يعنى بفتح عينيه؟ عينيه كانت مفتوحة، نظره ٦ على ٦ ، افتح يارب عينى الغلام فيرى، ماذا يرى؟ يرى الاهتزازات الأخرى التى لا تراها العين البشرية المجردة التى ترى لمدى محدد، فأليشع وصل إلى هذه المرحلة بالطرق الروحانية، بطريق التعبد، ويخيل إلى أنه لولا أن

أليشع توافر له السكون والعبادة والصمت فى هذا المكان البعيد عن الضوضاء والضجيج ما كان يصل إلى هذه الروحانية العالية التى فيها تتكشف له هذه الأمور العالية.

فلذلك يعد أليشع إلى جانب إيليا فى العهد القديم يمثلان طراز الرهبان، وفى العهد الجديد يمكن أن نرى يوحنا المعمدان يمثل طراز الراهب، الذى يقال عنه «وكان فى البرارى إلى يوم ظهوره لإسرائيل» من يوم أن كان عمره سنة أو بضعة شهور يوم أن هرب به أبوه إلى الهيكل هرباً من هيرودس الملك وجنوده وصرخ إلى الله يقول له أليس هذا هو الولد الذى وعدتنى به والذى أعطيتنى إياه وأنا رجل شيخ، هم يطلبوه الآن، فخطفه ملاك الرب وذهب به إلى البرية، فلما لم يجد جند هيرودس الولد الذى يبحثوا عنه ضربوا زكريا وأماتوه، ولذلك المسيح له المجد قال لهم سيأتى عليكم كل دم برىء سفكتموه على الأرض من دم هابيل الصديق إلى دم زكريا بن براخيا الذى قتلتموه بين الهيكل والمذبح.

المهم أن الكتاب يقول «وكان فى البرارى إلى يوم ظهوره لإسرائيل» طبعاً ظهر لإسرائيل فى سن الـ ٣٠، فكل هذه المدة عاشها فى البرية، ومع ذلك بعد الـ ٣٠ يوحنا المعمدان لم ينزل إلى العالم، يقول «وكانت تخرج إليه الجماهير» أى أنهم هم الذين يخرجوا إليه، لذلك يوحنا المعمدان كان يمثل أيضاً فى العهد الجديد طراز الراهب. الذى يقيم فى البرارى معتزلاً، وكان يقال عن سيدنا له المجد «وكان يعتزل فى البرارى ويصلى» (لوقا ٦ : ١٦).

أما طراز الخادم مثل سيدنا له المجد الذى جاء من أجل رسالة، ولابد أن يكون فى العالم من أجل هذه الرسالة، ولكن مع هذا أعطانا صورة أنه حتى الخادم يحتاج إلى أن يعتزل فى البرية فترة معينة وينزل، وحتى عندما ينزل كان يلزم تلاميذه أن يذهبوا إلى البرية، وأحياناً يلزم تلاميذه أن يسبقوه إلى العبر ويذهب ليقضى الصلاة فى الجبل بمفرده، يعرفنا أن حتى طراز الخادم وهو فى العالم يحتاج إلى فترات الهدوء والإعتزال فى البرية من وقت إلى آخر.

ومن نفس الطراز ممكن أن نعتبر بولس الرسول، لأنه بعد أن دعاه المسيح الدعوة المعروفة، ذهب إلى صحراء العرب التى فى جنوب أرض فلسطين وقضى فيها ثلاث سنين بعد الدعوة المقدسة، وفى أغلب الظن أن إشارته إلى الرؤى الروحانية كلمة آتى إلى مناظر الرب وإعلاناته أعرف إنساناً قبل ١٤ سنة فى المسيح أفى الجسد لست أعلم أم خارج الجسد لست أعلم، الله يعلم أختطف هذا إلى السماء الثالثة، أختطف إلى الفردوس، وسمع أشياء لا ينطق بها ولا يصوغ لإنسان أن يتكلم بها. فى الغالب أن تكون هذه الرؤى رآها فى الوقت الذى كان فيه فى الصحراء بعد أن دعاه المسيح الدعوة المقدسة، وقبل أن يخرج إلى الخدمة، احتاج إلى هذا الهدوء لمدة ثلاث سنين، وكذلك أشار إلى هذه الرؤى أيضاً يوحنا المعمدان عندما قال أنا لم أكن أعرفه ولكن

الذى أرسلنى قال لى الذى ترى الروح نازلاً ومستقراً عليه هو الذى يعمد بالروح القدس ونار، كلمة أنا لم أكن أعرفه، تعنى لا توجد أى معرفة جسدية عيانيه بينه وبين المسيح، فأول مرة يلتقى به فى نهر الأردن لذلك قال لم أكن أعرفه، بل كرر هذا الكلام مرتين فى إنجيل يوحنا (١ : ٣١، ٣٣) يقول يوحنا المعمدان وأنا لم أكن أعرفه، لكن ليظهر لإسرائيل، ثم رجع ثانية وقال لم أكن أعرفه لكن الذى أرسلنى قال لى الذى ترى الروح نازلاً ومستقراً عليه، فكلمة الذى أرسلنى قال لى، متى هذا؟ متى كانت هذه الإرساليه، ومتى قال له الذى ترى الروح نازلاً ومستقراً عليه؟ مما يدل على أن يوحنا لابد فى البرية وفى الصحراء وفى حياة الهدوء صارت له المكاشفات الروحانية، وهذه فائدة من فوائد حياة الإعتزال التى يسعى إليها الرهبان، أنه ليس فقط الإعتزال مفيد من أجل أن يعرف ذاته ومن أجل أن يقوِّم ذاته، ومن أجل أن يعد ذاته للحياة الأبدية، ولكن أيضاً لأن يصل إلى هذه المكاشفات الروحانية بحيث يصير العالم الآخر مكشوفاً بالنسبة له، وهذه ما تسمى بحالة الثيئوريا، ثيئوريا كلمة يونانية معناها الرؤيا، ثيئو من الله ثيئوس، معناها يرى الله، فالرؤيا الإلهية أو الرؤيا الطوبانية، وكذلك مرقس الرسول (ثيئوريموس) الذى نسميه ناظر الإله.

فمبدأ إعتزال العالم ليس خطأ، أحياناً يصوره البعض أنه هروب من الخطيئة، هو فى الواقع ليس هروب من الخطيئة إنما هروب من المثيرات بقدر الإمكان، وهروب من البيئة التى تساعد على إمتداد الخطيئة وإنتشارها فى حياة الإنسان، وهذا أمر محمود فى ذاته لأن الإنسان بدل من أن يعيش يصارع بينه وبين البيئة هذه المصارعة لا تعطيه فرصة للإمتداد، فالهروب من البيئة يعطيه هذه الفرصة.

الأمر الثانى أنه فعلاً الإعتزال يتوافر فيه المكاشفات الروحانية نتيجة إمتداد الحياة الروحية، والإنسان يصل إلى ما يعرف بالإتحاد بالله، غير أن هذا الإتحاد إتحاد إرادة ومشيئة وليس إتحاد طبيعة.

التطور النفسى والروحى للراهب - مقامات الرهبنة السبعة (١)

مفهوم الموت للراهب:

يفهمون الناس الموت بالنسبة للراهب «مات عن العالم» بمعنى الموت عن الشهوات والرغبات، وهذا المفهوم خاطىء، لأن الموت عن الشهوات ينطبق على كل الناس وليس على الرهبان فقط، ففعل الإماته عن العالم والشهوات ينطبق على الكل، فالرسول يقول «فإن كنا قد متنا مع المسيح نؤمن أننا سنحيا أيضاً معه» (رو ٦ : ٨) . ونحن فى صلاة الساعة التاسعة نصلى فنقول «أمت حواسنا الجسمانية»، وهذه الصلاة لا يصليها الرهبان فقط بل كل الناس. ويقول الرسول أيضاً: «أميتوا أعضاءكم التى على الأرض، الزنا، النجاسة، الهوى....» (كو ٣:٥) .

ولكن الموت بالنسبة للراهب فله مفهوم آخر واضح، فعندما يصلى على الراهب صلاة الموتى، يكون القصد الأساسى أن يحتسب أن هذا الراهب انتقل إلى الأحضان الأبدية إنتقال فعلى، يعيش فى العالم وكأنه فى العالم الآخر، فهو يشعر تماماً بأنه ترك العالم بكل معنى الترك. وهذا هو المفهوم الرهبانى القديم الذى عبر عنه الأنبا أنطونيوس أبو الرهبان، أن الرهبنة هى الخروج من العالم، وأن الراهب لا يعود إلى العالم، هذا هو المعنى الأصيل للرهبنة، يموت عن العالم بمعنى الإعتزال عنه، مبدأ الإعتزال أو البعد، هذا هو المقصود بالموت لكى يحيا فى مجتمع جديد هو مجتمع الملائكة والقديسين والعالم الغير المنظور، لذلك الأنبا أنطونيوس هو صاحب الكلمة المنسوبة إليه «أن الراهب مثل السمكة إذا خرج من الماء يموت». وهو نفسه لا يعزى إليه أنه نزل إلى العالم إلا مرتين، المرة الأولى: كانت هناك ضرورة لينزل لأنه كان هناك استشهاد للمسيحيين، فأراد أن يثبِّت المسيحيين، والمرة الثانية: للجهاد ضد الأريوسية أثناء تعب واضطهاد القديس أثناسيوس الرسولى، فجاء أنطونيوس ليُثبِّت الناس فى الإيمان كبديل لأثناسيوس.

فالموت بالنسبة للراهب المقصود به هو العزلة التامة، أنه فعلاً يبعد ويعتزل، وبالإرادة يعتبر نفسه إنتقل إلى العالم الآخر وأنه يحيا حياة الملائكة، ويخدم خدمة الملائكة، ولذلك يقولوا «الرهبان ملائكة أرضيون وبشر سمائيون». فالصلاة على الراقدين بالنسبة للراهب معناها أنه يعيش ميتاً عن العالم، لذلك قالوا لأحد الرهبان «أبوك مات» لكى يحضر ويرثه فأجاب «ميت لا يرث ميت»، وعندما قالوا لآخر «أبوك مات أجاب صه أبى لا يموت» قاصداً بذلك أبوه السماوى.

---

(١) محاضرة فى دير القديس باخوم. بحاجر ادفو. مساء الأحد ١٣/١/١٩٨٠م - ٤ طوبة ١٦٩٦ش.

وإجابة على سؤال بكنيسة القديس يوحنا الحبيب بنجع حمادى فى ٢٧/١١/١٩٧٥ . نقلاً عن أشرطة كاسيت.

الرهبنة نقطة تحول:

الرهبنة الحقيقة أنا بأعتبرها نقطة تطور، أنا مفهومى للإنسان أنه كائن يكتسب خبرات وتعاليم، وهذا الإكتساب يزيد بتقدمه فى السن من الطفولة حتى قبل دخوله الرهبنة، وقد يكون فى هذا الإكتساب شيء من الخطأ فى بداية السن، ومع التقدم فى الخبرات يصحح هذه الأخطاء بعلمه وخبراته ويشذب ويهذب مما يكتسبه وتصير خبراته هى محصلة حياته.

فبالرهبنة الإنسان لا يستطيع أن يلغى كل خبراته فى الحياة قبل الرهبنة، وخاصة إذا كانت خبرات طيبة، وليس كل ماضى الإنسان سيء، فبالرهبنة يحدث تطور للراهب، أقصد تطور نفسى وذهنى وروحى، فإحدى أهداف الرهبنة الأساسية هى معرفة النفس، لكى يعرف أخطاؤه ونقط الضعف الموجودة عنده، لكى يستطيع أن يصححها بخبرات جديدة وبالمعارف الجديدة وبالنور الجديد الذى اكتسبه من الحياة الجديدة فى الرهبنة الذى ينور طريقه، يدخل إلى نفسه ويعرف ما فيها من قوة ومن ضعف، ثم يتقدم فى النمو فى خط صاعد متقدماً إلى الأمام.

هل من السهل أن الإنسان يلغى الماضى؟ بالطبع الرهبنة حياة جديدة وفهم جديد، ونقطة تحول جديدة، ممكن تكون تصحيح لأفكار قد تكون قديمة، لأن الماضى يحمل أشياء طيبة كثيرة جداً، وخاصه بالنسبة لطالب الرهبنة، مؤكد كان طفل نشأ فى بيئة يذهب إلى الكنيسة ويطيع والديه، مواظب على الصلاة والصوم والاعتراف والتناول، هذا الشاب دخل حياة الرهبنة، حياة جديدة كل الجدة، لكن هذا الماضى مشرف لأنه كان يسير فى طريق السماء ولو مات كان سيدخل السماء، فبالنسبة لهؤلاء عندما يدخلون الرهبنة، فالرهبنة بالنسبة له لا تكون إلغاء للماضى، ولكن تكون تطور جديد له، فيها نمو وإرتقاء وتطور فى خط صاعد إلى الأمام.

بالعكس قد يكون الماضى هو السبب فى الدخول إلى الرهبنة، فقبل أن يأتى الأنبا أرسانيوس إلى الرهبنة، كانت هناك عوامل نفسية روحية هى التى شدته إلى الرهبنة منها الزهد، زهد فى العالم وزهد فى المنصب وزهد فى المجد، فالزهد كان سابق على الرهبنة وهو الذى شده إليها، فالرهبنة طريق خاص، طريق التعبد وطريق الرياضات الروحانية العالية الذى يفترض اعتزال العالم للتعبد فى الهدوء والسكون الذى يسمح له بالصلاة بغير إنقطاع والإنحصار فى الله، والرهبنة أساساً تطور فى خط صاعد.

أولاً: تلميذ رهبنة:

ويسمى بستوس pistos Πιcτoc أى مؤمن حالياً يسموه العلمانى، والحقيقة أن هذا التعبير غير سليم، إنما بستوس تعنى مؤمن - الأخ المؤمن الذى هو تحت الرهبنة ويكون تحت

الإختبار ليختبره أباء الدير ويروا مدى محبته لله وللرهبنة ومدى طاعته واتضاعه، ويوكل إليه فى هذه الفترة بعض أعمال الخدمات بالدير ويكون تحت الملاحظة والمراقبة والتوجيه المستمر لمعرفة مدى إمكانياته وقدرته على تحمل الحياة الرهبانية، وهل هو يصلح لهذا الطريق؟.

كما أنها تكون فترة لهذا التلميذ ذاته ليختبر فيها نفسه ومدى قدرته على الصمود والسلوك فى هذا الطريق وهل هو يصلح لهذا الطريق؟، واشترطوا مدة معينة وأخر مرة تم تحديدها بثلاثة سنوات تقريباً فى عهد البابا يؤنس التاسع عشر.

ثانياً: راهب مبتدىء:

هو الشخص الذى أعطى النذور الأولية للرهبنة ويصلوا عليه صلاة الموتى ويلبس شكل الرهبنة، وهى القلنسوة والمنطقة، وتحدد له متطلبات من الناحية الروحية، منها أنه يصلى الصلوات السبعة اليومية، إلى جانب القراءات فى الكتاب المقدس والأصوام والميطانيات ٣٠٠ ميطانية، هذا إلى جانب إشتراكه فى الصلوات العامة مع الرهبان، وفى النظام الباخومى يتطلب من الراهب المبتدىء أن يشغل بثلاث نواحى:

أولاً: الصلاة ثانياً: الدراسة ثالثاً: العمل اليدوى

ويحدد له نصيبه من العمل اليدوى بحيث يكون أكثر من الصلاة وأكثر من الدراسة، خوفاً عليه أن يفشل أو يصاب بالملل، أو يصاب بالفشل. حتى الأنبا أنطونيوس يقال أنه فى بداية رهبنته علمه الملاك وقال له «شويه تصلى وشويه تجدل الخوص» بل أكثر من ذلك وضع قوانين لذلك «أن الراهب الذى لا يعمل يطرد من الدير» وحدد نوع من التنظيم فى هذا الموضوع بحيث يكون هناك حدود لكل شىء.

ونحن فى الوقت الحاضر، الراهب المبتدىء أيضاً يعطى مسئوليات بدنية أكثر من نصيبه فى الصلاة وفى القراءة.

المهم أن وقت الراهب يكون مقسم على هذه النواحى الثلاثة، على أن يكون نصيب العمل اليدوى أكثر من نصيبه فى الصلاة والقراءة. وكل ذلك تحت إرشاد أى تحت توجيه مدبر أو مرشد يتولى المسئولية عنه ويتعهده بإرشاداته الخاصة، وكانت الأديرة القديمة فى الماضى من الناحية الروحية لهم مدبر واحد. وبعد ذلك سموه أب اعتراف، فأصبح للدير أب اعتراف واحد، وكان يوصف بأنه راهب روحانى واتجاهاته سليمة، وكان شيخ مختبر ومقيم فى الدير بصفة دائمة ورئاسة الدير مطمئنة إليه. وكان ذلك يؤدى إلى عدم وجود إنقسامات فكرية لأن المدبر واحد، لأن كثرة المدبرين تعطى إختلافات فكرية بينهم فتؤدى إلى إنقسامات فكرية فى الدير.

+ وهذه الفكرة تدعونى باستمرار بأنى أدعو أن يكون للأسرة أب إعتراف واحد للأب والأم والأولاد، لأن تعدد أباء الاعتراف لأسرة واحده، لا يخدم وحدة الأسرة بل أيضاً يضر أضرار بالغة، مهما قيل عن صلاحية أباء الاعتراف.

وكان الأب المدبر فى الدير يؤخذ رأيه عن مصير أى راهب من حيث الرسامة أو غيره.

ثالثاً: العابد:

العابد عادة حسب التطور النفسى والتطور الروحى بدأ يشعر بسعادة ولذة أكثر فى إطالة الصلاة، ووصل إلى هذه الدرجة بتطور منطقى طبيعى وبدون قفزات، ولكن خطوة خطوة وتحت إشراف أب الاعتراف أصبح فى إمكانه أن يعطى وقت أطول للصلاة. فيصبح فى إمكانه أن يستمر وجوده فى القلاية أحياناً يوم كامل أو أيام، وأحياناً يستمر أسبوع كامل لا يخرج من قلايته، ومع ذلك يشعر أنه يحيا فى نعيم وتتحول القلاية بالنسبة له إلى فردوس النعيم، لأنه عرف كيف يستغل وقته بدرجه جيدة جداً، وذلك لأن تقدمه كان تقدم تدريجى وبتطور طبيعى، وينصح الأباء أنه بدون هذا التطور المنطقى تتحول القلاية بالنسبة للراهب إلى جحيم، لذلك لابد من التطور التدريجى البطىء وتحت إشراف وتدبير.

يصل الراهب العابد إلى درجة أنه يقضى أوقات طويلة فى الصلاة دون أن يحدث له ملل، ودون أن تحدث له نكسة.

إذن هذا الراهب العابد، يكون عنده وقت للدراسة أيضاً بجوار وقت العبادة، وبطبيعة الحال يكون عكوفه فى القلاية وقت أطول، فى الوقت الذى يقل عمله الجماعى فى الدير، وبالتدريج يدخل بصورة أكبر فى الصلاة التى بلا إنقطاع. يصلى فى اليوم ٧٢ مزمور إلى جانب القطع وكذلك يضرب ٣٠٠ ميطانية، والأصوام والقراءات فى الكتاب المقدس والكتب الدينية، وفترات العبادة تطول أكثر ويتقدم فى العبادة من حيث الكم ومن حيث الكيف.

رابعاً: الناسك:

كلمة ناسك كلمة يونانية معناها إسقيطس ومنها جاءت كلمة اسقيط، وأول ما قيلت قيلت عن أبو مقار لذلك قالوا إسقيط مقاريوس.

مرحلة النسك، هو أن الراهب ما يزال موجود فى الدير، ولكن يأخذ الأسكيم الذى من مقتضياته أنه يصلى الـ ١٥٠ مزمور والتسبحة، ويضرب ٥٠٠ ميطانية فى اليوم، وكذلك يقل فى الكلام بقدر الإمكان، بحيث لا يتجاوز ما يتكلم به ٧ كلمات ويمتنع عن أكل اللحوم، وللعلم الرهبنة الغربية أخذت منا مبدأ الصمت وطبقوها فى بعض الرهبنات مثل رهبنة الكارمليت

وكلمة الكارمليت مأخوذة من جبل الكارمل جبل إيليا، والذى ما يزال موجود الآن فى بلاد فلسطين، وهو بعيد عن أورشليم، والكارملين أخذوا مبدأ يسموه مبدأ الصمت الكامل complete salons أو salons complete . ولا يسمحوا إلا للرئيس أو أحد آخر يتعامل مع الناس الذين يأتون من خارج، أن يتجاوز الـ ٧ كلمات إلى ما هو أكثر بحسب مقتضيات الخدمة، كنقطة إتصال ما بين الدير وخارج الدير، وأيضاً يوجد الرهبان الذين يسمون tarpest هؤلاء أيضاً مارسوا الصمت إلى جانب إمتناعهم عن أكل اللحوم وسمحوا بأكل السمك.

الراهب الناسك يلبس ما يعرف بالإسكيم، ومن الناحية الشكلية الإسكيم يكون فيه ١٢ صليب. ويمارس التسبحة ليس فى الكنيسة فقط ولكن فى القلاية. ويشغل كل وقته وبنظام فينتقل من المزامير إلى الميطانيات إلى التسبحة إلى قراءة الكتاب المقدس إلى قراءة الكتب الروحية، فيصير لا يوجد عنده وقت إطلاقاً لأن كل وقته مشغول، وهذا يعطيه الإحساس أن اليوم يمر عليه بسرعة وسهولة.

فى هذه المرحلة الأكل يقل أيضاً، ويبتدأ أن لا يكون عنده رغبة إلى شيء معين أو لذة معينة أو طعام من نوع معين، فيحتقر كل هذه الأشياء ويقل إهتمامه بشكلية الطبخ ويصبح أى أكل فى صورته البسيطة يقنع به. ولا يهتم بالكمية، أقل كمية تكفيه ونوع واحد يكفى.

وبعض الرهبان يكتفى بأكلة واحدة فى اليوم، بدون تفريق بين أيام الصوم وأيام الفطار، طبعاً فيه رهبان نموا فى الصوم فكانوا يصوموا أيام، الأنبا موسى الأسود وقت أن كان لص كان يأكل خروف فى الأكلة وكان يشرب زقين من الخمر، وعندما ترهبن أراد أن يصوم صوم الرهبان فلم يسمح له أب الدير، فأمر أنه يقطع جزء من جزع شجرة، ويوزن كل يوم ويعطى طعام على قدر وزنه، وطبعاً هذا الجزء من الشجرة يجف كل يوم عن اليوم السابق، وبذلك يقل الطعام تدريجياً، ومن رحمة أب الدير به لم ينزله إلى درجة الحرمان مرة واحدة حتى لا يضار جسدياً أو روحياً، حتى جاء الوقت الذى كان فيه القديس الأنبا موسى يصوم إنقطاعى، وبدأ يزود فترات الإنقطاع حتى وصل أنه كان يصوم أسبوع بأكمله وأحياناً أسبوعين، والقديس أبو مقار كان يصوم أربعين يوم، وكذلك مقاريوس الأسكندرى، كان يقال أن أبو مقار كان لا يأكل إلا يوم السبت نوع من الأوراق الخضراء مثل الخص، كل هذه الأصوام لم يصلوا إليها إلا بالتدريج خطوة خطوة. حتى لو كان فيه شاب راهب ويقسو على نفسه بالصوم كانوا يحذروه من الغرور، لذلك كان لابد أن الراهب يسيرعلى مبدأ، هذا من ناحية، ومن الناحية الأخرى يسير بالتدرج، وهنا أهمية الشيخ المختبر الذى عنده معرفة فى قيادة النفوس، فى أن يقود تلميذه قيادة ناجحة مفلحة لا تضره لاجسدياً وصحياً، أو روحياً بأن يصاب بضربة يمينية أو بضربة شمالية.

وكان أيضاً يقلل من الشراب ويقلل أيضاً من النوم ليدخل فى مراحل الصفاء، وهى السيطرة الكاملة على الجسد وإعطاء الروح المجالات الواسعة الخاصة بها.

خامساً: المتوحد:

المتوحد مر بهذه المراحل السابقة جميعاً، فترك مرحلة العبادة إلى ما هو أقوى منها، وترك مرحلة النسك إلى ما هو أبعد منها، فتزداد درجة العبادة عنده ثم يغلق على نفسه سواء أكان داخل الدير، أو خارج الدير فى مغارة أو قلاية أو صومعة بعيدة عن الدير ويعيش متوحداً، قد تمرعليه شهوراً لا يرى فيها إنساناً، وأحياناً يعيش داخل الديرعشرات السنوات لا يرى فيها باب الدير، وأحياناً يترك الدير نهائياً إلى ما يعرف بالبرية الجوانية.

مرحلة المتوحد هى مرحلة الراهب على الحقيقة واسمها موناخوس Ⲙⲟⲛⲁⲭⲟⲥ بالقبطى واليونانى وموناخوس معناها واحد أو متوحد، وهو المعنى القبطى القديم والمعروف للرهبنة، وهو رهبنة التوحد أو طريق التوحد. ونظام الأنبا باخوميوس هو نظام الشركة كان المقصود منه أنه طريق متوسط يؤدى إلى حياة التوحد، هو نظام يساعد الراهب خطوة خطوة وحتى يوصله إلى حياة التوحد. وهذا المتوحد يلبس المنطقة والإسكيم وهى كلمة يونانية وهذا الإسكيم من ١٢ صليب وله إلتزامات روحية منها ضرب ٥٠٠ ميطانية ويقنع بالقليل من الطعام وتزيد فترات الإنقطاع ويقلل من الكلام بقدر الإمكان حتى يعطى فرصة للتأمل الباطنى، ويصلى ١٥٠ مزمور يقسمها على اليوم كله، ويقنع بالقليل جداً من الطعام ومن الشراب، ويمكن أن يكتفى بالأعشاب التى يجدها فى الجبال، كالأنبا بولا الذى كان يعيش على البلح ونصف رغيف يومياً، فيكتفى بالأكل على صورته الطبيعية كما يجده فى الطبيعة، لأنه لا يوجد عنده وقت ليضيعه فى الطبخ، وعادة لا يصل هذه المرحلة إلا بعد سن الخمسين، وإذا أراد أحد الرهبان الصغار أن يدخل هذه الدرجة، يخاف عليه المرشدين الكبار المختبرين، ويمنعوه خوفاً أن يصاب بالغرور، وحتى يصل إلى درجة النضج حتى لا يتعثر ويرجع إلى الوراء .

يمكن لهذا المتوحد أن تقل الدراسة والعمل اليدوى عنده، ولكن الجزء الأكبر من وقته منصرف إلى التعبد.

سادساً: السياحة:

وهى تنقسم إلى مرحلتين: (أ) السياحة الجسدية:

ومعنى السياحة الجسدية، أى أن الراهب يصل إلى درجة من التطور الروحى أن لا يرتبط بقنيه أو بمكان، فمن كثرة زهده صار لا يحس أبداً أنه يملك شىء معين، فيعيش التجرد من

القنيه والمكان، ويفقد بالتدريج إحساسه أو إهتمامه بالإقتناء، ويغالى فى ذلك بحيث لا يكون له شىء إطلاقاً خاص به، كوب أو طبق أو قلاية أو مكان أو أى شىء اطلاقاً.

أنا رأيت فى دير الأنبا أنطونيوس راهب، سمعت أخيراً أنه تنيح، كان اسمه أبونا يسطس، هذا الراهب قلايته لا تجد فيها شىء إطلاقاً، جالس على الأرض، لا كرسى ولا باب ولا كوب ولا طبق ولا صورة، ولا سجادة، فكان مثل أيوب الصديق بعد التجارب، ومنظرغريب جداً، راهب فى القرن العشرين ويمارس هذه الحياة القاسية، لا يملك شىء، أنا رأيت القلاية لا يوجد بها شىء إطلاقاً. هذا النوع هو السياحة التى تنحل فيه الارتباط بالإقتناء، وليست له رغبة إطلاقاً فى أن يقتنى شىء، ويدوس على هذه الناحية، ويتطور فيها حتى يصبح ليس له شىء، لا يهمه أن يملك أو أن يأخذ أو لا يأخذ، وتموت فيه هذه الناحية بهذه الصورة، كذلك لا يكون له إرتباط إطلاقاً بالمكان، ولذلك يسيح بمعنى يتحرك فى أى مكان ويمارس ما قاله بولس الرسول عن المكابيين «تائهين فى البرارى والجبال، وفى جلود غنم وجلود ماعز معتازين مكروبين....». هؤلاء الرهبان يمارسوا درجة هذه السياحة عملياً، بمعنى أنه يتيه فى البرية فلا يرتبط بالبقاء فى مكان معين، إنما يترك هذا المكان إلى آخر ثم إلى غيره، حتى لا يشعر أبداً أن هناك شىء يشده إلى مكان معين أو رابطة تربطه بمكان، طبعاً هذه قسوة شديدة جداً جداً على الطبيعة البشرية، ولا يمكن أن يصلوا إليها الأباء مرة واحدة، فهى تحتاج إلى جهاد روحى ليتغلب على غريزة التملك الموجودة فيه ولابد من تطور باطنى مع زمن طويل، ولذلك يقال أن الرهبان فى هذه الدرجة عادة يكونوا عاشوا فى التوحد لا يقل عن ٥٠ سنة، طبعاً جايز تلاقى أمثلة من بعض السواح أقل من ذلك مثل الأنبا ميصائيل وغيره.

إذن السواح يكونوا من الشيوخ الذين انحلت منهم رابطة القنية ورابطة المكان، هذا من الناحية الجسدية.

(ب) السياحة الروحية:

أما المعنى الآخر من السياحة فهو السياحة الروحية، وهو أنه من كثرة روح العبادة أو التعبد يصير الراهب فى حالة شخوص فى الله، أى فى تأملات مستمرة فى الله، أى يصبح ذهنه سائح، أى خارج عن الدنيا، وعن العالم الحاضر إلى عالم آخر، العالم العقلانى والعالم الروحانى والعالم السماوى، عالم الملائكة والقديسين، فيصبح التأمل العقلى والتأمل الفكرى والروحى يشغلوا أكثر وقته، فكأنه فى العالم وهو ليس فى العالم، وذلك لأن ذهنه وعقله يكون مشدود خارج نطاق الحياة المادية. فيسيح بين التأملات والمفاهيم الروحية العالية الراقية، التى ترفعه على مستوى

الحياة الحاضرة، وهذه لا يصل إليها الراهب إلا بعد خبرات طويلة وتمرس ومران، وتصل به إلى هذا النوع من التأمل العالى لكى يصل إلى المرحلة السابعة مرحلة الثيئوريا.

سابعاً: الرؤية الإلهية (الثيئوريا).

الثيئوريا أى الرؤية فى الله أو ناظر الله، فترتفع روحانية الراهب **وتملأ الروح جسمه، ويتعدى نشاط الروح هذا الجسد**، كما يخرج النورمن جسم اللمبة، وهذه المرحلة توصف بمرحلة الإتحاد.

وهى مرحلة متصلة بالمرحلة السابقة، أو هى إمتداد وتطور لها، فيحدث ما نسميه بالثيئوريا وهى من كلمة ثيئوس وهى الله، وهى الرؤية الإلهية أو الرؤية الطوبانية والسائح فى هذه المرحلة يصل إلى مرحلة ما يمكن أن نسميه الإتحاد بينه وبين الله، وهذا الإتحاد ليس إتحاد طبيعة، إنما إتحاد إرادة ومشيئة، بمعنى أنه لا يصير الإنسان واحداً مع الله فى الطبيعة لأن هذا مستحيل، ولكن الإتحاد هنا بمعنى أنه تصبح إرادة الله إرادة الراهب ومشيئة الله مشيئة الراهب، وينعدم الفارق بين المشيئة الإلهية ومشيئة الراهب، أو إرادة الله وإرادة الراهب، فلا يوجد إختلاف أو تعارض بين إرادة الله وإرادة الراهب. أو بلغه أخرى **تسقط عن الراهب كل رغبة شخصية أو كل شهوة، ولا أقصد الشهوات العامة لأن الراهب المفروض أنه ارتفع فوقها، إنما الشهوة بمعنى حتى الشهوات الصالحة يسقطها أمام الإرادة الإلهية**، فيصير لا إرادة له غير إرادة الله، فبإرادته يسقط إرادته فى إرادة الله وبمشيئته يسلم لله مشيئته، هذه حالات قال عنها القديس اغسطينوس «مر بما تريد وافعل ما تأمر به» أى أصبح ليس له رغبة خاصة فى شىء إنما يسقط هذه الرغبة أمام إرادة الله.

وهنا يكون هذا الراهب وصل إلى ما عبر عنه بولس الرسول «لا أحيا أنا، بل المسيح يحيا فى» وهذه المرحلة يسموها مرحلة الفناء والبقاء بعد الفناء، والفناء أى أن الراهب يفنى عن ذاته فتنعدم الذاتية والآنية عنده وبذلك يصل إلى البقاء، فلا يبقى هو بل المسيح يبقى فيه.

فى هذه المرحلة وهى مرحلة الإتحاد بالله تصير له المناظر الروحية والرؤى الطوبانية، وهذا ما قال عنه بولس الرسول «آتى إلى مناظر الرب وإعلاناته، أعرف إنساناً فى الجسد لست أعلم، خارج الجسد لست أعلم اختطف هذا إلى السماء الثالثة، واختطف إلى الفردوس، وسمع أشياء لا ينطق بها ولا يسوغ لإنسان أن ينطق بها، وفى مرة أخرى يقول «أخذت فى غيبة» فما هى الغيبة؟ هو عدم الإحساس بوجوده الجسدانى على الأرض فيحدث له إختطاف وإنجذاب

روحانى، أى أن روحه رغم أنها مرتبطة بالجسد، وكأنها خرجت منه تنظر المناظر الروحانية والرؤى الطوبانية فى السماء. وهو بذلك يصل إلى حالة فيها لا يشعر الراهب بجسده، فيحدث له إختطاف عقلى أو إنجذاب فكرى، لدرجة أنه يصير مشدود تماماً فلا يدرى بجسده حياً كان أو ميتاً، فلو مر إنسان أمامه لا يراه، لو حدث صوت لا يسمعه، يصير عاجزاً عن السماع، وهذه المرحلة وصل إليها بعض الأباء الذين وصلوا إلى مرحلة السياحة المتأخرة، وهذا ما عبر عنه يوحنا الرسول «كنت فى الروح فى يوم الرب» ماذا تعنى كنت فى الروح؟ تعنى أنه كان غرقان فى الروح، الإمتصاص فى الروح أو الروحنه، نفس الجسد يتروحن أى تسقط عنه كل متطلباته ويصير الإنسان كأنه روح بلاجسد. ما أسهل أن نقول هذا الكلام، ولكن لكى يصل الراهب إلى هذه المرحلة، لابد من كثير من المجاهدات الطويلة والصبر والنسك حتى يتحول الجسد من طبيعته الترابية وميوله الأرضية، إلى روح من حيث طهارته ونقاوته وصفاءه، ومن حيث قدرته على أن يستشف ما وراء المادة وعلى أن يعاين الله.

وهذا لا يحدث إلا بعد الصفاء الشديد الذى به تنير نفسه من الداخل إنارة باطنية كبيرة جداً، ويصبح له كشاف داخلى يستطيع أن يكشف له زوايا نفسه وضعفاتها، وفى نفس الوقت يستطيع أن يكشف مستقبل الأمور كما قال سيدنا له المجد «إن الروح القدس يذكركم بكل ما قلته لكم، ويعلمكم كل شىء، ويخبركم بأمور آتيه» فبالنسبة للماضى يذكر وبالنسبة للحاضر يعلم وبالنسبة للمستقبل يخبر بأمور آتيه، هؤلاء الناس يوصلوا إلى هذه المرحلة التى فيها الكشاف الداخلى، أو عمل الميرون أو مسحة الروح القدس، تصير لامعة جداً وقوية جداً بفضل العبادات والرياضات الروحية، وهذه ما يسموها حالة الإنارة الباطنية. وهنا السياحة بالمعنى الروحى، ثم يدخل فى مجمع القديسين بعد أن ترك المجمع الكبير فى العالم، ودخل فى مجمع الرهبان، ثم يدخل مجمع القديسين فى العالم الآخر والسواح الموجودين فى أماكن متشعبة.

هؤلاء العمالقة يصلوا لناحية أخرى، وهى إنعدام العداوة بينه وبين الوحوش، فلا تؤذيه الوحوش، ولا تفترسه، وهذا بعكس المبتدئين ذو القامة الروحية البسيطة، عندما يحاولوا أن يحاكوا هؤلاء العمالقة، ويخرجوا فى البرارى تأكلهم الوحوش، هذا إلى جوار أنه يصيبهم الأمراض للإنتقال المفاجىء من حياة العالم إلى حياة الصحراء القاسية فى الحر والبرد وخلافه، هذا إلى جانب أن هذا يحتاج تدريب كثير، ولذلك الأنبا باخوميوس وضع نظام الشركة رحمة بهؤلاء المبتدئين، ولأنه من الصعب أن ينتقل الإنسان فجأة من المجتمع الكبير إلى حياة التوحد المطلق، التى عاش فيها قلة من الرهبان الممتازين مثل الأنبا أنطونيوس والأنبا بولا أول السواح

والأنبا باخوميوس والأنبا شنوده رئيس المتوحدين، والأنبا بيشوى وأبو مقار وما إليهم من كبار الروحانيين والقديس مرقس ونسميه ناظر الإله وكذلك الأنبا رويس ويسموه الثيؤفينوس أو أنبا فُريج، الحقيقة كانت حياته عجيبة الشكل، رجل يبيع الملح ولكن كان له خبرات طويلة فى الحياة الروحية بحيث أنه فعلاً تصير له المكاشفات الروحية كبيرة جداً، ويحدث له إختطاف، وهذا الإختطاف من صفات الرهبان المتوحدين السواح، الذين يحدث لهم ليس فقط إختطاف عقلى بل أيضاً اختطاف جسدى، لأن أجسادهم تكون خفيفة، والروح تكون مسيطرة على الجسد، فتستطيع أن تنقل الجسد طبعاً هذا مع الإرادة الإلهية والصلوات، كما حدث مع فيلبس الرسول الذى وجد فى أشدود، وكما حدث مع حبقوق النبى الذى اختطف إلى دانيال النبى بالأكل الذى أعده حبقوق ليأكل منه دانيال، هذا الإختطاف موجود فى الكتاب المقدس، وموجود فى حياة القديسين والروحانيين الذى يحدث لهم إختطاف، خصوصاً عندما يكونوا محتاجين إلى التناول من الأسرار المقدسة، وربما يكونوا فى البرية الجوانية فيختطفوا إلى الكنائس المهجورة أو الكنائس القديمة الموجودة تحت المساجد، وفى غير الأوقات العادية ويعملوا القداسات ويتناولوا.

الأنبا شنوده رئيس المتوحدين كانت له مكاشفات روحانية غير عادية، يوجد مخطوط عن حياته بقلم تلميذه ويصا، وكان يخرج الأنبا شنوده إلى مغارة بعيدة عن الدير ويعيش فيها فترات طويلة وكان يوصى ويصا، لو أى أحد طلبنى لا تحضر لى اتركنى فى وحدتى، وفى مرة بعد ما غادر الأنبا شنوده الدير حضر جماعة من ايطاليا وبلاد الغرب، وطلبوا أن يقابلوا الأنبا شنوده للضرورة، فقال لهم ويصا غير ممكن، وهم أيضاً قالوا غير ممكن نرجع بدون أن نراه، نحن حضرنا من مسافة بعيدة والأمر يحتاج له وبعضهم بكى، واستمروا عدة أيام ولما ويصا رأى هذا الوضع اضطر أن يذهب للأنبا شنوده وهو خائف من غضبه عليه، ولما وصل المغارة لم يستطع أن يدخل عليه، فابتدأ يدورحول المغارة، وفى أثناء دورانه حول المغارة رأى من إحدى فتحات المغارة نور غير عادى، فانجذب للرؤية فرأى مناظر روحانية جميلة جداً، رأى إيليا النبى وأليشع وكثير من القديسين وملائكة كثيرة، وسمع محادثات على مستوى غير عادى، ونسى نفسه ونسى المهمة التى حضر من أجلها. وبعدما اختفت المناظر ذهب إلى باب المغارة وقال للأنبا شنوده أغابى، والأنبا شنوده غضب عليه وقال له لماذا حضرت؟ فعمل ميطانية واستسمحه وقال سامحنى... وفى النهاية قبل الأنبا شنوده الإعتذار، وفى أثناء العودة قال له يا معلمى أنا أتيحت لى أن أرى هذه المناظر الروحانية ماهذه؟ فزجره الأنبا شنوده وقال له لماذا تنظر، فقال

له يا معلمي أنا كنت خايف منك وكنت أدور حول المغارة فوجدت الفتحة، فوصاه أن لا يقول لأحد. وقال له، هذه أشياء يرسلها لنا الله للتعزية والتقوية والتشجيع، وهم راجعين نظر سلم من الأرض إلى السماء شبيه بسلم يعقوب، وشاف معلمه الأنبا شنوده صعد فوق السلم فصعد وراءه، فلما صعد رأى ما يسمى بكنيسة الأبكار، ووجد قداس ورأى القديس بولس الرسول يقرأ البولس وبطرس الرسول يقرأ الكاثوليكون ومتى الرسول يقرأ الإنجيل، المخطوط يقول هذا، وتناولوا من الأسرار المقدسة وأعطوا الأنبا شنوده تفاحة والأنبا ويصا تفاحة. لا نعرف هذه التفاحة من أي نوع، المهم فعلاً شيء غير سهل إن الواحد يقسو على نفسه بهذه الصورة ويعيش هذه الحياة المملوءة شظف وضيق وتعب وموت إلا إذا كان فيها هذا النعيم.

الرهبنة هى الوصول إلى الأصول(١)

طريق الرهبنة هو الطريق الصاعد إلى الله. فالراهب مع الرياضات الروحية حسب المستويات التى تكلموا عنها الأباء الروحانيين، الصوم من جهة وخصوصاً الصوم بحكمة والصوم بتدرج، وليس بإفتعال لأن كل شيء بالإفتعال تكون نتيجته غير حسنة.

عن طريق الصوم وعن طريق التأملات والرياضات العليا، ورفع العقل كما نقول فى القداس ارفعوا عقولكم، رفع العقل المستمر والتأمل والشخوص المستمر فى الله وفى الحياة الروحانية، وفى الصورة التى خلقنا عليها، كثرة التأمل فى هذه الصورة تجعل الصورة تنطبع فى القلب، ثم يزداد الربط ما بين الإنسان وبين هذه الصورة، وكلما نظر الإنسان إلى الله وكانت الكاميرا فى يده جيدة ومضبوطة، وقادر على التحكم فى الكاميرا بأعصاب هادئة وغير مشدودة، كلما انطبعت الصورة فى القلب واضحة تماماً.

فنحن كبشر خلقنا على صورة الله ومثاله، ولكن صورتنا بالخطيئة فسدت، فلم نعد فى نفس الصورة التى خلقنا الله عليها، فالعبادة فى العهد الجديد والرياضات الروحية القصد منها أنها تردنا مرة ثانية إلى الصورة الأصلية التى خلقنا عليها، وفى هذه الحالة صورة الله تنطبع فينا وتصير هناك مطابقة إلى حد ما بين الإنسان وبين الله.

القصد من الرياضات الروحية:

القصد من الرياضات الروحية هى الوصول إلى هذه المطابقة بين الإنسان والله، لأننا مدعوين إلى الكمال «كونوا كاملين كما أن أباكم الذى فى السموات هو كامل»، «ونظير القدوس الذى دعاكم كونوا أنتم أيضاً قديسين فى كل سيرة»، لذلك يعوزنا أن يحملق الإنسان طويلاً فى الله لأجل أن تنطبع صورته، يحملق ولا يهتز ولا ينحرف بنظره يميناً أو شمالاً حتى تخرج الصورة مضبوطة، وبهذه الطريقة نصل للعلاقة المباشرة بين الإنسان بالحق المستقيم الذى يربط الإنسان بالله مباشرة.

الحقيقة هذا هو هدف الرهبنة الأصلى كما فهمه أباء الرهبنة الذين يسموهم أباء الإسكيم، فالرهبنة ليست هرباً من الخطيئة، أو هرباً من مسئوليات الحياة أو مسئوليات الزواج أو مسئوليات الأولاد أو مسئوليات الوظيفة، أو نتيجة فشل فى العلاقات الإجتماعية مع الناس ومع الرؤساء أو مع الزملاء أو مع المرءوسين. لأنه لو حدث شيء من ذلك يصبح هذا الإنسان مريض نفسياً،

---

(١) حديث مع رهبان دير مارمينا العجائبى يوم ١٩٧٧/١١/٢٩ ـ نقلاً عن شريط كاسيت.

ومع الأسف يحدث فى بعض الأحيان أو فى كثير من الأحيان،واحد يكون مريض نفسياً ولا يستطيع أن يضبط علاقته مع الناس بنجاح، فيقول أنا أصل دعوتى هى دعوة للرهبنة، وكل هذا التأويل خاطىء لأن هذا الإنسان مريض وليس علاجه أن يسلك فى طريق الرهبنة، لم يقل أحد أن الرهبنة ملاذاً لكل من يهرب من المواجهة مع المجتمع، إنما الرهبنة هدفها الأكبر هو مطاردة المثل الأعلى للحصول عليه، الجرى وراء المثل الأعلى، محاولة الوصول إلى الكمال وإلى القداسة التى نحن مدعوين لها. هؤلاء الأشخاص المدعوين يروا أن الكلام مع الناس يعطلهم، وأنه لو عمل فى أى وظيفة من وظائف العالم ستأخذ وقته وجهده، فيفضل أن يعطى وقته كله لله.

والحقيقة لو الإنسان حسب عمره ومقدار ما قدمه لله، سيجد وقت محدود وقليل جداً، فالإنسان مثلاً عمره ٧٠ أو ٨٠ سنة، عندما أعمل حسابى الوقت الذى أصرفه فى الوظيفة وفى علاقاتى مع الناس سأجد أنه لا يتبقى شىء، أنا مرة زمان أيام الشباب المبكر كنت ٣٥ سنة، أتذكر أنى أنا كنت أسير فى شارع اسمه عبد العزيز بجوارالعتبة، فوجدت محل موبيليا ولفت نظرى يافطة كبيرة، مكتوب عليها هل تعلم أنك تقضى نصف حياتك على السرير؟ الرجل بيعمل إعلان عن السرير، أنا فى الحقيقة انزعجت، نص حياتى على السرير، ولكن لما فكرت لقيت إن أكثر من النص، ومعروف فى كل العالم أن فى فترة الشباب المفروض أن ينام فى حدود ٨ ساعات، وعندما نحسب أيام الطفولة وأيام المرض ولا يخلو حياة الإنسان من مرض، وأيام الشيخوخة، قد يصل ما ينامه الإنسان أكثر من ١٥ ساعة يومياً، فتصور إنك أنت عندما تصل فى السن ٧٠ سنة تجد أنك نمت أكثر من ٤٠ سنة من الـ ٧٠ سنة، أو ربما تصل إلى ٥٠ سنة. ماذا يبقى لك من عمرك؟ ٢٠ سنة تقضى منها فى الأكل والإعداد له والعمل والعلاقات مع الناس والراحة، ماذا يتبقى لله ؟ ماذا يتبقى لبناء الحياة الروحية التى عليها يتوقف الحياة الأبدية؟ مصير الإنسان فى الحياة الأخرى يتوقف على حياتنا! فإخوانا العقلاء منا أو الروحيين رأوا أنه من الأفضل أن يصرف الباقى من حياته لله، فيعطى حياته ووقته وأعصابه وفكره للرب.

فالهدف الأساسى للرهبنة كما فهمونا الروحانيين، الذين شقوا الطريق قبلنا، هدفهم ليس هدف سلبى مجرد كراهية الناس!! لو كانت الرهبنة للراهب هروب من مسئوليات الحياة أو فشل فتصير هذه حالة مرضية، وتظل هذه الحالة مختفية وكامنة فى الشخص مدة وجوده داخل الدير، حتى يخرج من الدير ويجد الإيثارات القديمة، وهؤلاء هم الأشخاص الذين بهم تشقى الكنيسة، عندما يجىء وقت من الأوقات ويكونوا فى الرئاسات الكهنوتية، أمثال هؤلاء الأشخاص الذين أصلاً كانوا مرضى، وكانوا يحتاجوا إلى العلاج فلم يجدوا العلاج، وهربوا إلى طريق الرهبنة واختفت

هذه الأمراض فيهم مؤقتاً، وظنوا أن هذا الإختفاء المؤقت معناه أنهم وصلوا إلى حالة روحانية عالية، بعد أن أصبحوا فى الرهبنة، فيقولوا نحن الآن أصبحنا روحانيين، وعندما يرجعوا إلى العالم يظهر فيهم أعراض المرض من جديد، إذن لابد أن الإنسان يفحص نفسه قبل أن يدخل الرهبنة، لماذا أنا داخل الرهبنة؟ هل داخل الرهبنة هرباً من الزواج ؟ هل داخل الرهبنة هرباً من تبعات الأولاد؟ هل هرباً من العلاقات الإجتماعية؟ هل أنا اخترت الرهبنة لأنها طريق الكمال؟ لكى أقضى حياتى الباقية كلها مع ربنا، لكى أدخر وأهيىء نفسى للحياة الأبدية. الإنسان عندما يكون مسافر إلى الخارج، يستمر فترة قبل السفر يجهز نفسه لهذه الرحلة، فالحقيقة هذا السؤال يلح على فكرنا، نحن كلنا مسافرين، ما الذى صنعناه إستعداداً لهذه الرحلة؟ لذلك الأباء الروحانيين وضعوا أرجلهم على بداية الطريق بالرهبنة، وبمجرد فحصهم وجدوا أن نيتهم بقصد الرهبنة طاهرة وأنهم يهدفوا إلى الكمال، فابتدأوا يستعدوا ويجهزوا أنفسهم للرحلة.

لماذا صلاة الموتى على الراهب:

وأول خطوة فى طريق الرهبنة هو الموت، الموت إرادياً ومعنوياً، ومن هنا جاءت فكرة أن يصلوا عليهم صلاة الموتى، وهو ليس طقس ظاهرى، وإنما رغبة الشخص أن يعتبر نفسه أنه بدخوله للرهبنة قد انتقل للحياة الأخرى، لكن لماذا الراهب يصلوا عليه صلاة الموتى؟ أعتقد أنه السبب الأساسى وراء هذا الطقس، هو أولاً أن الراهب وضع فى ذهنه أنه مات فعلاً بمعنى دخل إلى العالم الآخر. فأصبحت صلته الخارجية بالعالم انتهت، وأنه دخل فى الحياة الأخرى، وأنه يجهز نفسه لهذه العملية، فالصلاة على الموتى معناها أنه دخل فعلاً إلى العالم الآخر، فالدخول فى الرهبنة معناها دخول فى العالم الآخر، ولذلك الرهبنة فى واقع الأمر من جهة هى مطاردة للكمال والجرى وراء القداسة، وأيضاً دخول فى العالم الآخر، وهذا يحتاج لقطع الصلة بالعالم وعدم العودة إليه، ومن هنا جاءت فكرة أنبا أنطونيوس عندما قال أن الراهب إذا نزل إلى العالم مثل السمكة التى تخرج من البحر تموت، فحياة السمكة أن تكون فى الماء، طالما هى فى الماء تظل حية تتحرك، لو خرجت من هذا الماء تموت. هذا الكلام الذى قاله الأنبا أنطونيوس كان حريص عليه جداً ، ولذلك الأنبا أنطونيوس لم ينزل إلى العالم إلا ثلاثة مرات لمهمة، ورجع بعدها مباشرة.

فى الكنيسة طرازين من الأباء:

الحقيقة فكر الرهبنة القبطية الأصيل هو أن الواحد يدخل فى الرياضات الروحية، للوصول إلى المراقى العالية التى وصل إليها الأباء العظام الكبار، ولكن إذا رجع الإنسان إلى العالم يصير الدير بالنسبة له خلوة، فكل خادم يحتاج للخلوة، لكن فرق بين أن تكون الخلوة مجرد خلوة

للتنشيط الروحى، يعود بعدها الإنسان إلى العمل وإلى الخدمة، وبين أن تكون الخلوة منهج للراهب فى الحياة. فى الرهبنة القبطية الأصيلة، الرهبنة أو البقاء فى الدير أو فى الصومعة هو المنهج، ولذلك عندنا طرازين من الرجال، طراز الذين دخلوا فى الصحراء لفترة معينة، ورجعوا إلى الخدمة مرة أخرى فى العالم، هؤلاء هم طراز الخدام لكن ليسوا طراز الرهبان، وعلى رأس هؤلاء سيدنا له المجد، المسيح، لأنه لم يكن ممكناً للمسيح وقد جاء إلى العالم من أجل رساله أن يبقى فى الصحراء، فذهب إلى الصحراء أو إلى الجبل ٤٠ يوم، لذلك أصبح تقليد فى الكنيسة أن الخادم الكاهن بعد رسامته، يذهب إلى الدير مثلما ذهب المسيح بعد حلول الروح القدس، واستمر ٤٠ يوم ونسميها الخلوة الأربعينية، بولس الرسول لم يكن ممكناً أن يكون راهب !! لأنه رسول والرسول لابد أن يخدم فى وسط العالم، إنما ذهب إلى صحراء العرب التى فى جنوب فلسطين التى سماها العربية واستمر هناك ٣ سنين وهذه المدة هى التى رأى فيها المناظر الروحانية، لكن هناك طراز آخر هو طراز إيليا وأليشع ويوحنا المعمدان، هذا طريق الرهبان، إيليا طول وقته فى الجبل لا ينزل إلا ليؤدى رسالة بتكليف من الله، ينزل يقول لآخاب كلمتين ويرجع مرة أخرى، إنما حياته بإستمرار أمام الله، لذلك يقول «حى هو الرب الذى أنا واقف أمامه» تعبير عميق جداً، وأليشع النبى طول وقته فى الجبل ينزل ليؤدى رسالة، ولذلك أليشع النبى بسبب هذه الروحانية العالية التى بلغها فى الجبل كان مكشوف العينين، يوحنا المعمدان يقول «وكان فى البرارى إلى يوم ظهوره لإسرائيل» ويوم أن ظهر لإسرائيل لم ينزل هو إلى العالم، ولكن الجماهيركانت تذهب إليه، يقول «كانوا يخرجون إليه» لكن نزل يوم أن أمر هيرودس أن يقبض عليه ويوضع فى السجن، نزل بالقوة.

الكنيسة محتاجة إلى هذين الطرازين والإثنين يكملا بعض، ليسا ضداً لبعض، والكنيسة فى حاجة إلى هؤلاء وإلى أولئك، وأنا أضرب مثل لأبين الفرق بين الأثنين وكيف أن الأثنين يكملا بعضاً، بالعالِم والمعلِم، فنحن فى المدرسة نحتاج إلى المعلم، المعلم هو الذى يشرح الدرس، وعنده موهبة خاصة كيف يشرح الدرس ويقرب الدرس للتلاميذ، إنما المعلم أو المدرس قبل شرح الدرس يحتاج تحضير للدرس، فيقرأ الدرس من كتاب أو كتب كتبها علماء، والعلماء يحتاجوا البعد عن العالم والوجود الإنسانى والعكوف على العلم مثل نيوتن وداروين، وكيف كانا منفصلين إنفصالاً كلياً عن العلاقات الإجتماعية. فيه قصة تذكر عن نيوتن أنه كان من كثرة إندماجه فى الدراسات فى المعمل أو فى المكان الذى يعمل فيه أنه كان ينسى أن يأكل أو يشرب، لدرجة أن زوجته دخلت عليه مرة ليفطر، فأحضرت له بيضه ليفطر بها، وأحضرت له وابور سبرتو وكسرولة ليسلق البيضة، وتركته، فمن كثرة مشغوليته وضع الساعة فى الكسرولة على النار،

وترك البيضة واستمر فى عمله، وبعد فترة طويلة حضرتِ زوجته لترفعِ بقايا البيضة فوجدت الساعة فى الكسرولة والماء يغلى، هذا يعطى الفرق بين العالِم والمعلم، العالم إنسان يعكف على العلم وعلى الدرس وعلى العمل فى المعمل لكى يصل إلى الأصول، وليس إلى المعرفة العامة، إلى أصول المعرفة، لذلك يتوصلوا إلى نظريات ويتوصلوا إلى قوانين، ويتوصلوا إلى كشوف وإلى اختراعات وإلى حقائق يأخذها الناس من طراز المعلمين ليشرحوها للناس فى الخارج.

المجتمع لابد له من هذا ولابد له من ذاك، نحن لا نحتقر هذا ولا نحتقر ذاك، لابد للعالم من العلماء ولابد للعالم من المعلمين، الإثنين يكملا بعض لكن لا نقدر أن نقول أنه يجب أن كل الناس يكونوا معلمين، هناك بعض الناس يقولون «الرهبان دفنوا أنفسهم» مثل موسهيم المؤرخ البروتستانتى كتب تعليق على الأنبا أنطونيوس سخيف جداً «يقول عاش عيشه لا تليق إلا بالحيوان» يتكلم بهذا الكلام على الأنبا أنطونيوس، الذى الأرض وما عليها لا تستحق وطأة من قدم الأنبا أنطونيوس كما قالوا الأباء. بعض الناس يقولوا دفنوا أنفسهم ماذا استفاد، الرجل الذى دفن نفسه (الأنبا أنطونيوس) نحن حتى الآن نعيش على خبرات هذا الرجل، وعلى العمق الروحانى الذى وصل إليه، وهكذا آخرون من الأباء العظام. فهناك من تكون دعوته أن يكون عالم وآخر دعوته أن يكون معلم، ولكن نادراً أن الإنسان يجمع مابين الإثنين.

الوصول إلى الأصول:

فكرة الرهبنة أساساً هى فكرة الوصول إلى الأصول الدينية، ولذلك الكتب أو الخبرات التى كتبوها كبار الرهبان، سواء كتبوها أو نقلوها شفهياً لتلاميذهم والذين عاشوا عليها وكانت بالنسبة لهم تراث، تراث وتقليد تسلموه وعاشوا عليه وأنفاس تنسموها وانتعشت بها حياتهم، هؤلاء الناس قبل أن يكتبوا شىء أو يتتلمذ عليهم أحد وصلوا إلى أصول المعرفة الروحية، ولذلك هؤلاء الناس وصلوا إلى يقينية دينية لاتقدر قوة أنها تنزعها منهم لأنهم وصلوا إلى الجذور، وأصبح الدين عندهم لم يبنى على معلومات سمعوها من فلان أو غيره أو قرأوها فى كتاب، ولكنهم كما قال عنهم بولس الرسول دخلوا إلى الطول والعرض والعمق، معرفة المسيح لها طول ولها عرض ولها عمق، هناك أشخاص تقف على المشارف من الخارج ،لكن هناك أشخاص يدخلوا إلى الطول وإلى العرض وإلى العمق، ليصلوا إلى ما يعرف بالقامة الكاملة للمسيح لأنه المثل الأعلى لنا، لا ليعرف عن المسيح، أو يعرف المسيح، أو لكى يعرف عن الحياة الروحية، لكن لكى يدخل فى الحياة الروحية الدخول الحقيقى ويدخل الدين إلى أعماق نفسه، يدخل مع الدم ومع الشرايين ومع الأعصاب، ويصبح الدين كيانه ويصبح طبيعته ولا تستطيع بأى حال من الأحوال أن تفصل الدين أو الحياة الروحية عنه، ويصبح هو الدين والدين هو، وهذا هو المفروض الحقيقة أن

يكون فى رجل الدين، ما هو رجل الدين؟ هو الدين، أنظر إلى رجل الدين وأقول هذا هو الدين، لأنه حدث إندماج بينه وبين الدين، فأصبح الدين بالنسبه له طبيعته، وعندما أحب أن أعرف الدين أنظرلرجل الدين، لأن الدين بدون رجال الدين يصير شيء مجرد، والناس لا يفهمون الدين مجردا عن رجال الدين، الدين حاجة ظاهرة لكن لا يمكن أن تظهر للناس إلا متجسدة فى رجل الدين. ويقال عن قس بن ساعده أنه كان أسقف، وكان أحد الشعراء المسيحيين يشرب الخمر، وكان هذا الأسقف كبير السن، وكان يناقش الشاعر بشدة وأخذ ينهره وخاصه بعد أن كلمه عدة مرات، ولم يستجب الشاعر للنصيحة، وكان يمسك عصا فرفعها ليضرب الأسقف، فجرى الأسقف فرآه الناس يجرى فقالوا «أرجل شيخ يجرى!! هذا هو الدين»، لم يقولوا رجل الدين بل قالوا هو الدين، فيجب ألا يكون هناك فصل بين الدين ورجل الدين، مفروض أن رجل الدين يكون هو الدين أنظر له أتعلم منه، عيونه تكلمنى عن الدين، صوته يكلمنى عن الدين، خطوته تكلمنى عن الدين، كل شيء فيه يكلمنى عن الدين، هو الدين متجسداً، فالحقيقة الرهبنة فى عمقها، معناها تحويل هذا الشخص (الراهب) من كثرة إندماجة فى الحياة الروحية وعكوفة عليها وتفرغه وإنقطاعه وامتصاصه لها، من كثرة هذا الإمتصاص يصبح هو والدين طبيعة واحدة، ويصبح هو الدين وهو رجل الدين. والإنسان ينظر إليه ويقول هذا هو الدين، كان هناك شخص أمريكى غنى، والدين بالنسبة له ظاهرة إجتماعية، فقال أنا أقوم برحلة أدرس فيها ظاهرة الدين، فالرجل مجرد باحث أو رحالة، رجل غنى مليونير وعنده وقت فقام برحلة حول العالم كله وكتب عن الرحلة ثلاث مجلدات، وكتب جملة قالها فى آخر الكتاب قال «أنا وجدت الدين ظاهرة، وفى كثير من الأماكن إسماً على غير مسمى، ولكنى وجدته فى صعيد مصر» كان من تدبير الله أنه رأى الأنبا إبرآم أسقف الفيوم، لذلك قال أنه وجد الدين فى صعيد مصر، وقصد الأنبا إبرآم بالذات. لأنه كان الذى ينظر له يقول هو الدين، مرة أخرى واحد كاتب انجليزى اسمه leader كتب كتاب بعنوان the modern sons of the faros (أبناء الفراعين المحدثين) قصد بهم الأقباط، فى آخر الكتاب كتب فصل بأكمله عن القديس الأنبا إبرآم اسقف الفيوم، ويقول أنى قابلت فى فرنسا إمرأه قالت لى أن هناك أسقف فى مصر يحيا الحياة الرسولية على أصولها هو الأنبا أبرأم. فيقول اشتقت أن أحضر إلى مصر وأقابل الأنبا إبرآم، وعلى طريقته الغربية بعد وصوله مصر، طلب من الأقباط خصوصاً الذين يعرفوا إنجليزى أنهم يهيئوا له فرصة هذا اللقاء، ولكن الأقباط تملصوا من ذلك، لأن أنبا إبرآم كان رجل بسيط وفى بساطته لا يعطى الصورة الجميلة الموجودة عند رجال الدين فى أوربا للأساقفة والمطارنة والباباوات، وجدوا المطرانية قذرة، والأثاث فيها هالك فقالوا نحن سنفضح أنفسنا، وكان معروف فى زمن أنبا إبرآم أهل الفيوم كانوا متضايقين جداً من حياة الأنبا إبرآم، اليوم نحن نمجد الأنبا إبرآم، لكن

وقت أن كان الأنبا إبرآم موجود، كان كثير من الناس تخجل منه، وكان هناك أشخاص تشتكى منه، واشتكوه للأنبا كيرلس الخامس إلى آخره، المهم قال الرجل أنا أحسست أن الأقباط يتملصوا، ففهم الرجل بإحساسه، أنهم لا يودون أن يأخذ ميعاد، فقال بطريقتى الخاصة أنا ذهبت ودخلت على الرجل أنا وزوجتى، يقول وجدته «جالسا على دكة خشبية وتحت منه فروة، لكنى وجدته جالسا على عرش الروحانية، انظر التعبير، جالسا على عرش الروحانية، الرجل الغلبان الذى يجلس على دكة خشبية، يقول وأنا داخل عليه وجدته جالسا على عرش الروحانية، ثم يقول أنا وزوجتى ركعنا أمامه ليصلى علينا، فصلى علينا صلاة لا أعرف منها شيئا، هل هى بالقبطية أو بالعربية، فصلى علينا صلاة طويلة ولكنى أنا أحسست أنى أخذت شيئا ما، ما هو .... أنا لا أفهمه، لكنى شعرت نفسيا وروحيا أنى أخذت الشيء الذى يسموه البركة، بينما أنى لم أفهم كلمة مما يقوله، وخرج الرجل يشعر بإحساس عميق جدا قربه إلى الله وقربه إلى الحياة الروحية.

أنا أود أن أقول أن فكرة الرهبنة أساسا، هى أن الإنسان يندمج فى الله مثل ما قال ماراسحق «الإنحلال عن الكل للاتحاد بالواحد» فالواحد من كثرة ما أعطى وقته يندمج هذا الإندماج الذى يقود إلى أنه يمتص الإلهيات ويمتص الروحانيات وتدخل فى نسيج جسمه كله، لو أردنا أن نضرب مثلا نقول يصير مثل الحبر الذى يدخل فى النشافة، يدخل فى نسيجها لو أردت تمسحه لا يمكن، لا يوجد أى أستيكة تقدر تطلع الحبر الذى دخل داخل نسيج النشافة، الأستيكة تقطع النشافة لكن لا يمكن تطلع الحبر.

فهؤلاء الناس يدخلوا الحياة الروحية ويندمجوا فيها وتدخل هى فيهم، وتصبح من طبيعتهم وعندما تنظر إليه تجد نظرته روحية، تجد إشعاعات خارجة منه، من دون أن يتكلم، طاقة مغناطيسية تجذب كل الناس الذين يقعوا فى المجال المغناطيسى الخاص به، كان هيرودس يهاب يوحنا، هيرودس الملك الكبير يهاب يوحنا، ويوحنا لا صاحب عزة ولا صاحب سعادة ولا صاحب أسلحة، رجل غلبان وفقير، يلبس منطقة من جلد على حقويه،لكن هيرودس الذى قتل ابنه وقتل أخوه وقتل أخته، واغتصب زوجة أخوه فيلبس وهو حى، هذا الرجل الطاغية السفاح يهاب يوحنا، عالما أنه رجل بار وقديس، ضريبة القديسين على الناس، الهيبة الروحانية، لا نقصد الهيبة التى يمكن للواحد أن يخضع للرئيس لكن قد لا يحترمه، هنا الفرق بين الخضوع والإحترام، فرق بين هذه الهيبة التى كان يحسها هيرودس وهو رجل طاغية ويشعر بها نحو يوحنا، وبين أى نوع آخر من الخضوع الذى يخضع به أى واحد لرئيسه، لأنه دائما الإحترام يتجه إلى الفضيلة التى يجدها الإنسان فى هذا الشخص ولا يجدها فى نفسه، فكان هيرودس يهاب يوحنا.

الجماعة الروحانيين الذين يرغبون فى الوصول إلى الأصول، فى المعرفة الروحية ويتعمقوها لا لكى يتكلموا عنها ولكن لكى يشبعوا ويرتوا، ولذلك يعيشوا فى سعادة روحية وفكرية، السعادة التى عبر عنها أرسطو وسماها اللذة العقلية، هؤلاء الناس يعيشوا فى سعادة على الأرض، يعيشوا فى السماء وهم على الأرض. يعيشوا فى السماء ليس لأجل المناظر الروحانية التى يروها، ولكن لأجل اللذات الروحانية. القديس غريغوريوس الثيئولوغوس عندما ترك مسئولياته وذهب للرهبنة وعاش فى المغارة مع الحيات والعقارب والثعابين يقول: «لو علم الذين ضايقونى أية لذات أعيش فيها لعلموا أن بمضايقتهم لى خدمونى» انظر بدلاً من أن يسخط ويتضايق ويجلس يتذكر الآلام والمضايقات التى قابلها من هؤلاء الناس، يقول لو علم الذين ضايقونى أية لذات أعيش فيها، لو علموا أن بمضايقتهم لى خدمونى.

فغلسفة الرهبنة وعمق الرهبنة هنا أنه يدخل هذه الأعماق ويعرف الأصول أو يدخل إلى الأصول، يدخل إلى الطول والعرض والعمق، هو نفسه سيحس بسعادة ولذة لا يعبر عنها، لذة روحانية عقلية تفوق أى شعور آخر باللذة، وبعد ذلك يبقى هو راسخ فى الإيمان وراسخ فى العقيدة وراسخ فى المعرفة الروحية ويبقى عقله وفكره وحواسه كلها معلقة فى السماء، يعيش فى السماء وهو على الأرض، فيوم أن ينحل منه الجسد لا يصنع معه فرق أبدا، لا عنده فرق بين الموت وبين الحياة، لأن مثل ما قال الرسول الموت ربح، أمثال هؤلاء لا يفرقون بين الموت والحياة، إنعدم هذا الفارق، ولذلك ساعة الموت أو ما يسمى بالموت بالنسبة لهم تبقى وجوههم مشرقة وفرحين وسعداء، لأن عيونهم مكشوفة وشايفين ما هو فوق وما هو تحت وما حولهم، ويحضر القديسين والملائكة والعذراء يأخذونهم فى موكب عظيم، فيكون الواحد وهو على الأرض مواطن فى السماء لأنه أخذ جنسية السماء وهو على الأرض، عنده تأشيرة الخروج وتأشيرة الدخول جاهزة فى جيبه، ويستطيع أن يسافر فى أى وقت، لا أحد يستطيع أن يمنعه، الطريق سهل أمامه.

هل الرهبنة إبداع مصرى ؟

الرهبنة - الرَهبانِيّة - الرُهبانيَّة

نظام تعبدى خاص لمجموعة من الناس ارتضيت لنفسها أن تعيش فى عزله عن ضوضاء الحياة العامة وصخبها، كلفاً بالهدوء الذى يتيح لها التأمل، وفحص الضمير، ومحاسبة النفس، والصلاة العميقة الطويلة، والتعبد بغير شاغل أو عائق. وبهذا يبلغ العابد تدريجياً إلى مقامات روحانية عالية، فتنكشف روحه على مستويات ومفاهيم عميقة، ما كان له أن يتوصل إليها من غير تلك العزلة الخصيبة، وذلك السكون المنتج الفعال.

معنى كلمة راهب.

ولعل التعبير العربى (**رُهبان**) وهو جمع (**راهب**) مشتق من **الرهبة**، أو الجزع الذى يتولى ذلك الطراز من العباد عندما يدخل فى مرحلة فحص الضمير، وامتحان النفس ومعرفتها على حقيقتها، وخصوصاً عندما يصل إلى بعض الإشراق الباطنى، ويشرف على مرحلة الشخوص فى الأنوار العلية، **فتتولاه (رهبه) وجزع**. ومن آيات ذلك ما قاله أحد الأنبياء (فقلت ويل لى قد هلكت لأنى رجل دنس الشفتين وأنا مقيم بين شعب دنسى الشفاه، **لأن عينى قد رأتا الملك رب الجنود**) (إشعياء ٦ : ٥). أى أن الراهب خائف الله، وهذا الخوف يدعوه أن يجمل نفسه بالفضائل ويدعوه أن يعطى لهذه الناحية أهمية حتى أنه يكرس حياته لها وينعزل، فى مكان نائى بعيد لكى يحيا حياة معينة فيها يصحح أخطاؤه ويبنى حياته بناءاً روحياً يتناسب مع إنسان خائف الله.

على أن التعبير القبطى غير العربى الذى يستخدم للدلاله على الراهب هو **ⲙⲟⲛⲁⲭⲟⲥ** (موناخوس) من اليونانية μοναχός ومنه اشتقت الكلمة اللاتينية monáchus ، والكلمة الانجليزية monk والكلمة الفرنسية moine والألمانية Mönch وغيرها فى اللغات الأخرى، وكلها بمعنى(**المتوحد**) أى المنفرد بنفسه، ذلك لأن الراهب بالمعنى الدقيق هو (**المتوحد**) الذى **اعتزل الناس ليحيا منفرداً** من غير زوجة وأولاد، وبعيداً عن المجتمع الكبير ليتهيأ له الوقت الكافى **لينمو باطنياً وروحياً**. فالمعنى الأساسى لكلمة الراهب، هو الإنسان الذى يحيا فريداً فى عزلة عن العالم، فى مكان يهدأ فيه إلى نفسه ويدخل إلى أعماق نفسه، يربى نفسه تربية معينة، ويعتبر أنه يريد أن يحيا فى السماء وهو على الأرض، وأيضاً أن يخدم الله خدمة الملائكة وهى الخدمة التعبدية. مثله فى ذلك مثل العالم أو الباحث الذى يعتزل الناس والأهل

ويعكف على الدرس والبحث عكوفاً متصلاً، فيبلغ إلى أصول العلم، ويكتشف نظريات وقوانين ما كان يمكنه أن يتوصل إليها لو أنه لم ينعزل فى معمله أو مكتبه باحثاً ومنقباً.

ومع أن العزلة عن الناس عسيرة على الكثيرين، بل تبدو عند بعض الناس مستحيلة حتى لقد قال أرسطو الفيلسوف (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق.م) لا يمكن لأحد من الناس أن يعيش بعيداً عن المجتمع إلا من كان دون الطبيعة البشرية أو فوق مستواها.

هناك فرق بين التبتل مع وجود الإنسان فى العالم، وبين إعتزال العالم، وهو الفرق فى الحقيقة بين التبتل وبين الرهبنة، الرهبنة هى إعتزال العالم، يترك المجتمع الكبير ويذهب إلى المجتمع الصغير وهو مجتمع الدير، وأحياناً بعد ما يبلغ مرحلة العابد والناسك والمتوحد يترك أيضاً الدير ويسكن فى مغارة بمفرده ليمارس حياة التعبد والوحدة. هذه هى الثلاث العناصر الأساسية فى حياة الراهب.

لكن تاريخ الرهبنة من جهة، وتاريخ العلم من جهة أخرى، أثبتا:

(١) **أن هذه العزلة ممكنة لقلة ممتازة من الناس** قد ارتفعت فوق السلوك البشرى، وسمت بغرائزها فوق مستوى الإنسان العادى.

(٢) **أن هذه العزلة ضرورية** أيضاً للبلوغ إلى المستويات الروحانية والعلمية الرفيعة.

(٣) ثم هى **عزلة نافعة للمجتمع الإنسانى الكبير**، ففيها خير عظيم هو فى نهاية الأمر عائد على المجتمع أو المجموع الإنسانى كله.

عناصر الرهبانية الثلاثة

اولاً ـ اعتزال العالم للتعبد:

فالرهبنة عزلة عن الناس وعكوف على الصلاة العميقة بلا إنقطاع والعبادة الحارة والقراءة والدرس والتأمل.

ليست الرهبانية إذن كما يظنها بعض الناس هرباً من مسئوليات الحياة العامة، أو فراراً من مواجهة المواقف الإنفعالية بنجاح سوى، وليست هى نوعاً من السلوك السلبى، وإلا كانت سلوكاً مرضياً.

إن الرهبانية الحقة ليست شيئاً من هذا كله. **إنها تفرغ للتعبد وإنقطاع للرياضات الروحية والعقلانية، وانصراف للتأمل والدرس والتصوف وخلود إلى السكون**

الخصيب، والوجود الدائم فى حضرة الله، والشخوص فيه، والاتحاد به بوصفه المحبوب الأول والمعشوق الأول.

ثانياً ـ نذر التبتل لله:

والرهبنة كما تقتضى العزلة عن الناس فى صحراء أو فى دير أو فى صومعه (جبل أو مكان مرتفع يسكنه الراهب أو المتعبد قصد الانفراد) **تقتضى نذر التبتل لله.**

والبتُولَةُ أو البتُولِّية هى حياة العُزبَةِ أو العُزوبَةِ الأختيارية مدى الحياة، فيؤثر الراغب فيها عدم الزواج، لا هرباً من مسئوليات الزواج، وتبعات الزوجة (أو الزوج) والأولاد، ولا كراهية للمرأة (أو للرجل) والأولاد، ولكن إيثاراً منه أو منها لحياة أفضل، كلفاً بالعفة والعفاف وإنصرافاً إلى الإهتمام الكلى بخدمة الله وعبادته على نحو خدمة الملائكة وعبادتهم لله، **ولكى يكون مقدساً كله نفساً وروحاً وجسداً**. فالرهبنة ليست مجرد العزوبة أو ترك الزواج، **إنما هى التبتل مع طهارة الروح والجسد.**

والبتول على الحقيقة هو من اتسعت نظرته إلى الأسرة، فلم يعد يشغل نفسه بالأسرة بمعناها الضيق المحدود المكون من زوجة وأولاد، وإنما هو من وهب حياته لله وليكون فى خدمة الأسرة البشرية بمعناها الواسع الكبير، خدمة المجموع الإنسانى كله فيما هو يخدم الله بعبادته، خدمة الملائكة القديسين فى السماء وعلى الأرض.

ولا معنى لادّعاء بعض الناس أن فى البتولية قضاء على الجنس البشرى، لأنه من الواضح أنها طريق لقله من الناس لا لجميع الناس. وقد قال السيد المسيح له المجد (ليس الجميع يقبلون هذا الكلام، وإنما الموهبون فقط) (متى ١٩ : ١١).

على أنه ينبغى أن نضيف هنا أنه يمكن أيضاً **لمن ترمل أن يصير راهباً إذا أراد**، بشرط أن يبقى بغير زواج، بل يمكن كذلك لمن تزوج وقرينه حى أن يصير راهباً بشرط موافقة قرينه على ذلك، مثل الأنبا أمونيوس صاحب الرهبنة المعروفة برهبنة أمون كان متزوج الزواج البتولى ١٨ سنة قبل الرهبنة. فيذهب الرجل إلى دير للرجال، وتذهب المرأة إلى ديرللنساء. **ومن دون هذه الموافقة بين الطرفين لا يجوز شرعاً لأحد الطرفين أن يترك الآخر.**

ثالثاً ـ اختيار الفقرُ طوعاً أو عن طواعية:

وأما اختيار الفقر فعن طواعية محبة فى الله جل اسمه، نتيجة طبيعية لمن زهد زُخرُفَ الحياة الدنيا وصدف عن أباطيلها، وارتضى أن يزيل من طريقه محبة المال التى تعيق المتعلقين بها

عن طريق الله، وتربك حياتهم فلا يقدرون أن ينصرفوا إلى الله انصرافاً تاماً. لهذا اشترطت قوانين الرهبنة أن يؤثر الراغب فى الرهبنة حياة الفقر الاختيارى، حتى يقنع بحياة الكفاف ويعيش من عمل يديه. فإذا كان له عقار باعه ووزع ثمنه على الفقراء والمساكين قبل أن يعتزل فى الدير. وإذا كان له مال أنفقه فى وجوه الخير عملاً بقول السيد المسيح له المجد (**إن أردت أن تكون كاملاً** فأذهب وبع ما تملك وأعط الفقراء، فتقتنى لك كنز فى السماء وتعال أتبعنى) (متى ١٩ : ٢١). ومن هنا سميت الرهبنة بـ (**طريق الكمال**).

وقد نصت قوانين الرهبنة على أن الراهب إذا توافر له بعض المال من تعب يديه، فإن هذا المال يصير ملكاً للدير (أو للكنيسة) من بعد حياته، إذ الراهب قد مات عن العالم بإيثاره واختياره. **ومن كان ميتاً لا يرث ولا يورث، ولا يملك لنفسه شيئاً**. إنه قد وهب حياته كلها لله، فلا يليق بمن وهب أثمن ما لديه، وهو حياته، أن يتعلق بالتافه الزائل. وقد قيل مرة لراهب إن قريباً له غنياً قد مات فله أن يرثه، فأجاب قائله متسائلاً: (ومتى مات؟) فقال له: منذ سنه. فقال الراهب: لكنى أنا قد مت عن العالم منذ سنوات طويلة، فكيف لميت أن يرث ميتاً؟...

وليس صحيحاً ما يزعمه بعض الناس أحياناً، من أن الرهبنة طريق الذين لجأوا إلى الدير هرباً من أكلاف الحياة، أو لكى يتخلصوا من دفع الضرائب. فتاريخ الرهبنة الطويل ينبئنا عن كثيرين منهم كانوا من ذوى الثراء وفى أسمى المناصب،ومع ذلك زهدوا فى الثراء والمناصب الرفيعة وآثروا الفقر مع التعبد.

ويكفى أن نذكر على سبيل المثال لا على سبيل الحصر، **القديس أنطونيوس الكبير** المسمى بأبى الرهبان (٢٥١ - ٣٥٦)م فقد كان غنياً، يملك أكثر من ثلاثمائة فدان من أجود الأراضى فى الصعيد فى قمن العروس، باعها ووزع ثمنها على الفقراء ثم اعتزل فى الصحراء يصلى ويتعبد ، بعد أن سمع فى الكنيسة قول المسيح له المجد فى الإنجيل (**إن أردت أن تكون كاملاً** فاذهب وبع ما تملك وأعط الفقراء، فتقتنى لك كنزاً فى السماء وتعال اتبعنى) (متى ١٩:٢١).

والقديس باخوم أو باخوميوس ⲡⲁϩⲱⲙ (٢٨٨ - ٣٤٨) أبو الشركة هو أيضاً كان قائداً فى الجيش اعتزل منصبه الكبير وترهب.

والقديس أرسانيوس الكبير ARSENIUS (٣٩٤ - ٤٤٥)م والمعروف بأنه معلم أولاد الملوك كان ابن أحد قضاة روما، مثقفاً بالثقافتين اليونانية والرومانية وعين أستاذاً لابنى الأمبراطور ثيئودوسيوس الكبير (٣٧٩ - ٣٩٥)م هونوريوس HONORIUS واركاديوس ARCADIUS ، وكان يحيا فى قصر الأمبراطور حياة ترف ونعيم، وصار من أكابر مملكته،

وكان إذا ركب الملك يركب ارسانيوس على مقربة منه، وصار لأرسانيوس عبيد وخدم، وكان له ألف غلام من ذوى المناطق الموشاة بالذهب، وكان يجلس وينام على البرفير والحرير... لكنه زهد فى كل مظاهر الترف والنعيم، وآثر طريق الكمال، وجاء إلى مصر، إلى إسقيط وبرية القديس مقاريوس فى وادى النطرون، وتتلمذ على يد القديس مقاريوس، وصار راهباً عابداً.

والقديسان مكسيموس وأخوه دومادیوس، كانا ابنى الأمبراطور الرومانى فالنتينيانوس VALENTINIANUS الأول (٣٢١ ـ ٣٧٥م)، وكان أبوهما فى أوج مجده وقوته يوم أن تركا قصر أبيهما وجاءا إلى مصر، مؤثرين حياة التعبد والسكون فى صحراء مصر ـ فى وادى النطرون، وبعد حياتهما صار الدير يعرف باسمهما وهو الذى يدعى دير البراموس Ⲡⲁⲣⲱⲙⲁⲓⲟⲥ أى الرومانيان مكسيموس ودوماديوس.

والقديس مارمينا العجائبى (٢٨٥ ـ ٣٠٩)م كان ابناً لحاكم مريوط (فى محافظة البحيرة على بحيرة مريوط) فى أوج مجدها وعظمتها.

والقديس (كاراس) السائح كان شقيق الملك ثيئودوسيوس الكبير (٣٤٦ ـ ٣٩٥) ترهب فى برية شيهيت بوادى النطرون.

والقديسة الشهيدة دميانه فى عهد ديوقليديانوس Diocletianus (٢٨٤ ـ ٣٠٥) فى القرن الثالث كان أبوها حاكماً لإقليم البرلس والزعفرانه ووادى السيسبان، والفرما بسيناء).

والقديس يوحنا صاحب الإنجيل الذهب كان ابناً لملك.

والقديسة ايلارية ابنة الامبراطور زينون zenon (٤٧٤ ـ ٤٩١) وقد ترهبت فى زمن القديس مقاريوس فى صومعة منفردة بوادى النطرون بعد أن تزيت بزى الرجال واتخذت اسم الراهب (ايلارى).

وغير هؤلاء وأولئك كثيرون ممن كانوا أغنياء وعظماء **تركوا كل شىء، وآثروا حياة النسك وسكنوا فى البرارى وشقوق الأرض وفى المغارات، حباً فى الوحدة والهدوء والتأمل والسكون.**

تلك هى عناصر الرهبنة: (١) **الاعتزال عن صخب الحياة وضجيجها** فى صحراء أو فى دير أو فى مغارة أو صومعة بقصد التعبد فى سكون وهدوء...

(٢) **ونذر التبتل لله.** (٣) **واختيار الفقر طواعية** وعن رضى قلبى زهداً وحباً فى الله.

ولكن هناك عنصر رابع ولكنه عنصر إضافى وهو **مبدأ الطاعة**، يدخل الدير وعنده طاعة كاملة للرئاسة فى الدير أو القائمين على الدير، بحيث أنه لا يدخل ليقترح، إنما يدخل ليخضع لنظام معين أى يكون خاضع تمام الخضوع للنظام الموجود فى الدير.

الرهبنة لا تُعلم ولكن الرهبنة استعداد داخلى وهذا الاستعداد ينمو بإستمرار. هذا الإستعداد يجده الإنسان فى نفسه مثل المواهب، فيجد الإنسان عنده إستعداد طبيعى للرهبنة، فيجد عنده هذا الميل واضح فى حياته، الذى ينمو حتى يصل لمرحلة فيها يشعر تماماً أنه يكون سعيد تمام السعادة لو أنه خرج من العالم، وعاش هذه الحياة، نوع من الفرح القلبى الداخلى يصل لمرحلة الإمتلاء بالروح. أى أنه يمتلىء بمحبة هذا الطريق بحيث أنه لا يبقى فراغ فى نفسه لشىء آخر، ولا يكون عنده أى إغراء للطريق الآخر، فتصير نفسه صادقه تماماًعن طريق الزواج وطريق الحياة فى العالم، ويكون ميالاً بسعادة باطنية إلى حياة الرهبنة ولا يكون مدفوع لها بعامل خارجى، إنما مدفوع لها بعامل باطنى وهذه هى علامات الدعوة.

نُظُم الرهبانية

أولاً ـ نظام العُبَّاد المتوحدين:

وهم يعيشون متفرقين فى الصحارى والجبال، يحيا كل منهم فى مغارة أو كهف متبعاً نظاماً خاصاً به فى صلاته وصومه وعبادته وتأملاته.

وهذا هو النظام الأول الذى سار عليه الرهبان الأوائل ومن أشهر من عرفوا به، الأنبا بولا السائح، والأنبا أنطونيوس، وكل كبار الرهبان، ومنهم الأنبا بلامون، والأنبا شنوده المعروف برئيس المتوحدين فى القرن الرابع والخامس، ثم الأنبا باخوم أو باخوميوس وهو واضع نظام الشركة بالنسبة للرهبان الذين تبعوه، عاش هو نفسه على نظام العباد المتوحدين، وكانت له مغارته الخاصة بعيدة عن الدير.

ويتألف من مجموعة المغارات المتناثرة ما يعرف **بالدير**. ولم يكن يضم هذه المغارات آنذاك سور واحد، وإنما كان الأنبا أو أب الدير أو رئيسه يتفقد أولاده الرهبان واحداً واحداً يرشدهم ويوجههم، ويسأل عن سلامتهم، ويجيب على أسئلتهم والدير بهذا المعنى يسمى **ⲘⲞⲚⲀⲤⲦⲎⲢⲒⲞⲚ** μοναστήριον monastère - Monastery ـ ومعناه المكان الذى يضم مجموعة مغارات متناثرة، كل منها وحدة **ⲘⲞⲚⲀ** - μόνα - μονή مستقلة قائمة بذاتها.

ثانيا - نظام الشركة أو الرهبانية الاشتراكية:

وهو نظام يحيا تبعاً له **مجموعة من الرهبان حياة اشتراكية، ويخضعون لنظام صارم دقيق موحد: فى يقظتهم، ونومهم، وصلواتهم، وأصوامهم، وطعامهم، واجتماعاتهم، وعملهم. إنهم يعيشون معاً**، وكل منهم عضو فى هذا المجتمع الاشتراكى التعاونى، له حقوق وعليه التزامات. ولا يسمح لأحد أن يخرج من النظام العام المرسوم. ومن يخرج عليه توقع عليه عقوبة صارمة رادعة. ولكل منهم عمله بحسب ميله واستعداده وفقاً لاحتياجات الدير وناموسه. وللدير وظائف فنية وأخرى إدارية يعهد بها للأكفاء القادرين. وعلى الباقين أن يحترموا النظام ويخضعوا لكل صاحب اختصاص، ويتعاونوا معه.

هذا النظام التعاونى الاشتراكى وضع قوانينه **الأنبا باخوم** (نحو ٣٤٦)م، وقد عُرف باسمه، ولذلك سمى الأنبا باخوم بـ (أبى الشركة) Coenobitic Christian monasticism fellow-ship, Communion, associdion, partnership κοινωνια

والحق أن هذا النظام مشتق من **الاشتراكية المسيحية** التى ظهرت واضحة فى الكنيسة المسيحية الأولى كما جاء فى سفر أعمال الرسل: (**وكان جميع الذين آمنوا متضامنين وكان كل ماالديهم مشتركاً بينهم...**) (وكان جماعة المؤمنين قلباً واحداً وروحاً واحدة، **فلم يكن أى منهم يقول إن شيئاً من أمواله يخصه وحده، بل كان كل شىء مشتركاً بينهم**... فلم يكن فيهم أحد محتاجاً، لأن كل الذين كانوا يملكون حقولاً أو بيوتاً كانوا يبيعونها، ويأتون بأثمان المبيعات ويضعونها عند أقدام الرسل، فيوزعون لكل واحد قدر احتياجه) (أعمال الرسل ٢ : ٤٤)، (٤ : ٣٢، ٣٣).

وهذا النظام الاشتراكى، أو نظام الشركة هو النظام **الذى تسير عليه الآن جميع الأديرة فى مصر، وهو النظام الذى اقتبسه منها الأديرة فى كل بلاد الغرب**، ويسمى الدير بموجب هذا النظام Cloitre - das Kloster - Colister وهو نظام أسهل وأيسر من نظام التوحد الذى سار ويسير عليه كبار العباد والنساك والسواح، وهو يمثل **طريقاً وسطاً** بين الحياة العامة فى العالم، وحياة التوحد المطلق، كما يعد ممراً بين الحياتين يسهل معه للراغب فى حياة التوحد المطلق أن يتدرج إليها تدرجاً طبيعياً من دون افتعال أو عنت ومشقة... وإن أكثر المتوحدين صاروا يبدأون بنظام الشركة قبل أن ينتهوا إلى نظام التوحد. فالراهب يبدأ حياته فى مجتمع الدير على النظام الاشتراكى، ويمكنه بعد فترة من الزمان تحت قيادة مرشد حكيم، أن يترك هذا النظام وينفرد فى مغارة متوحداً على نظام النساك والمتوحدين.

درجات الرهبانية

والرهبنة طريق طويل يبدأ بالرغبة الملحة فى طريق الكمال ويهدف فى نهايته إلى (الاتحاد بالله).

والراغب فى الطريق يسير فى جهاد منظم تحت إرشاد معلم فى الفضيلة وشيخ للطريق، يتدرج به من خطوة إلى خطوة تختلف مدتها وفقاً لاستعداد الراهب، ومدى طاعته وتنفيذه لتعليمات مرشده ودرجة جده واجتهاده.

فيبدأ فى مرحلة (تلميذ للرهبنة) pistos ⲡⲓⲥⲧⲟⲥ أى (مؤمن) وفى الغرب يسمى no-vice ثم ينتقل منها إلى ٢- (راهب) ثم ٣- (عابد) ثم ٤- (ناسك) ثم ٥- (متوحد) ثم ٦- (سائح)، ٧. وأخيراً يبلغ إلى مقام (الرؤيا الطُوبانية) وهى مرحلة الشخوص فى الله والاتحاد به وتسمى (الثيؤرية) θεωρία (تجلى الله الخالق للعابد المتوحد)، وبالإنجليزية تسمى Beatific vision وبالفرنسية Vision Béatifique.

هذه الدرجات الرهبانية أو المراحل أو المقامات السبعة قد يبلغها الراغب فيها إلى نهايتها فى حياته، **وهى الاتحاد بالله اتحاداً روحياً لا كيانياً**، بمعنى أن **تسقط عنه رغباته ورغائبه تماماً**، **فتصير إرادة الله هى إرادته**، **وهذه هى درجة الفناء والبقاء بعد الفناء**، فتفنى عنه أنيته، ويحيا الله فيه، **ويتحد به اتحاد إرادة ومشيئة**. وقد يبلغ الراهب بعضاً منها فقط فى حياته حسب استعداده ودرجة جهاده فى الفضيلة وحياة التأمل.

تلك كلمة موجزة عن الرهبنة المصريةوهى تعبدية، وعناصرها الثلاثة، ثم نظمها الثلاثة، وأخيراً درجاتها ومقاماتها السبعة.

فـضـل الرهبانية عـلـى العـالـم
ونفـع الرهـبان لغيـرهم مـن الـناس

ولا نظن أن الرهبان قوم أنانيون، اندفعوا إلى معيشة الصحراء من أجل خلاص نفوسهم. فلئن كان خلاص النفس ثميناً فى ذاته بل هو أثمن من كل شيء آخر عند الحكيم البصير «فإنه ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه أم ماذا يعطى الإنسان فداء عن نفسه»(١) .لكن السعى لخلاص النفس من خطاياها وتحريرها من شهواتها ممكن فى وسط العالم أيضاً. وكثيرون من المؤمنين عاشوا فى العالم ونالوا خلاص نفوسهم وتكلموا فى الإيمان وصاروا قديسين. فالرهبانية هدفها الأعظم هو حياة التعبد والصلاة الدائمة، والعكوف على القراءة والتأمل والسمو الروحانى.

ولقد يبدو أن الراهب لا نفع منه للعالم، ولكن الراهب الحقيقى نافع جداً لنفسه وللعالم.

١ـ فهو **بصلاته** يرفع غضب الله عن الناس لأن صلاة البار تقتدر كثيراً فى فعلها (٢) ولأن «صلاة المستقيمين مرضاته» (٣) .

٢ـ **وبسيرته الطاهرة** يمجد الله ويقدم للناس مثلاً صالحاً ونموذجاً نافعاً. وكم من الناس فى العالم قد انتفع بحياة بعض الرهبان القديسين فى العالم. ويكفى أن نذكر على سبيل المثال أوغسطينوس الذى كان فى أفريقيا وايطاليا رجلاً ماجناً وشريراً، ولكنه بفضل سيرة القديس أنطونيوس الذى كان فى صحراء مصر، انجذب إلى حياة التوبة والفضيلة وصار فيما بعد اسقفاً قديساً من أعظم أساقفة الكنيسة وأنفعهم. إن القديس أنطونيوس جذب بسيرته ملايين الناس إلى حياة التقوى والعفاف والقداسة. وكذلك فعل الكثيرون من الرهبان أيضاً فى زمانهم وبعد زمانهم.

٣ـ والراهب أيضاً ينفع المؤمنين **بتعاليمه وخبراته الروحية** حين ينطلقون إليه، كما كانت الجماهير تخرج إلى يوحنا المعمدان فى البرية وتطلب نصيحته وإرشاده(٤) . كانت هى تخرج إليه فى البرية ولم يكن هو يأتى إليها. وكذلك فعل القديس أنطونيوس والقديس باخوم، والقديس برسوم، والقديس مكاريوس، وغيرهم من كبار الرهبان، فقد وعظوا كل من لجأ إليهم، وعادوا إلى العالم منتفعين ونافعين لأنفسهم وعائلاتهم وأوطانهم، وللعالم كله. وكثيرون عشقوا حياتهم ورغبوا فى سيرتهم ، فباعوا كل شيء وصاروا قديسين، ونافعين للكنيسة كلها. إن كبار الرهبان قد أعدوا جيشاً من الرهبان القديسين نفعوا الرهبنة ونفعوا الكنيسة ونفعوا العالم. ويالها من مهمة عظيمة ورسالة مفيدة.

---

(١) (متى ١٦ : ٢٦) ، (مرقس ٨ : ٣٦، ٣٧) ، (لوقا ٩ : ٢٥)

(٢) يعقوب ٥ : ١٦ (٣) الأمثال ١٥ : ٨ (٤) متى ٣ : ٥

٤ـ والراهب ينفع المؤمنين **بتواليفه التى يضعها** فى حياته أو يتركها بعد مماته. والراهب القديس إذا كتب فكتاباته فيها خبرات عميقة ودروس ثمينة نافعة، لأنها ثمرة تأمل عميق فى الكتاب المقدس والحياة الروحية، ونتيجة تجارب كثيرة. وما أكثر ما ترك الرهبان من كتب قيمة وتواليف نافعة قوية صارت هدى لكثيرين، ولا زالت الكنيسة إلى اليوم تستفيد من ثمرات أقلام الرهبان. وفى عصور قديمة نقل كثير من مؤلفات رهباننا إلى بلاد الغرب، وصارت تؤلف جزءاً من مكتبات الغرب ولا تكاد مكتبة هامة فى إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا والنمسا وهولندا وروسيا والولايات المتحدة وغيرها من بلاد الغرب والشرق، تخلو من مخطوطات قبطية وضعها رهبان من القبط.

٥ـ والرهبان عند الاقتضاء يتركون عزلتهم ويعودون إلى العالم **لأداء مهمة روحية أو رسالة هامة لفرد أو لشعب.** ففى كل العصور كان بعض الرهبان القديسين يترك خلوته وينزل إلى العالم لينذر ملكاً أو رئيساً، أو ليقود فرداً إلى التوبة ويعود بعد ذلك إلى ديره.

٦ـ وفى عصور الاضطهاد كان بعض الرهبان ينزلون ليثبتوا الناس فى إيمانهم، أو ليدافعوا عن حقيقة إيمانية، أو ليقاوموا هرطقة أو تعليماً فاسداً، كما فعل القديس أنطونيوس الذى نزل إلى العالم ليثبت الناس فى إيمانهم فى زمان الاضطهاد إبان ظهور هرطقة آريوس، وكما فعل القديس شنودة رئيس المتوحدين الذى رافق البابا كيرلس الأول عمود الدين إلى أفسس فى آسيا الصغرى (وهى الآن تركيا) لمقاومة بدعة نسطور الذى قال بطبيعتين منفصلتين للسيد المسيح.

٧ـ وقد تفتقر الكنيسة إلى القادة الروحيين كالأساقفة والمطارنة والبطاركة، فإذا لم تجد من بين الخدام فى العالم من يصلح لهذه القيادة، لجأت إلى الرهبان القديسين فى الأديرة. ومع أن بعضهم كان يرفض ذلك فى حزم وقوة، لكن بعضهم الآخر اضطر تحت إلحاح الإكليروس والشعب إلى قبول هذه المسئولية، فكانوا يأتون به إلى العالم ويرسمونه أسقفاً أو مطراناً أو بطريركاً. وتاريخ الكنيسة حافل بأسماء الكثيرين من الرهبان الذين صاروا قادة روحيين للكنيسة. وقد اشتهر بعضهم بالزهد والورع وصنع المعجزات، واشتهر بعضهم بالحكمة والتبصر، وبعضهم بالعلم الواسع، وبعضهم بالرعاية الصالحة والافتقاد والإصلاح.

فالرهبانية كانت ولا زالت قوة روحانية وراء الكنيسة تسندها بصلواتها وضراعاتها، وتمدها بالمباحث الروحية والتقوية والعقيدية والطقسية، وبالخبرات العميقة، وعند الإقتضاء برجالها الذين قادوها فى أوقات متباينة فكانوا على العموم متميزين بالتقوى والوقار والإيمان القويم. والأديرة كانت ولا زالت معاقل هامة لروحانية المسيحية وعلومها.

الرهبنة وغايتها (١)

مفهوم الرهبنة:

الرهبنة دعوة والدعوة معناها نداء والنداء هنا من الله، وعلى الرغم من ذلك معروف أن الرهبنة دعوة إختيارية أى ليس فيها إلزام، دعوة حرة للإنسان أن يقبلها وللإنسان أن يرفضها، الإنسان يميل إلى الخير ومحبة للخير، لأنه مخلوق على صورة الله وفيه جوهرة. وهى الروح الإنسانية التى هى قبس من الإلوهة فى داخل الإنسان، فهذه الروح إذا خلى بينها وبين نفسها تختار الخير، لأنها على صورة الله والله كله خير وهو الخير المحض، والخير الكلى والخير الكامل، فالإنسان لأنه مخلوق على صورة الله فإذا خلى بينه وبين ذاته فيختار الخير. ودعوة الرهبنة نداء للخير، وهى فى الواقع أساساً هى دعوة إلى الاتحاد بالله، ولعلكم تتذكروا ماراسحق عندما يقول فى تعريف الرهبنة، أنها دعوة للإنحلال عن الكل والإتحاد بالواحد، ينحل الراهب عن كل شيء ليتحد بالواحد والواحد هو الله، إذن يمكن أن نقول أن دعوة الرهبنة دعوة عميقة فى جذور النفس البشرية، مادامت هى دعوة إلى الإتحاد بالله، والإتحاد بالله غايه النفس البشرية، فإذن هى دعوة فى أصولها العميقة تستجيب لها النفس البشرية بطبيعتها، مالم يكن هناك عائق، والعائق هو العامل الخارجى، ولكن دعوة الرهبنة بإعتبارها اتحاد بالله دعوة تستجيب لها النفس البشرية بطبيعتها. ولكن مع ذلك إنها دعوة إختيارية لأن الإنسان حر، يملك أن يقبل ويملك أن يرفض. والعوائق هى رغبات، وميول، ونزعات، وشهوات، تشوش صفاء النفس وتحرمها من الرؤيا التى بها ترى الله، وهذه العوائق درجاتها متفاوتة بالنسبة للناس، فهذه العوائق بالنسبة لواحد ضعيفة ولآخر قوية وهكذا... إنما إذا تغلبت الدعوة الإلهية على هذه العوائق فالنفس البشرية تستجيب، وحينئذ نقول أن هذا الإنسان عنده دعوة للرهبنة.

ماهية هذه الدعوة:

هذه الدعوة من الله، ولكن ليس من الضرورى أن تكون هذه الدعوة بصوت يسمعه من الله، إنما يكفى أن تكون رؤيته الباطنية من الوضوح، بحيث تقوى على أن تغطى على الشهوات والرغبات المعطلة للصفاء النفسى، فإذا وجد الإنسان باطنيا أن هذه الرغبة فى الإتحاد بالله، ولهذا النعيم ولهذه السعادة الباطنية، بحيث أن تكون هذه الرغبة من الوضوح فتصير الأمور الخانقة صغيرة وحقيرة، وهنا نقول أن هذا الإنسان عنده دعوة إلى الرهبنة واضحة وقوية. فهنا نقول ليس من الضرورى أن الشخص يتلقى فى دعوة الرهبنة صوت واضح، مثل حلم خاص أو

(١) محاضرة ألقيت بدير الأنبا صموئيل المعترف بجبل القلمون فى ١٦من مايو سنة ١٩٧٧م - نقلاً عن شريط كاسيت.

رؤيا، فيها الله أو ملاك من السماء أو أحد من القديسين يظهر له ويقول له ترهبن، إنما يكفى أنه عندما يدخل لباطن نفسه يجد استعداده لهدف الإتحاد بالله واضح أمامه، ولا يجد عقبات أو عوائق تعوقه عن الرؤيا وتعوقه عن الهدف وهو الإتحاد بالله. فالمسألة مسألة إستعداداً باطنياً ورؤيا داخلية أو نوع من العاطفة القوية الواضحة، والرغبة الشديدة فى الإتحاد بالله وفى العشرة الإلهية، وفى أن الإنسان يدخل فى هذه السعادة وهذه اللذة العقلية الروحية، وفى بعض الأحيان الإنسان قد يحلم أحلام وقد يرى رؤى، ومع ذلك ينبغى أن يتروى ولا يندفع، فالأحلام فى بعض الأحيان قد تكون صوت إلهى، ولكن ليس فى كل الأحيان، فقد تكون أشياء من أعماق النفس البشرية تظهر على هيئة أحلام، فالإنسان الروحانى يتريث، فقد يحتاج هذا الإنسان إلى شىء يدعم هذا الحلم، بحيث يقدر أن يعرف أن هذا الحلم من الله أو لا ... إذا العلاقة الأولى للدعوة إلى الرهبنة هى الراحة الباطنية والسعادة الداخلية، والرؤيا الباطنية التى يحس فيها الإنسان أن دعوته فى هذا الإتجاه، وأن راحته فى هذا الإتجاه، ثم بعد ذلك تأتى العلاقات الخارجية الأخرى، كالأحلام أو الرؤى أو الصوت الذى قد يتلقاه الإنسان من كائن آخر، سواء أكان أب الإعتراف أو كاهن راهب أو صديق، أو نتيجة أحداث معينة فى حياته.

أقول هذا.. لأن الرهبنة ما لم تكن الشحنة الروحية الدافعة لها، شحنة عميقة وقوية وواضحة، وتملأ فراغ النفس البشرية، قد يتعثر الإنسان وقد يضعف فيما بعد، لبعض الظروف التى قد يتعرض لها. فلكى يتحمل متاعب الحياة الرهبانية ومسئولياتها وتبعياتها، ويسير بنجاح مضطرد فى تصاعد وترقى مستمر، لحياته الروحية ولإدراكاته الروحية والداخلية، لابد أن تكون هناك شحنه روحية قوية راسخة، وعمق روحانى وأصالة روحية، وأن يكون هناك جبهة عريضة فى النفس البشرية، تساعد الإنسان على أن يقدر فيما بعد أن يتحمل متاعب الرهبنة، التى قد تأتى له فى المستقبل دون أن يرجع إلى الوراء.

غاية الرهبنة:

الهدف الأساسى هو الإتحاد بالله، والشخوص فى الله، والرؤيا الطوبانية، وبعض أباء الرهبنة العظام وصلوا للمرحلة التى فيها تحققت لهم الرؤيا الطوبانية، ويشير لهذا ماربولس الرسول عندما قال «آتى إلى مناظر الرب وإعلاناته» ثم قال «أعرف إنسان أفى الجسد أم خارج الجسد لست أعلم، اختطف إلى السماء الثالثة اختطف إلى الفردوس وسمع أشياء لا ينطق بها ولا يسوغ لإنسان أن ينطق بها». عيون هؤلاء الناس ترى وراء المنظور، ترتفع قلوبهم فتعيش فى الحضرة الإلهية، إيليا النبى كان من هذا الطراز، طراز الراهب الحق، بتولاً وكان ناسكاً وكان صواماً أى كثير الأصوام وكان يسكن الجبال وله عبارة رائعة كان يستخدمها، العبارة هى

«حي هو الرب الذى أنا واقف أمامه» كان يحس ويشعر أنه يقف أمام الله، هذه العبارة أقوى من عبارة داود النبى «جعلت الرب أمامى فى كل حين لأنه عن يمينى فلا أتزعزع»، إنما كلمة إيليا النبى كلمة جبارة تدل على أن الرجل وصل إلى مرحلة روحانية مرتفعة، بحيث أنه كان يرى الله أمامه دائماً، وأنه هو واقف قدام الله، وكذلك أليشع النبى كان راهب وكان متبتل واختار الفقر. وكان لا عمل له إلا العبادة وكان يسكن الجبال. وكان أليشع أيضاً مفتوح العينين، ولما جيحزى ارتعبت فرائصه عندما رأى جيش ملك آرام وصرخ إلى أليشع، صلى أليشع إلى الله من أجل جيحزى وقال: يارب افتح عينى الغلام فيرى، ففتح الرب عينى الغلام فرأى وصرخ قائلاً: «إن الذين معنا أكثر من الذين علينا». افتح يارب عينى الغلام فيرى، أليشع لم يصلى إذن من أجل نفسه ولا طلب أن ربنا ينقذه من الأعداء عندما عرف بقدومهم. وكان مطمئن القلب جداً وهادىء النفس ولم يصلى من أجل نفسه وإنما صلى من أجل جيحزى، وصلاته كانت عجيبة افتح يارب عينى الغلام فيرى. إذن أليشع نفسه كانت عينيه مفتوحتان وكان يرى، وإنما كان يصلى من أجل جيحزى لكى يرى ما يراه أليشع.

إن أمثال هؤلاء الرهبان المرتفعة حياتهم، كانت عيونهم مكشوفة مثل ما قال النبى بلعام بن باعور المفتوح العينين «أراه ولكن ليس الآن أبصره ولكن ليس قريباً» وكان يقصد بهذا رؤيته للسيد المسيح، قبل أن يتجسد المسيح بآلاف السنين، هنا كلمة أراه وأبصره، هذه الرؤيا وهذا الإبصار لأشياء بعيدة وغير منظورة، هذا يذكرنا بتلميذى عمواس لما يقول عنهم الكتاب عندما كسر لهما الخبز السيد المسيح فيقول «فإنفتحت أعينهما» وهما لم يكونا عميان ولكنهما مبصرين، ولكن الكتاب المقدس يوجهنا إلى نوع آخر من إنفتاح العينين، بمعنى أن الإنسان يرى غير ما يراه بالعينين المجردتين، هذه الرؤيا تكون محجوبة عنه، ولكنها تكشف يوم أن يصل إلى مرحلة معينة من مراحل النمو الروحانى، نفس العينان كان لهما مدى معين، يمتد هذا المدى إلى شىء أبعد فيستطيع أن يرى ما لم يكن قد رآه من قبل.

إن هدف الرهبنة عند الأباء العظام هو الرؤيا الإلهية. وهو الهدف الأساسى للرهبنة، قد يكون هناك أهداف أولية للرهبنة، كالهرب من العالم، أو السعى لخلاص النفس... الخ ولكن الهدف الأساسى هو الرؤيا الإلهية، وهذه لا نصل إليها إلا حينما يحدث تطابق بين صورتنا وبين صورة الله، الله عندما خلقنا خلقنا على صورته، أى هناك تشابه بيننا وبين الله.

عندما يقول لنا المسيح: «كونوا كاملين كما أن أباكم الذى فى السموات هو كامل» معنى الكمال أن تكون هناك مطابقة تامة بيننا وبين الله فى الكمال، بحيث نصير صورة مصغرة للكمال الإلهى، وهذا هو الهدف الكبير، وهذا لا يأتى إلا بالشخوص الكامل والمستمر فى الله،

وهذا يحتاج مجهود ضخم جداً يحفظ للإنسان أرثوذكسيته، وتطلعه إلى البؤرة (الله) بحيث لا ينظر يميناً ولا شمالاً ولا شرقاً ولا غرباً. الشخوص المستمر فى الله من شأنه أنه يجعل صورة الإنسان واضحة فى مطابقتها لله.

إذاً هدف الراهب من الرهبنة هو أن تكون صورته بقدر الإمكان قريبة إلى الأصل وواضحة تمام الوضوح، فالرهبنة المثالية هدفها الواحد الوحيد هو الرؤيا الإلهية، ولتحقيق هذه الرؤيا تحقيق المطابقة بين الروح الإنسانية وبين الله بقدر الإمكان، بحيث يرى الله فى النفس، كما نتطلع إلى كوب الماء بعد أن يهدأ فيصير الماء فى صفاء بحيث أن الإنسان يمكنه أن يرى صورته فى هذا الماء، عندما يهتز الماء لعامل أو لآخر مثل ما يحدث عندما ينظر الشخص على سطح ماء البحر، فإذا جاءت موجة تختفى الصورة، ولذلك يجب أن يكون الصفاء، باعتبار أن الصفاء هو الذى يحقق الرؤيا، ومن دون هذا الصفاء لا تكون الرؤيا، وقبل الصفاء لابد من السكون، وهنا قيمة السكون الذى يتكلم عنه كبار الرهبان، والمقصود بالسكون سكون النفس وسكون الجسد، والإثنين لا بديل عنهما والإثنين كلا منهما كالفاعل والمفعول فيه، أو كالضارب والمضروب فيه، لا غنى للواحد عن الآخر، سكون الجسد لازم لسكون النفس، وسكون النفس لازم لسكون الجسد، وسكون النفس يتحقق بتسكين النفس، وتسكين النفس معناه القدرة على إلغاء الصخب والضجيج والأصوات المعارضة التى فى النفس، كيف نصل إلى هذه المرحلة التى ينجح فيها الإنسان فى تسكين النفس، بحيث يتوافر للنفس السكون فلا يزعج السكون صخب وضجيج وشغب. تعبير الشغب نجده فى كتابات الأباء، فى بعض الآلات مثل الريكوردر تسمع أصوات خشخشه، هذه الخشخشة تمنع أنك تسمع الصوت بصورة حسنة، وأنت محتاج أن تسمع صوت الله صافى، وهذا لا يأتى إلا بالتسكين.

فى الروحانية العالية يتكلموا عن هذا التسكين، وهو القدرة أو النمو الروحانى الذى يساعد الإنسان بالتدريج، أنه يعرف كيف يصمت هذا الشغب وهذا الضجيج، وهذه الأصوات المزعجة، كيف يمكن للإنسان أن يصمتها أو أن يسكتها، وأن لا تعوقه هذه الأصوات عن الإستماع إلى الحسيس، لأن صوت الله يكون فى الحسيس بالنسبة للناس الروحانيين، ففى الشيء الهامس الصامت يسمع صوت الله يتكلم فى باطن الإنسان. حياة الناس من طراز الأنبياء أو كبار الروحانيين يسمعوا صوت الله هامساً فى الحسيس يكلمهم، يستطيعوا من طول تمرسهم أن يميزوا هذا الصوت على الرغم من أنه فى الحسيس، بحيث يمكنهم أن يعرفوا هذا الصوت متميزاً عن أى صوت آخر. كيف يستطيع الإنسان أن يصل للمرحلة التى فيها يقدر أن يسكت هذه الأصوات وهذا الشغب، وهذا الضجيج وهذه الأصوات الثانوية؟ كيف يصمتها؟ حتى يتمكن أن يسمع

الصوت الخافت الهامس الذى يأتيه مع حفيف الشجر ومع ريح النهار، ويميزه أنه صوت الله كيف هذا..؟ مسألة ليست من السهل أن الإنسان يشرحها كما يشرح أى نظرية علمية، ويضعها على السبورة ويتكلم فيها بمنطق عقلى أو بتسلسل البرهان، هؤلاء الناس تمرسوا على هذا النوع من الجهاد، ولذلك يقولوا أن مثل هذه الحياة تحتاج إلى وقت طويل مع فضيلة الثبات والمثابرة. لذلك الرهبنة وقتها طويل يبدأ ولا ينتهى، ولها نقطة بداءه ولكن ليس لها نقطة نهاية، طريق الرهبنة لا ينتهى إلا بالموت، طريق الرهبنة طريق متواصل إلى ما بعد الموت، هو طريق إلى الأبدية، دائرة أبدية، عملية نمو مستمر، هناك كلمة قالها يوحنا الرسول فى رسالته الأولى تفيد هذا المعنى قال «يا أولادى نحن الآن أولاد الله ولم نتبين بعد ماذا سنكون، غير أننا نعلم أننا سنكون مثله لأننا سنراه كما هو»، وهذا يحتاج إلى المثابرة حتى أن الإنسان لا ينجذب لمناظر أخرى تشده أو تحول حدقة عينه إلى منظر آخر، فيحتاج إلى مثابرة وصمود وصبر وإصرار مستمر وهذا هو معنى الجهاد الرهبانى.

الجهاد الرهبانى ليس معناه أننا نجاهد ضد الخطيئة لأن هذا مفروض فى حياة كل إنسان مسيحى. إنما الرهبنة أسمى من أن يكون هدفها الجهاد ضد الخطيئة..، ولكن هدفها الحقيقى هو الصمود والمثابرة والثبات حتى نصل إلى الرؤيا الطوبانية التى بها تتحقق سعادتنا حينما نتحد الإتحاد الكامل بيننا وبين الله.

من مفاخر الأقباط بالإضافة إلى تاريخهم ولغتهم وشهدائهم ومدرستهم اللاهوتية رهبنتهم، التى برزوا فيها جداً حتى أصبحت أديرتهم موئل الروحانية السامية والصوفية الجوانية الباطنية، وظهر فيها قادة الرهبنة الكبار من أمثال القديسين بولا، وأنطونيوس، وباخوميوس أب الشركة، وأبو مقار، والأنبا بيشوى، والأنبا يوحنس كامى، والأنبا شنوده رئيس المتوحدين، والأنبا صموئيل المعترف، وغيرهم ممن زينوا الرهبنة بتعليمهم وسيرتهم. وكانت الأديرة تضم أعداداً كبيرة من الراغبين فى الرياضات الروحية والتوحد المطلق، والإتحاد بالله. وقد قصد إلى الصحراوات المصرية المشوّقون إلى متابعة هذه الحياة الصوفية السامية من كافة أنحاء مصر، وسوريا، وأثيوبيا، وليبيا، بل جاء إليها آخرون من أوروبا ـ ولم يكونوا جميعاً من الطبقات الفقيرة أو الوسطى فقط، بل كان منهم أيضاً شخصيات من العائلات الغنية، منهم أرسانيوس معلم أولاد الملوك، ومنهم أيضاً مكسيموس ودوماديوس إبنا الامبراطور فالانتنيان الأول (٣٦٤ ـ ٣٧٥) م.

ولقد ازدهرت الرهبنة فى مصر أولا، ومنها انتشرت إلى بلاد الغرب بعد ذلك.

الأنبا باخوميوس: (٢٨٨ـ ٤٠٥)م.

وهو واضع نظام حياة الشركة أو الإشتراكية الرهبانية. سَنّ للرهبان قوانين لتنظيم حياتهم الروحية ونشاطهم العملى فى الدير، يصلون معاً، ويأكلون معاً، ويعملون معاً. كما أدخل الصناعات ومختلف الفنون والحرف ليشغل أوقات الرهبان، ويفيد الدير من نتائج جهودهم الفكرية واليدوية. وأقام لكل جماعة رئيساً. وأقام على الأديرة جميعها رئيساً عاماً. وقد تأثر الغرب المسيحى بطريقة الأنبا باخوميوس وأدخلوا نظامه إلى أديرتهم.

الأديرة القبطية:

انتشرت حركة الديرية فى مصر، وقصد إلى الأديرة عدد كبير من الخلق، كانوا أحياناً بمثابة جيش كبير يخضع لرئاسة بصيرة حازمة. وكان رئيس كل دير «هو الأنبا» ⲁⲃⲃⲁ أو هو أبو الرهبان يقتدون بسيرته، ويرتشدون بتوجيهه ويلجأون إليه فى حل مشاكلهم الروحية. وكان رئيس الدير يعيش بين الرهبان يعلمهم ويرشدهم ويراقب سير حياتهم.

وبلغ عدد هذه الأديرة بضع مئات فى الصحراء الغربية وفى الصحراء الشرقية أو صحراء العرب، وقد أقفرمعظم هذه الأديرة وأمست مناطق أثرية يقصد إليها الحجاج للصلاة وإلتماس البركة. وتقام فيها الصلاة فى مناسبات خاصة بمعرفة كهنة يعينون من قبل الرئاسة الدينية لهذا الغرض. ولم يبق من الأديرة العامرة بالرهبان إلا تسعة للرجال وخمسة للنساء. وأديرة الرجال المأهولة بالرهبان، أربعة منها فى الصحراء الغربية فى المنطقة المسماه بوادى النطرون على نحو منتصف الطريق الصحراوى الواصل بين القاهرة والأسكندرية، وهى: **دير القديس**

مقاريوس، ودير السيدة العذراء المعروف بالبراموس، ودير الأنبا بيشوى، ودير السيدة العذراء الشهير بالسريان - **ثم دير مارمينا العجائبى بصحراء مريوط** وإثنان منها فى الصحراء الشرقية وهما: **دير القديس أنطونيوس** ويقع فى سفح جبل القلزم، من بين سلسلة جبال القلاله القبلية، فى أسفل رابية عالية تطل على البحر الأحمر وعلى جبال سيناء، وتزيد مساحته عن ثمانية عشر فداناً - **ودير القديس الأنبا بولا** وهو على مسيرة يومين من دير القديس الأنبا أنطونيوس ولا يزيد فى مساحته الآن عن خمسة أفدنة، ودير ثامن فى جبل بقرب أسيوط يسمى **بالدير المحرق** وهو أكبر الأديرة وأقدمها، ودير آخر فى جبل القلمون بالقرب من مغاغة يعرف **بدير الأنبا صموئيل المعترف.**

هذه الأديرة كانت فى مبدأ الأمر قلالى متفرقة للرهبان، وبسبب غارات البدو والبربر أقيمت لها أسوار تضمها - والقلالى جمع قلاية وفى الأصل ترجع إلى الكلمة اليونانية κέλλα ومنها أخذت الكلمة اللاتينية cella ثم الإنجليزية cell والفرنسية cellule .

هذه الأديرة التسعة تضم فى مجموعها عدداً من الرهبان يبلغ الآن نحو ٥٠٠ «خمسمائة» راهب.

وقد أضيف حديثاً (١) إلى هذه الأديرة التسعة ديران آخران، هما قديمان ولكن أخذ يسكنهما منذ سنوات عدد من الرهبان الشبان: **دير القديس مارجرجس بالرزيقات** خارج مدينة أرمنت، **ودير الأنبا باخوم بحاجر ادفو.**

وللنساء ستة أديرة (٢) تختص بهن هى: ١- دير باسم السيدة العذراء بحارة زويلة بالقاهرة. ٢- دير آخر باسم مارجرجس بحارة زويلة. ٣- دير الأمير تادرس بحارة الروم. ٤- دير أبى سيفين بمصر القديمة. ٥- دير مارجرجس بمصر القديمة. ٦- دير القديسة دميانه ببرارى بلقاس.

وهناك قلة نادرة من النساك المتوحدين يعيشون فرادى ومتفرقين فى مغارات بالجبال عيشة التوحد المطلق بصورة تبدو غريبة وخيالية، لأنهم يحيون حياة خشنة جافة صارمة - فيقنعون بالقليل جداً من الطعام والنوم، ويصرفون الوقت كله فى الصلوات والتأملات العالية.

---

(١) بعد كتابة هذا المقال أضيف عشرة أديرة أخرى للرهبان وهى دير السيدة العذراء بجبل أخميم ودير الأنبا أنطونيوس بصحراء كاليفورنيا ودير القديس مارجرجس بالخطاطبة وديرالأنبا شنوده رئيس المتوحدين بسوهاج ودير الأنبا أنطونيوس والأنبا موسى الأسود بالخرطوم ودير الأنبا باخوميوس المعروف بالشايب فى الأقصر ودير الأنبا شنوده فى ميلانو ودير الأنبا أنطونيوس بالأراضى المقدسة ودير الملاك غبريال بجبل النقلون بالفيوم ودير مارمينا العجائبى بأبنوب.

(٢) أضيف أيضاً دير مارجرجس للراهبات بأورشليم، ومعظم هذه الأديرة لها فروع على الساحل الشمالى وفى الخطاطبة.

التوحد (١)

النفس الإنسانية التى خلقت على صورة الله ومثاله تحن إلى الله وتهفو إلى الشخوص فيه. ولن تجد لها راحة حقيقية بعيداً عنه. وهذا هو سر القلق الذى ينتابنا كثيراً على الرغم من توافر جميع أسباب الحياة الناعمة، فإذا شردت النفس عن مصدرها وأصل وجودها، أدركها الفزع والضيق. فتجرى فى غباوة نحو مصادر المتعة المادية فلا تشبع بها. فتظل مع ذلك جوعى وعطشى حتى تعثر بما يوقظها ويردها إلى الله، فتعود إليها خصوبتها وسعادتها.

لذلك رأينا كثيرين ينصرفون عن الحياة الإجتماعية وما يلازمها من صخب وضجيج ينزع سلام نفوسهم ويحرمها الهدوء الذى يردها إلى الله، فيهرعون إلى البيد والقفار بعيداً عن العمران، مرحبين بشظف العيش وخشونة الحياة. سعياً وراء الهدوء وإبتغاء للصفاء الذى لابد منه لمن يريد أن يكتشف النفس ويعرفها على حقيقتها، ومن ثم يبنيها فى الفضيلة ويبنى علاقتها بالله على أساس سليم من معرفة سليمة. قال المسيح له المجد «من أهلك نفسه من أجلى يجدها»، وقال أيضاً «من أحب نفسه فإنه يهلكها. ومن أبغض نفسه فى هذا العالم، فإنه يحفظها للحياة الأبدية».

هذه هى فلسفة التوحد فى الرهبنة. والرهبنة الحقيقية «توحد». ومعناه أن يعتزل الإنسان العالم إلى مكان قصى يحيا فيه منفرداً، وينقطع للعبادة والتهجد كل أيام الحياة، قانعاً بالقليل من الطعام البسيط واللباس الخشن، والقليل من النوم.

ومعنى هذا كما قلنا أن الرهبنة فى أصلها وحقيقتها هى حياة التوحد، والعزلة التامة عن العالم. وبرهان ذلك هو سلوك رواد الرهبنة الأوائل فى صدر المسيحية من أمثال القديسين بولا وأنطونيوس ومكاريوس وبيشوى وشنوده رئيس المتوحدين وصموئيل المعترف وغيرهم كثيرون. والذى يقصد إلى أديرتهم فى أعماق الصحارى، يمكنه أن يحكم بسهولة على نية أولئك الأبرار فى تمام الإعتزال، وشدة تصميمهم على التوحد المطلق. ورأينا البعض منهم كلما تقدمت به السن وإزداد حباً فى السكون، دخل فى جوف الصحراء مسافة أبعد، لأنه ذاق جمال الوحدة وخبر لذاتها العقلية والروحية، فزاد إيغالا فى البعد عن الناس وعن العالم.

وحتى نظام الأنبا باخوميوس والمعروف بنظام الشركة الرهبانية والذى يقضى بأن يعيش الرهبان معاً عيشة مشتركة: يصلون معاً ويأكلون معاً ويعملون معاً، أقول حتى هذا النظام الجماعى لم يكن مقصوداً إليه لذاته كنظام رهبانى بالمعنى الدقيق. وإنما هو خطوة متوسطة

(١) نشر بجريدة وطنى الأحد الموافق ٨ مايو ١٩٦٠م - ٣٠ برمودة ١٦٧٦

يتدرب بها الراهب الناشىء على الإنتقال تدريجياً من الحياة الإجتماعية فى العالم إلى حياة التوحد المطلق خارج نطاق الدير. إذ الحياة الإشتراكية داخل أسوار الدير حياة إجتماعية فى نطاق محدود وفى بيئة مختارة.

ومع ذلك فللراهب أوقات ينفرد فيها فى قلايته أو صومعته من غيرأن يزعجه أحد. وبالتدريج، وتحت إشراف مرشده الروحى وتوجيهه تقل الفترات التى يجتمع فيها الراهب بزملائه من الرهبان وتزداد الفترات التى يخلو فيها إلى نفسه. وهكذا يتدرج شيئاً فشيئاً حتى يستأذن أخيراً فى الإنطلاق نهائياً من حياة الشركة إلى التوحد التام فى مغارة فى أحد الجبال أو التلال المجاورة أو البعيدة، كما فعل كثير من النساك فى شتى العصور، وكما فعل فى أيامنا القس المتوحد (وهو الآن البابا كيرلس السادس) الذى اعتزل دير البراموس واستقر أخيراً فى طاحونة بجبل المقطم، وكما فعل أيضاً الأب عبد المسيح الأثيوبى الذى يسكن الآن على مسافة بعيدة من دير البراموس بوادى النطرون.

ولما كان الإنسان إجتماعياً بطبعه، فإن حياة التوحد شاقة على طبع الراهب ولن يقبل عليها إلا راهب شحنت حياته بالتقوى وحب العبادة والتأمل، وأصبحت الصلاة لذة له وسعادة. ولئن كان المتوحد ينعزل تدريجياً عن المجتمع المنظور، فإنه يدخل تدريجياً أيضاً فى المجتمع غير المنظور، مجتمع القديسين والملائكة فى حضرة الله قدوس القديسين.

وفى طريق الكمال الرهبانى يتدرج الراغب فى حياة الرهبنة من تلميذ إلى راهب إلى عابد إلى ناسك إلى متوحد إلى سائح إلى متحد بالله.

إن الرهبنة فلسفة روحانية عميقة لا يقبلها جميع الناس، ولكن الذين «وهب لهم» فقط. والرهبنة طريق خاص ومنهج خاص للحياة الروحية الباطنية لا يستسيغه الكل. ولا يفهمه الكل. وقليلون جداً من الذين ساروا فى هذا الطريق أمكنهم أن يصلوا فيه إلى نهايته، هؤلاء الذين ذاقوا فضائل «التوحد».

رهبان الأقباط كرزوا بالإنجيل فى بريطانيا وايرلندا ونقلوا إليهما حضارتهم

على الرغم من إعتزاز الأقباط ببلدهم مصر، وافتخارهم بالإنتماء إليها، وارتباطهم بأرضها الغالية، وعطائهم لها وفيها، فإنهم لم يبخلوا بعطائهم لغير مصر كلما شعروا بحاجة شعوب العالم إلى خدماتهم. فمن أقباط مصر من رحلوا إلى بلاد العالم المتفرقة ومنها بلاد أفريقيا ومن بينها ليبيا ونيجيريا، وأثيوبيا، والنوبة، والسودان، ووسط أفريقيا وجنوبها وشمالها.

ومن علماء الأقباط من رحل وخدم فى بعض بلاد آسيا ومنها فلسطين، والشام، وبلاد الهند، وجنوب الجزيرة العربية.

ومنهم من ذهب إلى جزيرة قبرص وغيرها من جزر البحر الأبيض المتوسط وأقاموا فيها حضارة.

ومن الرهبان الأقباط من رحل أيضاً إلى شواطئ فرنسا الجنوبية ومرسيليا، وأسبانيا، ومنهم من ذهب إلى بلجيكا وألمانيا وسويسرا وإيطاليا. وكانوا نواة الأديرة التى أقيمت هناك على نظام الأديرة المصرية.

وهناك من بشروا باسم المسيح وهدوا إلى الإيمان المسيحى الأرثوذكسى كثيرين.

يقول المؤرخ الإنجليزى المشهور ستانلى لين بول فى كتابة Stanley Lane - Poole , Cairo - sketches of its history, Monuments and social life , (London , 1898), pp. 203 - 4 «إننا لا نعلم بعد مبلغ ما ندين به نحن، هنا فى الجزر البريطانية، لأولئك النساك القدامى. فمن المحتمل جداً، بل أكثر من المحتمل، أن نكون مدينين لهم بكرازة الإنجيل لأول مرة فى إنجلترا، إذ أنه حتى زمن مجئ القديس أوغسطينوس (إلى انجلترا) كان النظام الرهبانى السائد هو النظام المصرى».

ويقول ليدويش Ledwich إن تصميم الكنائس فى بلدة جلاستونبرى Glastonbury مقتبس من الكنائس المصرية.

كذلك كينيث مايلدنبرجر Kenneth Mildenberger فى كتابه: Unity of Cynewulf's Christ in the light of iconography, in speculum, XXIII, no. 3 (July, 1948), 426. 32 أوضح تأثير الإيقونات القبطية على الفن الرهبانى والحضارة الدينية فى نورثومبرلاند Northumberland بإنجلترا، وبهذا زودنا دون أن يقصد بدليل جديد على توكيد التأثير المصرى فى بريطانيا وإيرلندا عن طريق الأقباط الذين ذهبوا إلى هناك، وهو التفسير الوحيد لمعنى أثبته ميلدنبرجر (انظر كتاب ـ الأستاذ الدكتور عزيز سوريال عطية «تاريخ المسيحية الشرقية» A History of Eastern Christianity لندن، ١٩٦٨ صفحة ٥٤، ٥٥.

ويقول المؤرخ ستانلى لين بول «وهناك ما هو أعظم أهمية وهو أن المسيحية الإيرلندية - وهى العامل العظيم فى تحضر الشعوب الشمالية فى أوائل العصور الوسطى كانت إبنة للكنيسة المصرية. إن سبعة من الرهبان المصريين مدفونون فى صحراء أولديت Disert Uldith ».

«وفى طقوس ايرلندا وعمارتها فى أقدم عصورها، الكثير مما يذكرنا بالآثار المسيحية الأقدم عهداً فى مصر. وكلنا يعلم أن الصناعات اليدوية التى قام بها الرهبان الإيرلنديون فى القرنين التاسع والعاشر فاقت فى روعتها كل ما يمكن أن نجده فى أى مكان آخر فى كل أوربا. وإذا كانت الزخارف البيزنطية الشكل، وزخرفة المخطوطات بالذهب والفضة والألوان الساطعة، فى جمال منقطع لا يضارع، يرجع إلى تأثير مصرى نقله الأقباط إلى ايرلندا، كان علينا الكثير مما نشكر الأقباط من أجله، أكثر مما كنا نتصور من قبل».

ويروى ليدويش Ledwich فى كتابه «آثار ايرلندا» Antiquities of Ireland الطبعة الثانية صفحتى ٨٨، ٨٩ إن جالية مصرية استقرت فى جزيرة ليرين Lerins بالبحر الأبيض المتوسط بالقرب من شاطئ فرنسا الجنوبى، وتبعد قليلاً عن بلدة نيس Nice وأنهم أنشأوا فى سنة ٤٠٠ لميلاد المسيح ديراً على نظام القديس باخوميوس أب الشركة. وما لبث أن صار مشهوراً كمركز رهبانى كبير. وقد ترهب فيه القديس باتريك St. Patrick قديس ايرلندا وشفيعها ومؤسس كنيستها، الذى استعان هو نفسه برهبان من القبط فى تأسيس أديرة بإيرلندا، وقد خرب دير ليرين أثناء الثورة الفرنسية ثم جدد فى عام ١٨٥٩ للميلاد.

وعلى الرغم من عدم وجود صحارى فى ايرلندا سميت الأديرة هناك إلى اليوم بالصحارى.

ومنها صحراء مارتن وصحراء أولاى Ullaigh.

وقد ورد فى مخطوط صلوات قديم محفوظ بالأكاديمية الملكية الايرلندية بمدينة دبلن Dublin عاصمة ايرلندا الجنوبية هذا الإبتهال: «إنى أبتهل إلى سبعة الرهبان المصريين (المدفونين) فى صحراء أولاى Ullaigh أن يكونوا فى عونى، بيسوع المسيح» وقد ورد هذا النص فى كتاب وارن عن «قداس وطقوس الكنيسة السيلتية» Warren, Liturgy and ritual of the celtic church p. 56 .

ويبدو أنه كان لرهبان دير العذراء بالمحرق على الخصوص، نصيب واضح فى هذا العمل الكرازى، فقد ورد فى ليتورجية قديمة «اذكر يا رب عبيدك رهبان دير المحرق الذين هدونا إلى الإيمان».

وفى المكتبة الأهلية فى باريس Bibliotheque nationale de Paris دليل للرهبان الأيرلنديين الذين كانوا يحجون إلى مصر لزيارة الرهبان والأديرة المصرية، ولاسيما برية

الإسقيط فى وادى النطرون. ويذكر بعض المؤرخين أن أفواج الحجاج من ايرلندا كانت تتوافد بكثرة على مصرحتى الربع الأول من القرن الرابع عشر (انظر كتاب من تاريخ القبط ـ من مطبوعات جمعية مارمينا العجائبى ـ الرسالة الخامسة صفحتى ١٥، ٧٩).

ويذكر ألفريد بتلر A. J. butler فى كتابه «كنائس مصر القبطية القديمة» Ancient coptic churches of Egypt أن مسيحى ايرلندا تأثروا فى عمارة كنائسهم وأديرتهم بعمارة الكنائس القبطية القديمة، فبدلاً من بناء كنائس كبيرة متسعة، بنوا عدداً من كنائس صغيرة متجاورة يحيط بها سور يضم مبانى رهبانية، غرفات وحجرات ومطابخ وإلى غير ذلك ـ ثم يلاحظ أيضاً أن الايرلنديين استعاروا من الأقباط نوع القباء الذى يسقفون به صحن الكنيسة والهيكل وهو من طراز سقف العربات Wagon vault الذى ليس له نظير فى كل بلاد الغرب المسيحى فيما عدا ايرلندا.

وقد ذكر مرقس سميكة باشا فى كتابه «دليل المتحف القبطى وأهم الكنائس والأديرة الأثرية ـ الجزء الثانى، أنه شاهد بمكتبة بودليان Bodleian Library باكسفورد كتابين خطيين أحدهما باللغة الايرلندية والثانى بالقبطية ـ معروضين للمقارنة جنباً إلى جنب ـ بينهما شبه عظيم فى نوع الزخارف المستعملة فى تزيينها» (صفحة ١٥٧).

ومن آيات التشابه الشديد بين الفن الدينى فى ايرلندا والفن القبطى دلائل كثيرة تبرهن على تأثير الفن القبطى على الفن الايرلندى.

من ذلك نوع المراوح المستخدمة فى القداس والطقوس الدينية الايرلندية والتى لم يكن لها وجود فى كل أوربا إلاّ فى زمن متأخر.

كذلك يذكر وارن Warren فى كتابه «القداس والطقوس فى الكنيسة السيلتية» أنه وجدت فى أوائل القرن السادس فى ايرلندا «علب معدنية من البرونز أو الفضة المزيّنة بنقوش بارزة، تحتوى على نسخ من الأناجيل، أو مخطوطات أخرى، على طراز العلب القبطية المستخدمة فى مصر. ومن أروع الأمثلة على ذلك كتاب أرماغ Book of Armach وكتاب المزامير لكولومبا Psalter of St. Columba المحفوظ الآن فى الأكاديمية الملكية الايرلندية، وكتاب ديما ماك ناثى Book of Dimma Mac nathi ثم أيضاً ميوساش Miosach المحفوظ الآن فى كلية سان كولومبا فى راثفارنامRathfarnham كذلك كتاب الخولاجى المعروف Stowe missal وجدت له علبة يرجع صنعها إلى القرن الحادى عشر، وهى بينة واضحة على الصلة الوثيقة بين الكنيسة الايرلندية والفن الشرقى القبطى.

ويبين وارن Warren فى كتابه المشار إليه أن الأجراس اليدوية كانت مستخدمة فى كنائس بريطانيا وايرلندا منذ القرن السادس، وقد كان هذا الجرس اليدوى من شارات الشرف للأسقف الايرلندى تقدم له عند تكريسه أسقفاً، وما زال هذا النوع من الأجراس اليدوية الذى كان يستعمله القديس باتريك أسقف ايرلندا الشهير محفوظاً فى دبلن Dublin، هذه الأجراس لم تكن فى غير بريطانيا وايرلندا من بلاد أوربا بينما كانت مستعملة فى مصر. ولقد تطورت هذه الأجراس فى الغرب وصارت تدق عند رفع خبز القربان المقدس. وليس لنا دليل على استخدامها لهذا الغرض فى الكنائس الغربية على ما يقول (وارن) قبل القرن الحادى عشر، بينما كان وجود الأجراس معروفاً فى مصر قبل ايرلندا وكل أوربا بعدة قرون، غير أن الأجراس المستعملة فى الكنيسة القبطية أجراس صامتة لا تحدث صوتاً إلاّ إذا ضربت بقضيب صغير من الحديد، وهى المعروفة الآن بالترينتو Trianto.

ومن دلائل تأثر الطقوس الدينية الايرلندية بطقوس الكنيسة المصرية، الثوب الكهنوتى (التونية) الذى كان يلبسه الكهنة فى ايرلندا فى العصور القديمة، فكان متأثراً فى بساطة تطريزه ولونه المختار وهو الأبيض، بالتونية التى كان ومازال يرتديها كهنة مصر من الأقباط.

كذلك انفرد أساقفة ايرلندا عن أساقفة أوربا فى الغرب، بحمل (التاج) فوق رؤوسهم بينما غيرهم من أساقفة أوربا كانوا يلبسون التاج المعروف عند الغربيين بشكله المدبب والمسمى بـ (الميتر Mitre, Miter). ويذكر (وارن) فى كتابه صورة منحوتة على الحجر لأسقف ايرلندى يحمل على رأسه التاج، فى نقش ضئيل البروز Bas relief قديم جداً، فى مقصورة متهدمة فى وادى جيلندالو Glendalough كما يذكرون أن القديس سامبسون Sampson وهو من القرن السادس رأى فى منامه ثلاثة أساقفة عظماء مزينين بتيجان ذهبية.

كل هذه دلائل وبينات تشهد بآثار للكنيسة القبطية فى بريطانيا وايرلندا فضلاً عن فرنسا وبلجيكا وسويسرا وإيطاليا واسبانيا وألمانيا وغيرها من بلاد أوربا..

لقد بشروا بالإنجيل هناك، واهتدت بكرازتهم شعوب أوربا، إلى الإيمان بالمسيح، وتركوا على الآثار والطقوس والفنون المختلفة بصماتهم ونقلوا مع الدين وطقوسه الحضارة المسيحية القبطية.

هذه الحقيقة التاريخية مفرحة ومشجعة وترفع معنوياتنا، وتحقننا بمصل واقٍ ضد الخوف والضعف والقنوط واليأس، وتبصر شعبنا بماضٍ تليد وكفاح مجيد، أفدنا به غيرنا من شعوب العالم، فلم نكن أنانيين ولا متقوقعين ولا مستكينين، وإنما كانت فينا حياة دفقناها حارة فى شرايين غيرنا من الشعوب.

أشهر رجال الرهبانية (١)

ليس فى الإمكان أن نثبت سجلاً بأسماء الرهبان من الرجال والنساء الذين سلكوا هذا الطريق، فقد بلغوا الملايين حتى لقد قال الرحالة والمؤرخون «ليست السماء غنية بنجومها غنى برّية مصر برهبانها» ممن كانوا يعيشون متفرقين أو جماعات. فلا أقل من أن نذكر لك بعضاً من أئمتهم، وكبار شيوخهم الذين قادوا الملايين منهم فى هذا الطريق الملائكى، وهم الذين يسمونهم «بآباء الإسكيم» والإسكيم هو الشكل الرهبانى الخاص الذى لا يرتديه إلاّ كبار النسّاك المجاهدين .

الأنبا بولا السائح:

قيل أنه أول النُسّاك المتوحدين فى صحراء مصر الشرقية. وكان من طيبة (وهى الأقصر) فى صعيد مصر، دخل مدارس الفلاسفة وتعلّم اللغتين القبطية واليونانية، ومات والداه عندما بلغ الخامسة عشرة من عمره فنازعه زوج شقيقته فى المال والعقار الذى تركه والداه.

وقيل أنه فى أثناء هذا النزاع خرج إلى الطريق فرأى ميتاً يشيعه الناس إلى مقره الأخير، فتأمل فى معنى الحياة، وسأل أحد الناسِ وهوِ متأثر وكأنه يعظ نفسه «هل حمل هذا الميت إلى قبره مالاً أو عقاراً؟» فأجابه محدثه «ومَنْ من الناس يحمل إلى القبر معه شيئاً؟» فسمع بولا هذا الجواب، وكأنه صوت من السماء. وفرح لأنَه وجد فيه حلاً للنزاع القائم بينه وبين زوج شقيقته ومضى للتو، بعد أن ترك كل شئ، ليختلى فى مكان منعزل فى الصحراء الشرقية، ووجد مغارة بالقرب من عين ماء ونخلة. فسكن المغارة مصلياً وكان يستقى من عين الماء ويأكل بلحاً من ثمر النخلة حتى بلغ من العمر ثلاثاً وأربعين سنة.

وقيل أن الأنبا بولا كان يعتزم فى مبدأ الأمر أن يعود إلى العالم بعد فترة من الزمان، ولكنه بعد أن ذاق لذات الحياة الروحية ونعيم الوحدة والسكون والعشرة المقدسة مع الله عدل عن فكره، وآثر البقاء فى الصحراء بل زاد على ذلك بأن دخل البريّة الجوّانية. وقد قال هو نفسه «إن الظروف هيأت لى طريق الفضيلة».

إن ذلك القديس بولا أخفى نفسه ولكن الله شاء أن يشهره ليعلم الناس فضله. ذلك أن القديس أنطونيوس الملقب بأبى الرهبان كان قد اعتزل هو الآخر فى البرية للتعبد، ولم يعلم أحدهما بالآخر. فلما أن بلغ الأنبا أنطونيوس التسعين من عمره أعلمه الرب بصوت من السماء أنه قد تقدّمه فى هذه البرية رجل فاضل، فاشتاق القديس أنطونيوس من كل قلبه إلى رؤية الأنبا بولا، فسافر يومين وليلة وهو لا يكف عن الصلاة طالباً من الله الإرشاد، وأخيراً رأى وحشاً فتعقبه. ولما خيّم الظلام بحث عن مكان قريب يأوى إليه، فصادف مغارة ولمح فى داخلها نور سراج،

---

(١) مقال بخط يد نيافته.

فعلم أنه قد وجد ضالته المنشودة. وأخذ يقرع باب المغارة ولكن الأنبا بولا لم يفتح له، فصار يبكي ويقول إني واثق أنك تعلم من أنا، ومن أين جئت ولماذا أتيت؟ وسوف لا أبرح هذا المكان حتى أبصرك فهل يمكنك يا من قبلت الحيوانات أن تطردني أنا الإنسان؟ وبعد وقت فتح له القديس ثم تعانقا وسلم كل منهما على الآخر باسمه كأنه يعرفه من زمن، ثم جلسا يتحدثان ويتسامران. وسأل القديس بولا عن أهل العالم عندما تركه أنطونيوس فأجابه بما يعرف.

وحلّق غراب فوق رأسيهما ونزل وترك لهما رغيف خبز. فقال الأنبا بولا: مبارك الرب الإله الذى لا ينسى عبيده بل يتعهدهم بمراحمه. إن لى ستين سنة والغراب يأتينى فى كل يوم بنصف رغيف خبز. وأما اليوم فقد أحضر لنا رغيفاً كاملاً وهذا من أجلك أنت أيضاً.

وقال الأنبا بولا لزميله القديس: لقد عرفتُ منذ زمن أنك تسكن البرية، وقد وعدنى الله بأنك ستزورنى وتوارينى التراب. والآن قد جاء الوقت الذى انطلق فيه من هذا العالم. وها أنا اطلب إليك أن تعود إلى ديرك وتوافينى بالرداء الذى دفعه إليك البابا أثناسيوس الرسولى لكى توارينى به. فبكى أنطونيوس متأثراً من هذا الوداع، ولكنه أطاع رغبة الشيخ القديس، وعاد إلى الدير بعد أن تبارك من القديس ورجع بالرداء المطلوب. وعندما اقترب من مغارة الأنبا بولا شاهد عدداً كبيراً من الملائكة فى الفضاء يرتلون وبينهم نفس البار الأنبا بولا. ولما دخل المغارة اعترته حيرة لأنه رأى جسد القديس جاثياً على ركبتيه ويداه مبسوطتان ورأسه مرتفع وكأنه يصلى. فجثا بجانبه يصلى. ولما لم يسمعه يتأوه أو يتنهد حسب عادته تأمله فتحقق أن الجسد بلا روح. وألبسه الثوب، وقام ليواريه التراب، ولكنه تبين أنه فى حاجة إلى أدوات للحفر. فأرسل الرب له أسدين أقبلا عليه، فرسم لهما على الأرض حدود القبرفجعلا يحفران حتى أعدا له القبر فدفن فيه القديس وواراه التراب وصرف الأسدين، وعاد هو إلى ديره بعد أن أخذ معه ثوب الأنبا بولا المنسوج من أوراق النخيل، وصار يرتديه فى الأعياد والمواسم المقدسة تبركاً بالقديس، وكانت حياة الأنبا بولا نحو ١١٣ سنة، امتدت بين سنة ٢٢٨ وسنة ٣٤٢م.

وقد قال أحد الآباء القديسين معقباً على حياة هذا الراهب السائح وموبخاً الأغنياء المترفين «إني أسأل الأغنياء الذين لا يعرفون كمية ثرواتهم لزيادتها (لكثرتها) والذين يسكنون المنازل الفسيحة المزينة بكل أنواع الزينة والزخرفة: ما الذى أعوز هذا الشيخ الذى تعرّى من كل غنى؟ ها أنتم تشربون فى كؤوس من ذهب وفضة وهذا بولا كان يطفئ عطشه بكف يده. أنتم تلبسون البز والبرفير وهذا كان يرتدى ثوباً من النخيل. غير أن الأمر سوف لا يدوم على هذا الحال.. فها إن السماوات قد انفتحت لبولا المسكين، وأما أنتم فستهبطون مع جميع كنوزكم إلى الهاوية. وهو قبر فى لحد ليقوم للمجد، وأما أنتم فتدفنون فى قبور من الرخام والمرمر لتحترقوا إلى الأبد».

الأنبا أنطونيوس المصرى أبو الرهبان

نال هذا القديس هذا اللقب بجدارة، لا لأنه كان أول من اعتزل العالم طلباً للتعبد فقد سبقه كثيرون، أخذ هو نفسه عنهم وتعلّم منهم، وكان يختلف إليهم ليقتبس منهم فضائلهم وينتفع من خبراتهم. لكنه هو نفسه صار أباً لمئات حذوا حذوه واقتدوا بسيرته واتخذوه لهم معلماً وقائداً، وكان ذلك فى حياته وأيضاً بعد وفاته. وفى حياته تبعوه بالمئات والألوف التفوا حوله واتخذوه لهم مرشداً وأباً ومعلماً وإماماً للطريق، وكان هو يفتقدهم ويتحدث إليهم مشجعاً وهادياً، وكان يجيبهم على أسئلتهم ويحل مشكلاتهم، ويرسم لهم طريق الحياة الناجحة. لذلك سمّى «بأبى الرهبان».

لم يكن فقيراً قصد إلى الرهبانية هرباً من مسئوليات الحياة، بل كان غنياً ورث عن أبويه أكثر من ثلثمائة فدان من أجود الأراضى فى بلدته **قمن العروس** بمركز الواسطى بمحافظة بنى سويف ولكنه كان متديناً تديناً عميقاً، تلقنه عن والديه وكان يواظب على حضور القدّاس واجتماعات الكنيسة، فلما توفى والداه وكان قد بلغ نحو العشرين من عمره، وتركا له العقار والأموال، ولم يكن له غير أخته التى تصغره سناً، أخذ يفكر فيما صنعه الرسل الذين تركوا كل شئ وتبعوا المخلّص. وحدث أن دخل الكنيسة وسمع فى إنجيل القدّاس رب المجد يقول «إن كنت تريد أن تكون كاملاً فاذهب وبع كل شئ لك واعطه للمساكين فيكون لك كنز فى السماء، وتعال اتبعنى». فحسب هذا القول الإلهى رسالة شخصية له. ولما خرج من الكنيسة اعتزم أن يبيع أملاكه ويوزعها على الفقراء. وفعلاً فعل. ولم يبقِ إلا قليلاً من المال احتجزه لشقيقته. ودخل الكنيسة فى يوم آخر وسمع إنجيل القداس يقول «فلا تهتموا للغد، لأن الغد يهتم بما لنفسه» (متى ٦ : ٣٤) فمضى ووزّع ما تبقى من المال وأودع شقيقته فى بيت للعذارى اللائى نذرن أنفسهن للعفة الكاملة، واعتزل هو نفسه فى مكان هادئ خارج بلدته. وكان كلما سمع عن ناسك صالح كان يمضى إليه لينتفع بخبرته وتجاربه ويتعلم عنه أكبر فضيلة فيه. ويقول القديس أثناسيوس الرسولى الذى كتب لنا سيرته وكان يصب له الماء على يديه كابن له: «إن القديس أنطونيوس كان يأخذ عن أحد النساك صبره وإحتماله وطول أناته، ويأخذ عن غيره محبته وعن ثالث وداعته وسماحته ويأخذ عن ناسك رابع حكمته وعن الخامس إحتقاره للمدح والمجد الباطل وهكذا، وكأنه يجمع باقة من زهور مختارة ليزيّن بها نفسه بالفضائل».

عاش القديس الصغير سعيداً بهذه الحياة الحرّة الطليقة من قيود المادة، ومغتبطاً بعشرة العباد والنسّاك الذين باعوا أباطيل الدنيا واشتروا بها «اللؤلؤة الكثيرة الثمن»، وصاروا فى قمة الحرّية وعلى قول القديس أوغسطينوس «جلست على قمة العالم عندما وجدت نفسى حراً من كل رغبة

مادية، ولكنّ القديس الشاب لم تَخْلُ حياته من حروب الأفكار، فكان الشيطان تارة يوبخه على بيعه مقتنياته، وتارة يرغبه فى العودة إلى حياة العالم. وتارة يصوّر له مناظر مغرية ليفسد عفته، وأخرى يصوّر له فى عزلته مناظر مخيفة من حيوانات ضارية. ولكنه قد انتصر عليها جميعاً بالصلاة والصوم ورسم علامة الصليب. وكلما حلّ به الخوف كان يردد قول النبى فى المزمور «الرب نورى وخلاصى فممن أخاف، الرب عاضد حياتى فممن أفزع. عندما يقترب منى الأشرار ليأكلوا لحمى، مضايقى وأعدائى عثروا وسقطوا. وإن يحاربنى جيش فلن يخاف قلبى..» (مز ٢٦ : ١، ٣) وكان الرب يبدد مخاوفه ويزيل أوجاعه. ومرة صرخ إلى الرب وقال: أين كنت يا ربى وسيّدى، ولماذا لم تبدد مخاوفى فى مبدأ الأمر. فسمع صوتاً من السماء يقول: «لقد كنت قريباً منكِ، ولم أشأ أن أظهر لك ذاتى، لأنى أردت أن أشاهد قتالك للأفكار ولعدو الخير. ولقد انتصرت، فسأكون معك دائماً وأعضدك».

ولما تحقق القديس لذّات الحياة النسكية وجمال الوحدة والسكون، رغب فى المزيد منها، فترك مكانه إلى أعماق البرّية الداخلية، وهناك وجد برجاً مهجوراً من أيام الفراعنة، كانت تسكنه الوحوش والحشرات، فلم يجفل القديس منها، وإنما دخل البرج بكل رباطة جأش، والغريب أن واحداً منها لم يؤذه بشر، وإنما أخذت تتفرق فى أرجاء البرية الواسعة وأخلت له المكان فسكن فيه سنوات. وعلم بفضائله الكثيرون فقصدوا إليه لينتفعوا بتعاليمه ويتباركوا به، ولكنه كان يرفض الخروج إليهم مصراً على الاعتكاف والوحدة، وكانوا هم لا يفارقون المكان ولو لكى يسمعوا نغم صلاته وترنيمه من بعيد. وكان هو فى أحيان قليلة يجد نفسه مضطرا تحت إلحاحهم إلى الخروج إليهم. وقد منحه الله مواهب كثيرة لشفاء المرضى وإخراج الشياطين. فزاد إقبال الناس عليه واشتدت أشواق البعض إلى أن يصيروا له تلاميذ. ولما بلغ الخامسة والخمسين وكانت قد مضت له فى مكانه الأخير عشرون سنة، خرج ملبياً رغبة الكثيرين فى حياة الرهبانية والنسك وأقاموا صوامعهم من حوله ووضع لهم نظاماً روحياً، يتدرج بهم فى حياة الفضيلة وكان يفتقدهم بين وقت وآخر، ثم يعتزل عنهم، وبعد وقت يعود إليهم. وعلّمهم أيضاً أن يشتغلوا بأيديهم ويزرعوا الأرض ويفلحوها فتحولت الصحراء بعد قليل إلى أرض خضراء مزهرة بالثمار.

وذاع صيت فضيلته فى الشرق والغرب، وقصد إليه كثيرون وتتلمذوا على يديه. وجاء إليه فلاسفة من الشرق والغرب يناقشونه ويباحثونه، وكان يدهشهم بمنطقه البسيط، فيشعرون بسموّ شخصيته وقوة حجّته. وقد راسله قسطنطين أحد ملوك الروم فتباطأ عن الردّ، فذهل تلاميذه من الرهبان فقال لهم بكل هدوء واتزان: أتطربون لأن ملكاً من الأرض يكتب لنا وهو إنسان مثلنا، ولا تعجبون بالحرى لأن الله كتب لنا شريعته وفوق ذلك خاطبنا فى ابنه يسوع المسيح وهو كلمة الله المتجسد؟

ولما ألحوا عليه بالرد كتب للملك يعظه بكلمات قوّية من غير مداهنة، ولا تملّق حتى هابه الملك وأرسل يطلب صلواته وبركاته.

ولمّا ثار الاضطهاد فى زمانه وسمع ببلوى المسيحيين نزل ومعه عدد من شيوخ الرهبان إلى مدينة الأسكندرية، يشدّد إيمان الشعب بالمسيح وقصد إلى السجون يثير المسيحيين أن يتمسكوا بدينهم، وكان يجتمع بالمحكوم عليهم بالأشغال الشاقّة يرغبهم فى الاحتمال والصبر من أجل الحياة الأبدية، بل وكان يمضى إلى المحاكم ويدافع عن المسيحيين المتهمين ظلماً. وكان فى هذا كله يعرّض نفسه للأخطار. وكان هو شخصياً لا يبالى بحياته، بل كان فعلاً راغباً فى أن يموت شهيداً من أجل المسيح. ومع ذلك شاء الله أن ينجو من الموت لأن حياته كانت ألزم لأولاده وتلاميذه، وعاد إلى ديره بسلام يواصل رياضاته الروحية.

ونزل مرة أخرى إلى العالم عندما علم بخبر بدعة الأريوسيين، الذين زعموا أن المسيح مخلوق، وكان القديس أثناسيوس بابا الأسكندرية قد نفى من كرسيه، بسبب استمساكه بالإيمان الأرثوذكسى فى لاهوت السيد المسيح. فرأى الأنبا أنطونيوس أن الضرورة تلزمه بأن يثبت إيمان المسيحيين، فى غياب راعيهم الأكبر، فأخذ معه عدداً من شيوخ الرهبان وذهب إلى الأسكندرية، وصار ينتقل بين الناس واعظاً ومعلّماً، ومدافعاً عن الإيمان، ومبطلاً حجج الأريوسيين وتعليمهم الفاسدة المنحرفة. فانتفع المسيحيون بوعظه، وازداد المخلصون استمساكاً بإيمان آبائهم. وعاد بعد ذلك القديس أنطونيوس ورهبانه إلى ديرهم مرة أخرى.

إن من العسير أن نسجّل كل فضائل هذا القديس الذى شهدت عنه السماء مرة، أن الأرض وما عليها لا تستحق وطأة من قدمه، والذى حاربته الشياطين بألوان مختلفة من الحروب ولكنه انتصر عليها. هذا الرجل الذى جذب الملايين إلى الهداية، بصلواته وتعاليمه وسيرته العطرة وقدوته الصالحة، وقد علّم بالمثال أكثر من الكلام «عن زوال الحياة الدنيا، واحتقار أباطيل العالم، وأهمية السعى لخلاص النفس من خطاياها، ولذّات الحياة العقلية الروحانية، ولفت العيون إلى قيمة الحياة الأبدية».

ولقد انتفع بسيرته الشرق والغرب، وأسسوا الأديرة إقتداء بما فعل، وقال مؤلفو الغرب عن سيرته «هذه السيرة قد خلقت أثراً قوياً فى كل أنحاء العالم، وهى التى أوقدت شعلة الرغبة النسكية فى روما وفى كل الغرب» وقالت عنه دائرة المعارف البريطانية «أنه أبو الرهبنة المسيحية».

ومع شظف الحياة التى عاشها، ومع أنه لم يأكل اللحوم قط، فقد كان يأكل مرة فى اليوم وأحياناً مرة فى كل يومين، أو ثلاثة أو أربعة، ومع أن طعامه كان بسيطاً، لكنه لم يمرض فى حياته قط، وعاش إلى أن بلغ ١٠٥ سنوات وقد علم بأمر موته فودّع أبناءه الرهبان وضمّ رجليه وأسلم الروح وعلائم الرضى والسرور تعلو وجهه الملائكى فى الثانى والعشرين من طوبة سنة ٣٥٦م أما مولده فكان فى سنة ٢٥١م.

تأملات فى حياة القديس أنطونيوس (١)

نطالع جزءاً من الإصحاح العاشر من سفر نبوءة دانيال النبى بركاته علينا آمين.

«فى السنة الثالثة لكورش ملك فارس كُشف أمر لدانيال الذى سمى باسم بلطشاصر، والأمر حق والجهاد عظيم وفهم الأمر وله معرفة الرؤيا، فى تلك الأيام أنا دانيال كنت نائحاً ثلاثة أسابيع أيام، لم آكل طعاماً شهياً ولم يدخل فى فمى لحم ولا خمر ولم أدَّهن حتى تمت ثلاثة أسابيع أيام. وفى اليوم الرابع والعشرين من الشهر الأول إذ كنت على جانب النهر العظيم هو دجلة، رفعت عينى ونظرت فإذا برجل لابس كتاناً وحقواه متمنطقان بذهب أوفاز، وجسمه كالزبرجد، ووجه كمنظر البرق، وعيناه كمصباحى نار وذراعاه ورجلاه كعين النحاس المصقول وصوت كلامه كصوت جمهور. فرأيت أنا دانيال الرؤيا وحدى والرجال الذين كانوا معى لم يروا الرؤيا، لكن وقع عليهم ارتعاب عظيم فهربوا ليختبئوا، فبقيت أنا وحدى ورأيت هذه الرؤيا العظيمة، ولم تبقى فىّ قوة ونضارتى تحولت فىّ إلى فساد ولم أضبط قوة، وسمعت صوت كلامه، ولما سمعت صوت كلامه كنت مسبخاً علىٍ وجهى ووجهى إلى الأرض، وإذا بيد لمستنى وأقامتنى مرتجفاً على ركبتى وعلى كفّ يدى، وقال لى يا دانيال أيها الرجل المحبوب افهم الكلام الذى أكلمك به، وقم على مقامك لأنى الآن أرسلت إليك. ولما تكلم معى بهذا الكلام قمت مرتعداً، فقال لى لا تخف يا دانيال لأنه من اليوم الأول الذى فيه جعلت قلبك للفهم ولإذلال نفسك قدام إلهك، سمع كلامك وأنا أتيت لأجل كلامك. ورئيس مملكة فارس وقف مقابلى واحداً وعشرين يوماً، وهوذا ميخائيل واحد من الرؤساء الأولين جاء لإعانتى، وأنا أُبقيت هناك عند ملوك فارس، وجئت لأفهمك ما يصيب شعبك فى الأيام الأخيرة لأن الرؤيا إلى أيام بعد. فلما تكلم معى بمثل هذا الكلام جعلت وجهى إلى الأرض وصمدت، وهوذا كشبه بنى آدم لمس شفتى ففتحت فمى وتكلمت وقلت للواقف أمامى يا سيدى بالرؤيا انقلبت علىّ أوجاعى فما ضبطت قوة، فكيف يستطيع عبد سيدى هذا أن يتكلم مع سيدى هذا وأنا فحالاً لم تثبت فىّ قوة ولم تبقى فىّ نسمة، فعاد ولمسنى كمنظر إنسان وقوانى وقال لا تخف أيها الرجل المحبوب سلام لك. تشدد تقو. ولما كلمنى تقويت وقلت ليتكلم سيدى لأنك قويتنى، فقال هل عرفت لماذا جئت إليك. فالآن ارجع وأحارب رئيس فارس فإذا خرجت هوذا رئيس اليونان يأتى، ولكنى أخبرك بالمرسوم فى كتاب الحق ولا أحد يتمسك معى على هؤلاء إلا ميخائيل رئيسكم». مجداً للثالوث القدوس الآب والابن والروح القدس.

أيها الأخوة والأبناء، فى هذا المساء المبارك وبمناسبة عيد القديس العظيم أبى الرهبان الأنبا أنطونيوس، يمكن أن يكون موضوعنا تأملات فى حياة الأنبا أنطونيوس.

---

(١) محاضرة بكنيسة الأنبا أنطونيوس بشبرا - مساء الأحد ٢٧ يناير ١٩٨٠م - ١٨ طوبة ١٦٩٦ ش - نقلاً عن شريط كاسيت.

أولاً : صلاة بلا إنقطاع:

وأول ما يثيرنا فى الرجل أنه كان رجل صلاة بلا إنقطاع، وكانت خدمته لله هى صلاته، والغريب أن كثيرين من الناس يفهمون الخدمة على أنها خدمة وعظ وإرشاد وتعليم، وانحصر مفهوم الخدمة عند الكثيرين بهذا المعنى، وغاب عنهم أن هناك خدمة لله من طراز آخر، هذه الخدمة ما نسميها بخدمة الملائكة.

وخدمة الملائكة لله تقوم على أساس أنهم واقفون أمام العرش، واقفون على خدمة رب العرش يقول الملاك جبرائيل أو غبريال وهو أحد الرؤساء السبعة الواقفين أمام العرش، أو كما سماهم سفر الرؤيا سبعة أرواح أمام عرشه، أو كما قال الملاك رافائيل لطوبيا: أنا رافائيل أحد السبعة الواقفين أمام الله.

جبرائيل حينما أتى من السماء ليبشر زكريا يقول له: أنا جبرائيل الواقف أمام الله، فخدمة الملائكة، خدمة الوقوف أمام الله فى حضرته استعداداً لتنفيذ كلمته، خدمة الملائكة خدمة العبادة، حتى الملائكة الحراس المكلفين بحراسة الأطفال، يقول عنهم رب المجد أن ملائكتهم ينظرون فى كل حين وجه أبى فى السموات، حتى الملائكة الحراس المكلفون بالحراسة، خدمتهم الأساسية أنهم واقفون أمام الله ينظرون إليه، يشخصون بأبصارهم إليه، يركزون كل إهتمامهم فى حضرته، وفى لمح البصر ينزلون من السماء ليحرسوا الأطفال ويعينوهم فى وقت الحاجة، ثم يعودون فى لمح البصر إلى مقرهم الأصيل أمام الحضرة الإلهية، هذه هى خدمة الملائكة. خدمة الوقوف فى الحضرة الإلهية، لماذا يغيب عن أذهاننا أن هناك خدمة لله غير خدمة الناس، وهذه الخدمة فى الحضرة الإلهية قوامها الوقوف أمام الله وعبادته، والشخوص فيه والتطلع إليه، هذه هى خدمة الملائكة.

والرهبنة فى صميمها هى خدمة الملائكة بين البشر، الرهبنة فى رسالتها الحقيقية كما فهمها أباء الرهبنة العظام، من أمثال القديس أنطونيوس، والأنبا بولا، والأنبا بيشوى، والأنبا مقار، والأنبا شنودة، والأنبا باخوم، كل أباء الإسكيم الذين رسموا طريق الرهبنة وساروا أمامنا، هؤلاء فهموا الرهبنة فى صميمها على أنها خدمة الملائكة، خدمة الواقفين أمام الله، خدمة الصلاة التى بلا إنقطاع.

وهذا التعبير الجميل الوقوف أمام الله كان دائماً فى فم إيليا النبى، إيليا الذى عاش راهباً بكل معنى كلمة الرهبنة، لأنه كان متبتلاً منقطعاً لخدمة الله، وكان يلبس على حقويه منطقة من جلد، وكان زاهداً فى طعامه وشرابه ولباسه، كان إيليا يقول: حىٌ الرب الذى أنا واقف أمامه، كان إيليا يرى نفسه أنه واقف أمام الله وأنه فى حضرته دائماً وأنه قائم على خدمته، وكانت

خدمة إيليا هى خدمة الصلاة التى بلا إنقطاع فى جبل الكرمل، فى الجبال والبرارى والقفار كان إيليا هذا الطراز من الرهبان الذى عمله الأول والأساسى هو الصلاة، خدمة الملائكة الوقوف أمام الله، وهكذا كان يوحنا المعمدان الذى أقام فى البرارى إلى يوم ظهوره لإسرائيل، وكان الناس يخرجون إليه، أما هو فكان مقيماً فى الصحراء والناس هى التى كانت تخرج إليه، ولكن بعد ثلاثين سنة على الأقل من حياة نسكية عنيفة، لأن يوحنا اختطفه ملاك الرب من يدى أبيه زكريا وأتى به إلى البرية، لأن جند هيرودس ذهبوا إلى بيت زكريا يطلبون أن يقتلوا ابنه، لأنه كان ينطبق عليه قرار هيرودس بقتل الأطفال الصغار من ابن سنتين فما أقل، دخل الجند بيت زكريا ليقتلوا طفله فقال لهم زكريا بمرارة وحزن أُسلمه إليكم من المكان الذى أخذته، فذهب وهو شيخ يجرى ويوحنا على كتفيه طفلاً رضيعاً، وهناك فى الهيكل أمسك بقرون المذبح وهو يصرخ ويقول: هذا هو الابن الذى أعطيتنى إياه يطلبون أن يقتلوه، فاختطفه ملاك الرب وذهب به إلى البرية، فلما لم يجد الجند طفله ليقتلوه حسب الأوامر الصادرة إليهم، قتلوا أباه زكريا، وهنا قال المسيح له المجد «يأتى عليكم كل دم ذكى سفكتموه على الأرض من دم هابيل الصديق إلى دم زكريا بن براخيا الذى قتلتموه بين الهيكل والمذبح».

عاش يوحنا طفلاً رضيعاً فى البرية والقفار، يشرب من لبن الغزلان إلى أن كبر وصار طعامه من النبات الذى ينبت فى الأرض الجرداء وعسل النحل، وكان يلبس منطقة من جلد على حقويه فى صورة الراهب الناسك العابد كل زمانه الذى قضاه فى البرية، والرسالة التى تلقاها يوحنا من الله تلقاها وهو فى البرية، ولذلك يقول عن المسيح أنا لم أكن أعرفه، لم تكن بينى وبينه معرفة بالعين سابقة لأنى ما رأيته بعينى رأسى، أنا لم أكن أعرفه، ولكن الذى أرسلنى قال لى الذى ترى الروح نازلاً ومستقراً على رأسه، هذا هو الذى يعمد بالروح القدس وبالنار، لاحظوا قوله، الذى أرسلنى قال لى، متى تمت هذه الإرسالية؟ ومتى سمع يوحنا هذا الصوت يبلغه الرسالة؟ الذى أرسلنى قال لى الذى ترى الروح نازلاً ومستقراً على رأسه هذا هو الذى يُعمد بالروح القدس والنار، وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله.

يوحنا تلقى الرسالة فى البرية فى الصحراء القاحلة فى هذا المكان النائى فى الجبال، وهو أنسب مكان يمكن أن يتلقى فيه الإنسان رسالة من السماء، حيث يتوافر له الصفاء ويتوافر له الهدوء والسكون، يمكنه أن يسمع فيه صوت الله، ولكن حيث الضجيج وحيث الأصوات العالية، حيث القلق وحيث السجس وحيث الإضطراب يتعذر جداً أن يسمع الإنسان فيه صوت الله.

من أجل هذا رأينا أولئك الروحانيين الذين يريدون أن يحيوا حياة كاملة مع الله، وأن يتحدوا به إتحاداً كاملاً، خرجوا من العالم، حكموا على أنفسهم بالموت الإرادى، ماتوا بمعنى كل الكلمة،

ليست الإماتة فقط بمعنى إماتة الشهوات والرغبات وأعمال الطياشة وميول الجسد، ولكن أيضاً بالخروج الكامل من المجتمع العريض.

وهذه هي رسالة الرهبنة خروج من العالم، بالمعنيين الروحي والجسدي، بالمعنيين الأدبي والمادي، خروج من العالم خروجاً تاماً كاملاً، وكأن الإنسان قد دخل بالموت إلى ما بعد الموت، استعجل الإنطلاق والدخول إلى العالم الآخر وهو في هذا العالم، ولذلك كان التعبير والمصطلح السائد بين الرهبان: إذا اضطر أن يعود إلى العالم يقول نزلت إلى العالم، وحينما يذهب إلى الصحراء يقولوا صعدت، صعدت إلى الجبل، إلى البرية، ليس هذا الكلام معناه فقط بالمعنى الجغرافي أو المادي، أو الحرفي أو الخارجي للكلمة، باعتبار أن الجبال أماكن عالية بالنسبة إلى الوادي، ولكن هنا معنى روحي أيضاً صعد إلى الجبل لأنه خرج من هذا العالم الواطي المنخفض إلى العالم الأعلى والأسمى بالروحانية السامية، حيث يقف الراهب أمام الله وقوفاً دائماً، كأنه وقوف الملائكة في حضرة الله أمام عرشه المقدس. وإذا أضطر أن يرجع إلى العالم في مهمة كما كان إيليا يعود إلى العالم أحياناً، فكان يقول نزلت إلى العالم، هذا هو النزول لا بمعناه الحرفي فقط المادي الجغرافي، ولكن أيضاً بمعناه الروحاني والأدبي والعقلاني نزول إلى العالم، لأن الرهبنة الحقيقية ترفع إحساسات الإنسان إلى فوق، ترفع عقله إلى فوق، ترفع مشاعره إلى فوق تجعله يعلو، يعلو فوق الوجود المادي إلى الحضرة الإلهية، إلى الوجود أمام العرش السماوي واقفاً أمامه في خدمة الملائكة.

عندما نقرأ في الأسفار المقدسة عن الملائكة الذين يسمون بالكاروبيم أو الشيروبيم والسيرافيم، عندما نقرأ عنهم في سفر حزقيال، وفي سفر الرؤيا وفي سفر إشعياء والمزامير وفي غير ذلك من الأسفار المقدسة، نقرأ عن الكاروبيم والسيرافيم أنهم أرقى طغمة من طغمات الملائكة، وهم أقرب الملائكة إلى العرش الإلهي، الكاروبيم والسيرافيم من طغمة واحدة، لكن الكاروبيم وظيفتهم أنهم قائمون تحت العرش يحملون عرش الله، ويمثلون المركبة الإلهية من تحت العرش الإلهي، الجالس فوق الكاروبيم، الله يجلس فوق الكاروبيم، حينما نقرأ في سفر حزقيال يقول: أن الملائكة الكاروبيم وهم من نور ونار واقفون وقفة إنسان، وفوق رؤوس هؤلاء الملائكة مقبب مثل البللور الهائل، وفوق المقبب شبه عرش، له شكل قوس قزح، بألوانه السبعة، وفوق العرش شبه منظر إنسان وهو رب العرش يسوع المسيح، الإله في صورة إنسان، هؤلاء الملائكة واقفون تحت العرش يحملون العرش، وحيثما ذهب الرب كان الكاروبيم يذهب معه حاملاً عرشه، يقول ركب على كاروب وطار، ما هي خدمة الكاروبيم، ما هو عملهم؟ واقفون أمام العرش وتحت العرش، من يوم الخليقة وإلى الآن الكاروبيم واقفون تحت العرش، هذه هي خدمة الملائكة، الوقوف أمام

العرش ولذلك يحملون لقب حراس العرش، لا بمعنى أن الله فى حاجة إلى حراسة هذه الملائكة، ولكن لكى يخلق لهذه الكائنات التى خلقها وظيفة تتشرف بها، تصبح لها كرامة أنها تصلح بأن تكون هى الحراس الواقفون أمام العرش، وذكر سفر التكوين أن الكاروبيم أقيم أمام شجرة الحياة، لحراسة طريق شجرة الحياة، حتى لا يقترب الإنسان الذى سقط من شجرة الحياة فيأكل ويحيا إلى الأبد، وشجرة الحياة هى المسيح، والكاروبيم واقفون لحراسة طريق شجرة الحياة حتى يطردوا من الحضرة الإلهية كل إنسان ساقط فى الخطيئة، لا يليق أن يقترب إلى شجرة الحياة حتى لا يأكل فيحيا إلى الأبد، بعد أن حكم على نفسه بالموت بسقوطه فى الخطيئة. **والسيرافيم** من نفس الطغمة لكنهم حول العرش يطيرون ويسبحون، ويقول الواحد منهم قبالة الآخر «قدوس قدوس قدوس رب الجنود مجده ملء السموات والأرض»، ملائكته كل عملهم أنهم يطيرون حول العرش بستة أجنحة، بإثنين يغطون وجوههم من بهاء الجالس على العرش، مع أنهم من نور ومن نار، لكن العرش أعظم من أن ـ يستطيعوا على الرغم من طبيعتهم العظيمة ـ أن يتطلعوا إليه، لذلك يغطون وجوههم بإثنين، وهذا هو السبب لماذا فى مقدمة القداس، عندما نذكر سيرة الملائكة أمام العرش، الكاهن يحمل لفافة فى وضع المثلث ويضعها أمام عينيه، كوسيلة إيضاح يمثل الملائكة السيرافيم الذين أيضاً يغطون ويسترون وجوههم أمام العرش الإلهى، على الرغم من أنهم من نور ومن نار، وبإثنين يسترون أرجلهم ويطيرون بإثنين، وينادى الواحد قبالة الآخر، سيمفونية، ترتيلة، أنشودة دائمة خالدة « قدوس قدوس قدوس، رب الجنود مجده ملء السموات والأرض» وسواء الكاروبيم والسيرافيم هؤلاء وأولئك أعلى رتب الملائكة ما هى خدمتهم؟ خدمتهم أنهم واقفون أمام الله فى حضرته، منذ يوم الخليقة واقفون على خدمته لا يجلسون ولا يستريحون بطريقة متواصلة واقفون فى حضرته يصلون، يقفون على خدمته، يعملون بكلمته، لا عمل لهم إلا أنهم واقفون أمام الله، يسبحونه ويرتلون لاسمه ويباركونه ويشكرونه ويحمدونهم ويصلون إليه عن نفوسهم وعن كل الخليقة أيضاً.

هذه خدمة الرهبان، القديس الأنبا أنطونيوس أبو الرهبان، عاش حياة فيها هذا النوع من الإنقطاع للخدمة، خدمة الملائكة لا خدمة البشر، الوقوف أمام الله طوال الوقت وقوفاً مستمراً، سجوداً مستمراً، خشوعاً مستمراً، لا يوما ولا أيام ولا شهراً ولا شهور ولا سنة ولا سنوات، طوال حياته عاش الأنبا أنطونيوس واقفاً أمام الله مصلياً، ليست هذه خدمة قليلة، قد ينظر البعض لها باحتقار ويقول إيه يعنى، وفيه واحد مؤرخ بروتستانتى اسمه موسهايم(Moshaime) يقول عن الأنبا أنطونيوس «عاش عيشة لا تليق إلا بالحيوان» الأنبا أنطونيوس عاش عيشة الحيوانات!! وذلك لأن مفهوم الخدمة عند حضرته لابد أن تكون الخدمة كلام والخدمة وعظ والخدمة تعليم، لكن غاب عن ذهنه أن هناك خدمة أخرى أرقى، خدمة مريم التى اختارت النصيب الصالح،

التى جلست عند قدمى يسوع المسيح لتسمع كلامه، فطوبها أكثر مما طوب مرثا، وقال لها يا مرثا تضطربين لأمور كثيرة، الحاجة إلى واحد، فاختارت مريم النصيب الصالح الذى لن ينزع منها إلى الأبد.

هذه خدمة الأنبا أنطونيوس والخدمة التى رسم بها طريق الرهبنة، الرهبنة بمفهومها القبطى الأصيل، الرهبنة بمفهومها الروحانى الأصيل الصحيح الحقيقى أنها خدمة الملائكة، صحيح أن الأنبا أنطونيوس نزل فى شيخوخته مرتين إلى العالم لمهمة سريعة اقتضاها الموقف الصعب، نزل مرة فى أيام الإضطهاد، ليثبت المؤمنين الذين يقتلون من أجل المسيح، ولكنه عاد سريعاً، ومرة أخرى فى أيام المتاعب التى لحقت بالقديس أثناسيوس الرسولى من أريوس والأريوسيين، وكان الأنبا أثناسيوس الرأس الوحيد الواقف يدافع عن الإيمان ضد جحافل الظلمة، ضد السلطة المدنية وضد كثيرين من الشعوب، ضد اليهود والوثنيين والذين انحازوا إلى أريوس فى بدعته التى قاوم بها لاهوت المسيح، اضطر الأنبا أنطونيوس فى وقت كان أثناسيوس الرسولى منفياً، اضطر أن ينزل ليثبت المؤمنين على الإيمان الأرثوذكسى بلاهوت المسيح، وبعد ذلك كان يعود مباشرة لمواصلة خدمة الملائكة، ولذلك كان الأنبا أنطونيوس يقول: إن الراهب مثله مثل السمكة التى حياتها فى الماء وبالماء، فإذا خرجت من الماء ماتت، وحياة الراهب هو فى شخوصه الدائم أمام الحضرة الإلهية، فى مواصلة الصلاة التى بلا انقطاع.

أيها الأخوة والأبناء قصدت من هذا أن تتأملوا فى هذا المعنى، أن لا تحتقروا الصلاة ولا تظنوا أن الخدمة فقط بالطريقة البروتستانتية هى خدمة الوعظ والإرشاد، وإن كان هذا لازماً للكنيسة، لكن لا تحتقروا خدمة الصلاة، فإنها أيضاً خدمة الملائكة، خدمة العبادة، هذا نوع آخر من الخدمة لا تحتقروه، ونحن الذين فى العالم سواء منا الخدام أو المخدومين فى حاجة على الأقل إلى نصيب من خدمة الملائكة، إذا لم يكن فى مقدورك كإنسان أن تحيا حياة الراهب وأن تخدم الله خدمة الملائكة، فلا أقل من أن تحتاج من وقت إلى آخر أن تعطى جزء من وقتك للعبادة وتعطيه للخدمة، خدمة الملائكة، بل فى كل يوم أيضاً تحتاج إلى جزء من هذا اليوم تخدم فيه الله خدمة الملائكة، حينما تستيقظ مبكراً أول ما تستطيع أن تعمله فى الخدمة أن تقف أمام الله وقفة الملائكة تصلى، تعبده، ليس فقط لكى تأخذ قوة، ولكن لكى تؤدى أمام الله واجب العبادة، كعبد أمام سيده، كخادم أمام ربه، كمخلوق أمام خالقه، عليك واجب العبادة، واجب الشكر، واجب أن ترفع عقلك وأن تقف أمامه وتباركه وتشكره وتحمده، وتبرهن على أنك خادم لسيدك وعلى أنك عبد أمام ربك، وعلى أنك مخلوق أمام خالقه يؤدى أول ما يؤدى واجب العبادة والشكر.

ثانياً : فضيلة الكفاح والثبات الدائم:

ممكن أن نلتفت فى الأنبا أنطونيوس إلى فضيلة أخرى.

الأنبا أنطونيوس عندما نقرأ سيرته نقرأ سيرة رجل مكافح ومناضل فى الحياة الروحية، نقرأ سيرة محارب، حارب حروباً كثيرة. هذه قد تغيب عن أذهان السطحيين من الناس، الذين يأخذون الدين مأخذاً سطحياً خارجياً، لا يعرفون أن هناك حروب من العالم غير المنظور، الأنبا أنطونيوس كشفت عن عينيه حروب الشياطين وحيلهم بصورة تغيب عن أذهاننا نحن، ففى مرة «يقول أبصرت فخاخ الشيطان منصوبة على كل الأرض» أبصرها رآها بكشف روحانى، برؤيا باطنية، أبصرت فخاخ الشيطان منصوبة على كل الأرض، «فتنهدت وقلت من يفلت من هذه يا رب، لأن الفخاخ محكمة، من يفلت منها، فجائنى صوت من السماء يقول المتواضعون يفلتون منها» فى كفاحه الباطنى رأى حروباً ودخل فى معركة حقيقية مع الشيطان وكل قواته الشريرة، يوجد أشخاص يقولون أين الشيطان؟ وعنده حق لأن الشيطان لا يستخدم معه الحيل الخفية إنما أشياء بسيطة ممكن أن لايدرى بها، لأنه غير واقع فى حالة حرب معه، أو لأنه من أولاده تحت سلطانه فلايحاربه إلا أذا رأى منه علامة تمرد، يبتدئ يرفع بعض أسلحته ضده إذا رآه قد تمرد، لكن فيما عدا ذلك مادام هو يسير تحت سياسة الشيطان أبيه مثل ما قال المسيح حينما كان يكلم اليهود أبوكم هو أبليس، لو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم، لكن أبوكم هو إبليس.

فهناك أشخاص لا يحسون بحرب الشيطان، لأن الشيطان فى هدنة معهم، هم يعيشون تحت لوائه فلا يرفع ضدهم سلاح، ولذلك أغلبهم فى بعض الأحيان يقولون أين الشيطان؟ هناك ناس تنكر وجود الشيطان، لكن الأنبا أنطونيوس دخل فى معركة حقيقية مع الشيطان وكان الشيطان يحاربه مواجهة وبأساليب واضحة، ولذلك فإنه من غير المستحب للمبتدئين من الناس أن يقرأوا سيرة الأنبا أنطونيوس، لئلا يتولاهم الرعب والخوف لأن هذا مستوى عالى، فالصغار ليس من مصلحتهم أنهم يقرأوا سيرة الأنبا أنطونيوس فى كفاحه مع الشياطين، لذلك نحن نتكلم عن الموضوع بدون تفاصيل لأن التفاصيل نفسها مرعبة.

المهم الخلاصة أن الأنبا أنطونيوس دخل فى حرب حقيقية مع الشيطان، ومع كل قوات الشيطان بأساليب واضحة علانية جهارية، ليس فقط بحيل، وفخاخ، وإنما بالمواجهة، وهذا يريكم أن الأنبا أنطونيوس وصل إلى مقام روحى عالى، حتى أنه كان فى مكان القيادة، ولذلك كان يدخل مع الشيطان قائد أمام قائد، لذلك الشيطان عندما كان يحاربه، كان لا يحاربه الحروب العادية البسيطة، إنما كان يحاربه حروب القادة، حروب القيادة التى ليس لأحد فى المستوى العادى أن يدركها أو يضعها فى ذهنه.

ولكى تأخذ فى ذهنك نوع الحروب الشيطانية، نحن قرأنا اليوم من سفر دانيال والإصحاح العاشر، جزء صغير يرينا شيئاً من العالم غير المنظور والحروب التى تجرى وراء المنظور، والتى قال عنها بولس الرسول إن حربنا ليست مع دم ولحم بل مع أجناد الشر الروحية فى السماويات، الكلام الذى قرأناه اليوم من الإصحاح العاشر من سفر دانيال يقول إن دانيال وهو عملاق من عمالقة الروح، هذا الرجل القديس العظيم بين الأنبياء الذى أخذ من الله لقب «دانيال أيها الرجل المحبوب» لا يوجد فى كل أسفار العهد القديم أحد نال من الله هذا اللقب، ثلاث مرات يأتى الملاك من السماء يقول له: «دانيال أيها الرجل المحبوب» هذا الرجل الذى شهد الله عنه هذه الشهادة، يقول أنا دانيال كنت نائحاً ثلاثة أسابيع أيام أصلى لم آكل شيئاً، لم آكل لحماً ولا شربت خمراً، ظل صائماً ثلاثة أسابيع أيام يصلى، فى اليوم الواحد والعشرين جاء له الملاك جبرائيل قال له «دانيال أيها الرجل المحبوب» منذ اليوم الأول الذى فيه أذللت نفسك سمعت صلاتك وأنا أتيت لأجل صلاتك، من اليوم الأول بينما جاء الملاك فى اليوم الواحد والعشرين. أين كان الملاك هذه المدة الواحد وعشرين يوماً؟ يقول الملاك رئيس مملكة فارس قاومنى واحداً وعشرين يوماً، إلى أن جاء ميخائيل الرئيس، تصوروا قدرة الشيطان المعين رئيساً لمملكة فارس من قبل إبليس، له قدرة أن يعطل رئيس الملائكة جبرائيل، يعطله فى السماء لكى لا ينزل إلى دانيال، حتى دانيال يكف عن الصلاة ويتعب ويمل، ولكن إصرار دانيال على مواصلة الصلاة واللجاجة والإلحاح هز السماء، فنزل ميخائيل رئيس الملائكة وأعان جبرائيل ضد الشيطان المعين رئيساً لمملكة فارس، وبهذا استطاع جبرائيل أن يأتى إلى دانيال ويبشره بإستجابة صلاته.

هذه صورة توضح فكرة عن الحروب الخفية وجبروت الشيطان وكل قواته خصوصاً فى مملكة الأرض، لأنه رئيس هذا العالم كما قال المسيح، يوقف جبرائيل، وقف مقابلى، قاومنى ٢١ يوماً، هذا ليس إبليس، ولكنه رئيس مملكة فارس المعين من قبل إبليس، يعنى شيطان أقل درجة من إبليس، لذلك الذى ذهب يحارب المسيح له المجد على جبل التجلى كان إبليس نفسه، إنما الشيطان منظم تحت منه قوات بدرجات تنازلية مثل ما نقول فى الجيش، فيه فريق، فيه لواء، فيه عميد، فيه عقيد، فيه مقدم، إلى آخر هذه الدرجات إلى عسكرى. الشيطان رئيس طغمة، وهذه الطغمة ملايين الملايين، ولكن درجات ودرجات ودرجات، وكما أنه متفرغ ولا يوجد عنده عمل آخر لا يأكل ولا يشرب ولا يوجد لديه مشغولية أخرى، ولا ينام، كل عمله المقاوم ضد الله، العنيد لأن إبليس معناها (ديافلوس) العنيد والمقاوم، سماه القديس بولس «إله هذا الدهر» مثل ما قال سيدنا له المجد رئيس هذا العالم، هذا الإبليس منظم وتحت منه قوات مختلفة، عندما يكون واحد بسيط يرسل له شيطان صغير. «عندما يترقى هذا الإنسان فى الحياة الروحية يقيل

هذا الشيطان ويعين له درجة أعلى، فإذا لم يستطع هذا أن ينزل هذا القديس ويسقطه، لأنه يواصل الحياة الروحية إلى الأمام، فالشيطان يقيل هذا المعين له ويعين له آخر أقوى منه وهكذا، لذلك كل ما تقدم الإنسان فى الحياة الروحية يعين له شيطان أقوى، حتى أنه مرة يقولوا «... مثل شيطان الأنبا بولا» لماذا شيطان الأنبا بولا!! لازم يكون شيطان الأنبا بولا شيطان كبير جداً.

فشياطين القديسين أقوياء، كبار لماذا؟ لأن القديسين فى درجة مرتفعة. حالياً لما يكون مثلاً أمريكا تريد أن تؤدب بلد صغيرة مثل قطر أو دبى، هذه الفتافيت الصغيرة، افتكر إذا كان أمريكا أو روسيا باعتبارهما دول كبيرة، لا تحتاج أنها تخرج المخزون من الأسلحة العظيمة!! أبداً ، لكن عندما تدخل أمريكا وروسيا فى صراع كبير مع بعض، فى هذه الحالة هنا تطلع الأسلحة العظيمة النووية الهيدروجينية والصواريخ عابرة القارات وما إلى ذلك، لكن لا أتصور أنه لما تدخل هذه الدولة الكبيرة فى صراع مع دولة صغيرة لا تحتاج إلى هذه الأسلحة الضخمة.

هكذا حروبنا نحن مع الشياطين، الناس الصغار إما وقع بطبيعة الحال فلا يحتاج إلى حرب، ولكن إذا تمرد يوماً من الأيام على الشيطان، فلكى يخضعه يرسل له غفير أو يرسل له عسكرى صغير، لكن عندما يكبر فى الفضيلة يعين له شيطان أكبر منه.

لذلك نقول أن الأنبا أنطونيوس دخل فى حروب مع الشيطان حروب حقيقية، واضحة ظاهرة علانية بأسلحة كان يراها، وكان الشيطان يظهر أمامه ظهوراً علانية، لا نقول هذا الكلام لكى تتضايقوا أو تخافوا، ولكن هذا حقيقة لابد أن تكشف أمام المؤمنين، أن هناك حروباً روحية وأن هذه الحروب أكثرها خفى يدخل فى دائرة العالم غير المنظور، ولكن الإنسان الروحانى هل يرجع إلى الوراء، هل يتراجع، هل يخاف، هل يستسلم من كثرة الخوف؟ لكن طراز الأنبا أنطونيوس لم يكن طراز الخائفين المرتعبين لأنه يؤمن، «أنا عالم بمن آمنت وموقن أنه قادر أن يحفظ وديعتى إلى ذلك اليوم» لا يخاف، لا يستسلم، يرفع السلاح محارباً واستطاع الأنبا أنطونيوس بنعمة الله وبالصبر وبالمجاهدات، بالمجاهدات الروحية المتواصلة وبالثبات، بالثبات لا بالتراجع ولا بالاستسلام، بالثبات، بفضيلة الثبات فى الله استطاع أن يواجه وأن ينتصر أخيراً، ويعلم الآخرين طريق الانتصار على الشيطان.

من هنا كان الأنبا أنطونيوس عملاقاً فى روحانيته، ليس هو من المستوى السطحى، ولذلك نحن فى حاجة إلى خبرات مثل هذا الرجل، قد لا يحتاجها البسطاء من الناس، قد لا يحتاجها السطحيون، قد لا يحتاجها الذين حروبهم صغيرة، لكن يحتاجها الذين لهم حروب أعمق وأعظم، هؤلاء يحتاجون أن يتتلمذوا على القديس الأنبا أنطونيوس، لأنه خاض معارك ومعارك حقيقية وروحانية من طراز عظيم.

وهنا الفرق بين الناس العاديين والناس الذين من طراز الأنبا أنطونيوس، الإنسان العادى يقول أنا غير محتاج لهذا كله، لماذا هذا كله؟ طبعاً هذا طراز الإنسان العادى الذى لا يريد أن يكافح، لا يوجد أمامه أشياء عالية يسعى إليها، الهدف الخاص به صغير مجرد أنه يريد أن ينجح، يريد فقط الشهادة الإبتدائية، لا يريد أن يترقى أكثر من ذلك، ، طموحه ضيق، لا يطمح فى درجات عالية، لكن الأنبا أنطونيوس كان ذلك الطراز من العباد الذى يطمع فى مستوى عالى وراقى جداً، ولذلك وصل إلى خبرات روحية عظيمة يتتلمذ الكبار عليها ليتعلموا منه.

وهنا بعض الناس يقول ما الذى نستفيده من الرهبنة لماذا كل هذا؟ ما الذى أفادوه هؤلاء الرهبان؟ الفوائد التى استفدناها من الرهبان من طراز الأنبا أنطونيوس والأنبا بولا والأنبا بيشوى والأنبا شنودة رئيس المتوحدين وأبو مقار والأنبا باخوم لباس الإسكيم الكبار، فوائد جزيلة كونت تراث، تراث روحانى نصرف منه قدر ما نصرف، يكفى حاجات الكنيسة وحاجات العباد وحاجات المحاربين لأنهم وجدوا من بينهم بشراً من هذا الطراز، الذى حارب تلك الحروب الكبيرة واستطاع أن ينتصر، ولذلك الذى يريد أن يعرف، يتتلمذ على الأنبا أنطونيوس والأنبا بولا وأمثال هؤلاء العظماء.

هؤلاء الذين دفنوا أنفسهم كما يظن بعض السطحيين من الناس، دفنوا أنفسهم صحيح من الخارج، لكنهم غرقوا فى أعماق الحياة الروحية، دفنوا أنفسهم لكن دفنوا أنفسهم فى عمق المعرفة الروحية، وبذلك استطاعوا أن يغترفوا، دخلوا إلى الأعماق فاستطاعوا أن يحصلوا على ما لا يمكن من الناس السطحيين أن يحصلوا عليه، هؤلاء الذين يقنعون بالصدوف، يجمع الصدف والزلط الذى من الخارج أما الأعماق والكنوز، الذهب المصهور من الداخل، الذهب تحت الأرض، يحتاج الإنسان أن يدخل إلى تحت ويدفن نفسه، هذا هو الدفن، إن حبة الحنطة تظل وحدها حتى تدفن فإذا دفنت وماتت تأتى بثمر كثير. وقد أتى الأنبا أنطونيوس بثمر كثير، لا لنفسه فقط وإنما للكنيسة كلها، لشعب الله، لكل محارب فى الحياة الروحية ولكل مناضل.

فضيلة الأنبا أنطونيوس كانت فضيلة الثبات، عدم التزعزع وعدم الإستكانة، المواصلة، المجاهدة، الكفاح الدائم، الحروب بغير توقف.

ومن هنا نتعلم من أبينا، هذا أبونا ونحن أبنائه، نتعلم منه كيف يكون الثبات، أن لا نستكين للخطيئة، أجد شاب يقول غير قادر، غير قادر!! عيب عليك، غير قادر تبطل سيجارة، غير قادر تبطل كأس من الخمر، غير قادر تبطل العادة السرية، يقول غير قادر، ماذا تطلب من الكاهن كيف يساعدك؟ أنت لابد أن تكافح، لابد أنت الذى تجاهد، لا تقول غير قادر، لماذا لا تقدر، من يقدر أن يساعدك؟ إذا كنت أنت تقول عن نفسك غير قادر. والمسيح يقول «كل شئ مستطاع

لدى المؤمن» إن كنت تؤمن فكل شئ مستطاع لدى المؤمن. والرسول بولس يقول «أستطيع كل شئ فى المسيح الذى يقوينى». كلمة غير قادر كلمة عيب، عيب إنسان يسير فى طريق السماء يقول غير قادر، هذا معناه أنك أنت محتاج إلى الصوم، إلى تقوية الإرادة إلى العزم الصادق، إلى الإصرار، إلى المكافحة، إلى الثبات، إلى مواصلة الجهاد، إنما تقول غير قادر!! ستخسر المعركة، لا أحد يستطيع أن يساعدك، ممكن يساعدك بالصلاة، حتى الله لا يقدر أن يساعدك، «لأن الله الذى خلقك بدونك لا يقدر أن يخلصك بدونك». كما قال القديس أوغسطينوس، لابد من دورك أنت فى الكفاح والنضال، خذ الأنبا أنطونيوس مثالاً فى الرجل الجبار الذى لا يقول أنا لا أستطيع، لأ.. أستطيع كل شئ... يحارب ولا يرخى السلاح من يده، يواصل الحرب إلى أن ينتصر فى معركة بعد معركة، إلى أن ينتصر النصر النهائى، وحينئذ يكلل لماذا؟ لأنه تعب، لكن تقول غير قادر، تريد أن يعطيك أحد القوة، لا يكون لك أجر، إنما متى يكون لك الأجر إذا كافحت، إذا تعبت الكتاب يقول «كل يأخذ أجرته حسب تعبه»، إذا تعبت كثيراً تأخذ أجر، لكن لا تتعب وتذهب للكاهن، أو لأب الاعتراف وتقول له غير قادر، كلمة لا أقدر إلى أين تصل بك، لابد أن تقدر، لابد أن تكافح، لابد أن تواصل الجهاد لابد أن تهزم الشيطان، لابد أن تثبت ولا تستسلم.

نعمة ربنا يسوع المسيح تبارككم جميعاً وله الإكرام والمجد إلى الأبد أمين.

تكريم القديس أنطونيوس (١)

منذ نيف وخمسمائة عام، وحياة أنطونيوس قديس الصحراء، تلهم خيال جميع الفنانين الكتاب. فنحن نجد أثره واضحاً فى المدرسة البيزنطية عند ألمع المصورين مثل فيلاسكويز Vèlasquez وأشهر الرسامين مثل بول سيزام Paul Cèzame . كما نجد أثره عند أخصب الكتاب خيالاً مثل فلوبير Flaubert وعند أبرع المؤلفين من ذوى الأسلوب الممتاز من أمثال أناتول فرانس Anatole France . وفى كل مكان فى عالم الفن، فى النقش، أو فى النحت، يظهر القديس أنطونيوس بقامته النحيلة ولحيته الكبيرة وشعره الطويل، وسترته التى من جلد الماعز. عائشاً بين رمال ذهبية تظللها الأبخرة البنفسجية، تحت سماء ملونة بلون اللآلئ الرمادية أمام مغارة فى داخلها صليب كبير من الخشب، وفى خارجها نخلة قديمة إلتوى عودها بفعل رياح الصحراء فانحنت على لجة من الماء.

وخير من كتب حياة قديسنا هو بلا ريب القديس أثناسيوس أسقف الأسكندرية الغيور، الذى عرف أنطونيوس معرفة شخصية. ففى كتابه «حياة القديس أنطونيوس» ترك لنا وصفاً أصيلاً لشخصية هذا الناسك الكبير، وعلى الخصوص لحياته الغريبة الأطوار، التى امتدت إلى أكثر من مائة عام، وهذه الحياة لا تؤلف فقط أول رواية عن حياة قديس، ولكنها أيضاً أول ترجمة لحياة لم تكتف بسرد مبسط للوقائع، وإنما ألقت ضوءاً شاملاً يظهر الطوايا الخفية فى نفس بطل روايته.

وحتى نكون عادلين وغير متحيزين، يجب أن نعترف ونقرر بأن المؤلف لم يكن متأثراً بطائفة دينية خاصة، لأن القديس أثناسيوس يحدثنا بنفس اليقين والإيمان عن قصص القديس ومعجزاته ورؤاه المقدسة، كما يحدثنا عن أسماء الأماكن والأشخاص الذين عاشوا فى ذلك العصر، وقد وجد خيال الكاتب فلوبير الخصيب فى هذا المؤلف الصغير، مادة للإفاضة فى كتابه عن الحروب الروحية التى عاناها القديس أنطونيوس، حيث يعيد إلى أذهاننا المأساة الأبدية وهى مأساة أساسية فى كل نفس بشرية، مأساة الصراع بين الشهوات الجسدية والزهد الروحانى.

وفى هذا العام، فى ١٧ يناير ١٩٥٦، يكون قد مر ١٦٠٠ عاماً منذ أن لفظ القديس أنطونيوس، ناسك الإسقيط أنفاسه الأخيرة.

مات أنطونيوس عندما بلغ الخامسة بعد المائة. وكان لا يزال محتفظاً بكامل حيويته، ولم ينذر بموته مرض أو إعتلال فى صحته. ففى ذات يوم كان أنطونيوس يعمل فى حقله، والمنجل مازال فى يده وهو متأهب لجمع الحصاد. سمع صوتاً يقول له، أنطونيوس «هذه الغلة هى آخر ما

(١) تلخيص لمقال Le Culte de St, Antoine نقله عن الفرنسية الدكتور وهيب عطا الله (نيافة الأنبا غريغوريوس) ونشر بمجلة معهد الدراسات القبطية ١٩٥٨م.

ستخزنه، ففهم أنطونيوس أن الله قد دعاه وأن الموت لن يلبث أن يخترمه، كالسحب المتلاحقة فوق الصحراء شبيهة بلباب ذؤابة عظيمة اقتلعها نسيم المساء.

هذه الحياة ، حياة الزهد والتضحية، الحياة العجيبة اللامعة، التى انقضى ثلثاها فى الوحدة المطلقة، كانت قد أدركت نهايتها.

ومن الواضح أنه بالنسبة لأهل زماننا، الذين يحيون فى عصر من السرعة الجنونية التفاهة المزعجة، ويعتقدون أن العمل ضرورى لبناء مملكة المسيح يسوع، لا يكادون يفهمون أنه يمكن لإنسان أن يعيش فترة طويلة من الزمن كهذه، فى عزلة تامة، بعيداً عن العالم المضطرب. أما الذين يعرفون الروح القبطية، ويعرفون أنها روح تأملية من أعلى طراز، فيسهل عليهم أن يدركوا أن مائة سنة من حياة هذا المتوحد أو من حياة أبطال الصحراء، مائة سنة يحيونها فى الله ليست إلا يوماً واحداً، (نعم ليست إلا) يوماً واحداً من الأبدية.

ويمكن تقريب هذا المدرك، إلى أحدث مدرك علمى لظاهرة الزمان. فإبتداء من بيرجسون Bergson لم يعد مستساغاً أن يقاس الزمن بالمقياس الرياضى الدقيق، إذ أنه أصبح مبدأ باطنياً وسيكولوجياً. فهو والحالة هذه لا يعتمد فى تطوره على الساعات أو على التقاويم، بل أنه يبلغ استدامته تبعاً لحدة الحياة الإنسانية الباطنية.

ولما شعر أنطونيوس بدنو الساعة التى كانت ستفترق فيها نفسه من جسده، أرسل مكاريوس وأماناس. تلميذيه المختارين، إلى أولاده المحبوبين، ليقولا لهم أن يعجلوا بالحضور إذا كانوا يرغبون فى أن يروه للمرة الأخيرة. فحضر إليه عدد كبير تجاوز ما كان يتوقعه، إذ قد لبى دعوته جميع سكان الصحراء، فخرج إليه الزهاد من بين صخورهم البرونزية وقد علاها مسحوق ذهبى غاية فى الدقة حتى لقد اختلط بإهتزازات الضوء، واستقل نساك النيل مراكبهم الثقيلة المغطاة بالمظلات فعبروا النهر الملئ بالبردى، كذلك سارع إليه المتوحدون فى صحراء نيتريا، والمتوحدون فى صحراء الإسقيط الذين كانوا يعيشون فى عزلة تامة لم تطأها قدم، ويسترشدون فى الليل بضوء النجوم، هرع نحوه الجميع صغاراً وكباراً، جاءوا ليحيوا هذا البطل الجليل، وينالون بركته المقدسة.

ولقد رقد أنطونيوس فى اليوم السابع عشر من يناير سنة ٣٥٦ لميلاد المسيح وكان متمدداً على الأرض عارياً، وشعره الأبيض يغطى ساقيه النحيلتين وكأنهما عكازتان وكان لمعان أسنانه العاجية اللون متبايناً مع سمرة جلده الأدكن الذى بدأت يد الهلاك تمتد إليه. أما محجرا عينيه فامتلآ ظلاماً ـ ولكن هناك فى العمق، فى عمق أعماق محجرى عينيه، سطعت الشعلتان اللتان تضيئان كأنهما مصباحا القبر يهتزان إلى الأبد. ومات أنطونيوس الناسك، أبو أقباط اليوم.

وفى الربيع التالى حين اخضرت الأرض من جديد حول مغارته، ونما القمح واكتمل نموه، لم يعرف أحد أين مقره، إلا أن إكرامه لم يلبث أن انتشر، وذاع فى الشرق كأنه شعلة نار سرت فى الهشيم فى ليالى الصيف.

ومنذ القرن الخامس أخذ إكرام القديس أنطونيوس فى الشرق ينتشر، وقد أدخله القديس بامبو فى فلسطين، والقديس بامبو هو أحد مشاهير المتوحدين فى صحراء نيتريا، نفى إلى قيصرية فلسطين بأمر الأمبراطور الأريوسى فالنس، ثم انتشرْ إكرام أنطونيوس فى جميع صوامع الرهبان. وكان القديس بوثيموس يستقبل الكثيرين من رهبان مصر المنفيين مع القديس بامبو Pambon وقد أوصى تلاميذه قبل موته أن يحتفلوا فى كنيسته إحتفالاً مهيباً بعيد القديس أنطونيوس.

وبعد مائة سنة من موت هذا البطريرك، شاع الإحتفال بذكراه لا فى مصر وحدها، بل أيضاً فى فلسطين وفى الشرق الأوسط، وفى بلاد العرب حيث يتضمن كتاب سير الشهداء لإيرونيموس. وكتاب سير لشهداء البرية سيرته ويذكران أن عيده يقع فى ١٧ يناير.

فماذا أصاب رفات القديس أنطونيوس بعد موته ؟ لقد ظلت رفاته مختفية حتى سنة ٥٣٢م، وفى هذا التاريخ نقلها يوستنيان من الصحراء إلى كنيسة القديس يوحنا المعمدان فى الأسكندرية، التى بنيت مكان السرابيوم. هذا المبنى الذى عده أميان مارسيلان منقطع النظير فى العالم.

وبقى جثمان القديس أنطونيوس ١٧٢ سنة فى هذه المدينة التى شبهها هيروديان فى عظمتها وفخامتها «برومية القياصرة».

وفى عام ٦٠٤ فى أيام حكم الأمبراطور يوستنيان الثانى عندما أصبح العرب سادة مصر نقل جثمان القديس أنطونيوس إلى القسطنطينية. هناك أوفى جاسلان سيد شاتونيف دالبْنك نذر والده جويوم لوكورنو، ثم مضى يبحث عن جثمان الناسك العظيم، وفاز بالحصول عليه من الأمبراطور ديوجينوس أو من اليكسس كومين مقابل الخدمات التى قدمها له بمساعدته إياه ضد العرب الذين هددوا العاصمة.

ويروى التاريخ أن جاسلان فى عودته إلى فرنسا، وقف عند كاجليارى Cagliari فى سردينيا، وترك رأس القديس أنطونيوس فى هذه المدينة ثم أودع هذا الرأس فيما بعد فى كنيسة المستشفى القديم المنسوب إلى القديس أنطونيوس فى كاجليارى. وفى سنة ١٩٤٣ ضربت الكنيسة بالقنابل فتدمرت تدميراً تاماً، ولكن عثر على الرأس سليماً فى وسط الخرائب.

ومع ذلك، فإنصافاً للحقيقة، ينبغى أن أقول أننى لم أجد أى برهان أو أية وثيقة دامغة تؤكد هذه القصة، أنها تقليد لا شك مقبول ولكنه لا يستند إلى أى دليل تاريخى.

فلما وصل جاسلان إلى فرنسا أودع الكنز الثمين فى كنيسة دى لاموت سانت ديدييه، وبدأ فى سنة ١٠٨٠ يضع أساسات كنيسة كبيرة خصصت لتأوى العظام المقدسة، ثم خلفه قريبه جويجى ديديية، وورث ممتلكاته فأكمل المشروع فى هذه البلاد، حيث الضباب يخيم فى صبيحات الربيع على الوديان المتعرجة وكأنه وشاح أبيض.

ولقد حدثنا لاجييه Lagier فى كتابه «زيارة إلى كنيسة القديس أنطونيوس» من هذه الواقعة عندما مر بدوفينيه فى طريقه إلى مجمع كلير مونت Clermont بدعوة من البابا أوربان الثامن، أن البابا تنازل فى احتفال كبير عن قطعة الأرض اللازمة لهذا المشروع التقوى، ودعا جماعة من رهبان بنيديكت فى مونتماجور بالقرب من أرل، ليؤسسوا فيها ديراً وليرعوا الوديعة المقدسة، وليشرفوا على بناء الكنيسة، وأصدر البابا براءة باباوية معلناً موافقته على الإلتماسات بشأن العمل الذى ساهم فيه سريعاً أهل الدوفينيه ومعهم الأمراء وشعوب العالم بأسره.

وفى نفس الوقت، شرعت النار المقدسة، أو نار القديس أنطونيوس فى تدميرها لفرنسا من جديد. وسارع كل مصاب من كل جهة إلى طلب الشفاء بالقرب من رفات القديس أنطونيوس. وكان عدد هذا الجمهور من البؤساء كبيراً. والمعروف أن نبيلاً شريفاً من دوفينيه اسمه جاستون يشاع إنتسابه إلى أنيرون وابنه جيرين وضعا نفسهما فى خدمتهم ثم إنضم إليهما سبعة رجال كرام آخرون. وهؤلاء وأولئك أسسوا النظام المشهور بإخوان الصدقة أو رهبانية أنطونيوس. وأخذ عددهم يتزايد بسرعة. وأصبح لهم بعد قليل بيوت فى كل أوربا وآسيا. وجمعوا فى مستشفياتهم كل الأشقياء الذين ابتلاهم الوباء من كل مكان. واعتنوا بهم.

وواصل رهبان القديس بنيديكت، فى هذا الوقت بناء الكنيسة التى جاء البابا كاليكست، رئيس أساقفة فيينا سابقاً ليدشنها بنفسه، وقد قدس الأبنية الأولى (عام ١١١٩). وتعرف أيضاً على جثمان القديس أنطونيوس الذى وجده كاملاً فوضعه فى صندوق من خشب السرو مهدى من جويجز رئيس دير شارتريز ديز ايكوج الذى صنعه بنفسه.

ومنذ منتصف القرن الثانى عشر قامت مشكلات بين رهبان القديس بنيديكت بالدير واخوان الصدقة إنتهت بطرد رهبان القديس بنيديكت (عام ١٢٩٢) وإقامة دير لرهبانية أنطونيوس بمعرفة البابا بونيفاس الثامن (١٠ يونيو ١٢٩٧).

وواصل رهبان القديس أنطونيوس جمهورهم فى بناء الكنيسة الكبيرة من غير أن يتوقفوا عن العناية بالبؤساء الذين مستهم النار المقدسة واستمرت أخويتهم حتى سنة ١٧٧٥ وفى تلك السنة ضربهم الوزير ليومينيه ضربة اضطرتهم إلى أن يتحدوا مع فرسان مالطة. على أن فرسان مالطة لم يبقوا بدير القديس أنطونيوس، أو بقوا به زمناً قليلاً ثم تنازلوا عنه لراهبات صغيرات

من أخويتهم. إلا أن الثورة شتتهن واستولت على ممتلكات الدير وعلى المباني، وباعت الممتلكات في عام ١٧٩٣ إلى أفراد متنوعين: وباعت الثانية في عام ١٧٩٧ إلى جوزيف فليري جوبييه المنتدب لدى الهيئة التشريعية والذى تنازل هو نفسه فيما بعد إلى أفراد متنوعين.

على أن إكرام القديس أنطونيوس لم يقتصر على دوفينيه Douphinè حول الكنيسة الكبيرة كنيسة رهبان أنطونيوس. بل امتدت شهرته أيضاً إلى فلاندر Flandre وبيكاردى Picardi وعلى الخصوص في أرتوا Artois.

ومن عام ١٨٧٠ إلى عام ١٩١٤ دهش زوار «سوق ليل» من كوخ القديس أنطونيوس «الذى تضمن مختلف الصور لحياة الناسك القديس، ومحاربات الشيطان له. وبدأ الشيطان في صورة ملكة سبا وقد جاءت إلى القديس مرتدية أفخر زينتها وقد تثقلت يداها بالخواتم. وانتهت بأظافر غاية في الدقة، حتى كأن أطراف أصابعها أشبه ما تكون بالإبر» كما يقول فلوبير.

ويشاهد القديس أنطونيوس في كثير من كنائس شمال فرنسا، واقفاً وعلى كل من جانبيه خنزير يحمل في عنقه جرساً صغيراً «ويرى الكتاب القدامى في هذا صورة للشيطان الذى انتصر القديس عليه انتصارات رائعة، أو تذكار لخنزير صغير مسكين عليل شفاه القديس أنطونيوس. وقد يكون من البساطة بمكان أن نرى في هذه الصورة تذكاراً تاريخياً صرفاً. فإن رهبان أنطونيوس كانوا يربون الخنازير للصرف على مستشفياتهم: وكانت هذه الحيوانات تهيم في شوارع المدينة بحثاً عن طعامهم. وكان لإنتساب هذه الخنازير إلى مستشفى القديس أنطونيوس أثر بعيد هو أن السكان كانوا يحسنون معاملتها. وكانت سرقة أحد هذه الحيوانات تعد إعتداء على شئ مقدس. بل لقد كانت هذه الحيوانات تدخل البيوت ولا يجرؤ أحد على طردها، وكان يقدم لها طعام وافر إكراماً للقديس. غير أن حركة هذه الحيوانات في الشوارع كانت سبباً في كثير من الحوادث فقد سقط مرة جواد فمات راكبه، لأن أحد هذه الخنازير وقع بين أرجل الجواد.

فصدر أمر يمنع تجول هذه الحيوانات، ولكن رأفة بالفقراء استثنى من هذا الأمر خنازير المستشفى. على أنه لضمان هذا الإمتياز تحتم أن تحمل هذه الخنازير أجراسا صغيرة في أعناقها. فكان صوت هذه الأجراس الصغيرة، ينبه في نفس الوقت ربات البيوت إلى أن يضعن على أعتابهن الفضلات التى تسمن بها هذه الحيوانات.ومن هذه العادة نشأة بعض العبارات الشائعة: من إصابة شر غير متوقع، قيل عنه في ايطاليا «ربما سرق خنزير للقديس أنطونيوس» كما يقال عن الدساس الذى يسترق السمع عن أشخاص مختلفين أو عمن يبحث عن أكلات طيبة «إنه يذهب من باب إلى باب كخنزير القديس أنطونيوس».

ولقد بلغ إكرام القديس أنطونيوس فى الغرب حداً بعيداً، إبتدأ من القرن الحادى عشر. فكان الناس يستغيثون به للخلاص لا من النار المقدسة وحدها. بل ومن مختلف الشرور المماثلة لهذه الأمراض المعدية. فكانوا يسألون الشفاء من حمو الجلد وورمه ومن الأمراض الجلدية المختلفة، ومن الجرب والحكة، وفساد الدم، والطاعون، وإرتخاء العروق والدمامل ومن قبيل المماثلة بالنار المقدسة كانوا يستغيثون به أيضاً ضد الحرائق، وضد نار جهنم.

كذلك ذاع بين ملتزمى الأراضى والفلاحين، ورعاة الخنازير أن يضعوا خنازيرهم تحت حمايته، واستغاثوا به ضد جوائح القمّل والأمراض الأخرى التى كانت تفتك بقطعانهم. كما أن صناع القفافيز والجزارين والنساجين استحسنوا أن يضعوا ذواتهم تحت حماية قديس يشفى البهائم والناس معاً من الأمراض الجلدية. والأغلب أنه كان من قبيل سوء الفهم أن اتخذ القصابون وباعة اللحوم والمتجرون بالخنازير شفيعهم قديساً اشتهر بأنه حام للخنازير.

ومما هو أصعب تفسيراً أن يتخذ باعة الحلوى والجنود المسلحون بالبنادق القديمة فى ريمس Remis هم أيضاً القديس أنطونيوس حامياً لهم. أما صانعوا السلال فاعتقدوا أنهم وجدوا فى القديس حامياً وقدوة، فقد كان يجدل السعف والحصير على غرار بولس الناسك وفرض هذا العمل على تلاميذه. أما دقاقو الأجراس فقد رأوا أن الجرس الصغير الذى تكلمنا عنه خول لهم الحق فى أن يتخذوا القديس أنطونيوس شفيعاً، بينما ظن الحفارون أن أنطونيوس حفر القبر لبولس (بولا) الناسك مع أن الضريح قد احتفره أسدان من آساد الصحراء.

ولنلاحظ أيضاً أن القديس أنطونيوس هو الحامى لعدد كبير من جماعات التائبين فى أواسط فرنسا، نظراً لأفعال التوبة التى كان يباشرها مدى سنوات طويلة فى برية الإسقيط.

وهكذا تتيقنون أن الرب قد حقق للقديس الناسك ما كان قد وعده به من أنه سيمجده فى العالم بأسره.

ولم يقتصر هذا التمجيد على الصلوات والتأملات، فى سيرة القديس الناسك الذى عاش فى الصحراء، ولم يكن له ما يقطع حبل تأملاته غير الشمس التى تصعد كل يوم إلى الأفق، وغير سحائب الرمال التى تثور فى الماء وكأنها أستار كبيرة تسدل ظلمة الليل. بل يظهر هذا التمجيد أيضاً عند الرسامين والكتاب.

ولو أننا ابتدأنا بالفن المثالى الذى انتشر مع نشأة المسيحية، ومررنا بالنحت الرومانى، والنقش الغوطى فى جميع مراحله، ثم سايرنا عصر النهضة فى بدئه وفى وسطه وفى نهايته حتى وصلنا إلى النقش الحديث، وما بعد الحديث فلن نجد عصراً أو حركة أو مدرسة إلا ويبدو فيها التأثر بالطابع الأنطونى.

والغالبية العظمى من كبار الفنانين، وعلى الخصوص فى القرن الرابع عشر قد أضفوا على القديس كثيراً جداً من تأويلاتهم الخاصة، فنحتوه في الحجر، وصوروه على النسيج، ونقشوه على النحاس الأصفر، ورسموه على أرضية ذهبية أو صوروه فى مناظر وزخارف أوربية أو فلمنكية. وكانت كل الوسائل سبيلهم، فالفرشاة والإبرة، واللون والخط، والضوء والظل، كل هذه الوسائل ساعدت على إظهار صورته أروع أثراً وأسطع حقيقة. والفنانون جميعاً سواء أكانوا إيطاليين أو أسبانيين أو هولنديين أو فلمنكيين أو فرنسيين أو ألمان أو غيرهم من أساتذة الفن قد بذلوا جهدهم فى أن يخلقوا بخيالهم الغنى صورة لهذا الوجه المجهول، وهذه الشخصية الخفية الخاصة بقديس النسك والتقشف.

ولقد أبدع الأخوان هوبرت Hobert. وجان فان إيك Jan Van Eyck اللذان ينسب إليهما اختراع التصوير بالزيت فى القرن الخامس عشر، إذ قد نشرا من أجل بنيان المؤمنين، كتاباً رائعاً من الصور الملونة بالألوان الزاهية الفاخرة جداً، فى لوحات روافد مذبح غاند الكبير، ويشغل القديس أنطونيوس أحد المصاريع وهو مندمج فى مجموعة من النساك، تفانى وإياهم فى عبارة روحية عميقة للحمل الإلهى.

كذلك رسم لوكاس فان ليدن Lucas Van Leyden الأستاذ الكبير للنهضة الهولندية، صورة للقديس أنطونيوس أثناء مقابلته للقديس بولس الطيبى.

وماذا تقول عن فيكتور البيزى Victor de pise وهو أحد الذين مهدوا الطريق لإنبثاق النهضة فى إيطاليا الشمالية وقد صور القديس أنطونيوس على إحدى لوحاته الشهيرة، وبينتوريكيو أستاذ مدرسة الظلال فى القرن الخامس عشر، وفيرونيز آخر تلامذة تينتورية مؤسس المدرسة البندقية، وريبيرا المتصوف الأيبيرى الإيطالى ومؤسس مدرسة نابولى، وجويدو رينى رسام المدرسة الإيطالية التحيزية الغربية - هؤلاء جميعاً عملوا على أن يصوروا جبار الصحراء بألوان قاتمة أو باهرة.

أما فى أسبانيا فقد جاء مشاهير الرسامين فى القرن السابع عشر بتأويل شخصى للتقليد وهم: زورباران أستاذ الصورة النسكية والتأملات، وفيلا وفيلاسكيز الذى رسم لوحة رائعة يمكن رؤيتها للآن فى مدريد، بين فيها الفضاء الفسيح والقديس أنطونيوس فى زيارته للقديس بولس (بولا)، ثم ألبرت دورر الذى بلغ بالفن الفلنكى ذروة الكمال وقد صور قديس الصحراء المصرية على أنه الرمز الصادق الخالد للزهد وللجهاد الروحى، وقد جعل من مسقط رأسه نورمبرج أرضية للصورة، وحتى لوسيان كراناش الذى رسم الصور الطبيعية الوحيدة المعروفة للوثر، صور هو أيضاً أبا الرهبنة فى حال الصلاة والتأمل.

مع ذلك فإن أبلغ أعمال الفن أثراً وأعظمها قوة، وأشدها واقعية، بحسب التقاليد الأنطونية هى التى تعالج الحروب الروحية التى خاض غمارها القديس أنطونيوس.

ويرجع تاريخ أحد هذه الصور إلى القرن الحادى عشر، حين بلغ النحت الرومانى أعلى درجاته، فى دير فيزيلاى الشهير الواقع فى منطقة أيون بفرنسا، تظهر صورة القديس أنطونيوس على تاج أحد الأعمدة فى الكنيسة، منتصراً على الشيطان: أنه واقف تحيط به شياطين شرسة متحجرة وهو صادق لا يقهر ولا يتزعزع، يعبر وجهه عن الهدوء الظافر، ظفر المتوحد المعتمد على الله، ويلاحظ فى هذا المجهود البدائى، أن مأساة التجارب الروحية تجرى فى حالة جامدة، ليس لأن المادة المستعملة تحتم هذا الجمود فقط، ولكن لتأثر الفنان بالأسلوب السائد فى ذلك العصر.

ولم يتمكن الفن من أن يتحرر من التقليد بالشكليات، التى فرضتها العصور الوسطى إلا فى القرن الخامس عشر، وحينذاك بدا هذا الموضوع فى حرية الحركة والإنفعالات المثيرة.

ولم يتخلص الفنانون من هذه التقاليد البالية فقط ولكن وعيهم تيقظ أيضاً، فأحسوا بالطبيعة ومن ثم نقلوها بما فيها من جمال وإنفعالات ورؤى.

وفى هذا العصر ظهر أستاذ للواقعية، أستاذ تفهم نفسية أنطونيوس وقد عذبتها التجارب الشيطانية، ولم يكن هذا الأستاذ غير جيروم بوش ابن هولاندة (أو فلاندر) حيث يتوفر الطعام والشراب، فيجعل من الصوم والرياضات الروحية عملاً أكثر مشقة. وهكذا قامت المعركة عينها بين الترف والزهد، وبين الخير والشر فمزقت حياة الرسام. فكل من جيروم بوش والقديس أنطونيوس رأى هذا الخير وهذا الشر فى صورة اللحم والدم، وفى شكل الحيوانات، لذلك ظهر الشيطان لجيروم بوش تارة فى صور مخلوقات هائلة مخيفة، وطوراً تحت أشكال مثيرة عجيبة.

ولم يكن النصيب الذى ساهم به بوش فى التقليد الأنطونى مجرد مجهود لفنان كبير من المدرسة الفلنكية يعالج موضوعه، لكنه أيضاً إبداع رجل عاش بقلبه وروحه، وهو يشقى ويصارع التجارب التى خاضها الناسك الكبير نفسه، فينطبق عليه ما قاله بودلير عن نفسه «ليس القديس فقط بل العبقرى أيضا له شيطان يجب عليه أن يقاتله».

ولهذا السبب، فإن هذا الرسام الكبير وقد افتتن برؤيا مألوفة، قد خصص عشرة من أروع صوره للقديس أنطونيوس تحيط به الشياطين بشفاه غليظة، ولها ضحكة تشبه صوت الحيات ذات الرنين.

على أن هذا التصوير الواقعى الذى بدأه جيروم بوش، قد اغتنى وتطور بفضل مواطنه بيتر الصغير أو بريجل جهنم الذى جعل من الحرب الروحية مأساة عامة، تلعب دورها فى نفس الإنسان كما تلعبه فى الحياة الخارجية، وفى الطبيعة وفى العالم بأسره. ولما كان بيتر بروجل قد تعلم فى مدرسة والده، فقد اعتادت عينه منذ الطفولة على رؤية الناس والأشياء على واقعيتها. وزاد بروجل على جميع الواقعيين أنه فطن إلى أن هناك إزدواجاً فى الطبيعة كما فى كل كائن بشرى. لقد رأى العالم فى حسنه وتعدد ألوانه، ولججه الغرارة، كما رأى المتكالبين على الشهوات فى مغالاة متطرفة. والخراب المفجع الذى يكمن لها يوماً، رأى الصدور التى ترتفع، والأظافر

التى تستطيل، والأسنان التى تصر، واللحوم التى تتقرم، والطيور الهائمة التى تنهنه نهنهة الأطفال أو تضحك ضحك السيدات العجائز.

ويلاحظ فى لوحات بروجل أنها لا تأخذ عن الطبيعة زخرفتها فحسب، بل أنها تأخذ دوراً فعالاً فى المآسى التى تجرى فى نفس الناسك المغبوط. وليست الشياطين مجرد أشباح أو زوار من عالم آخر. إنما هى زرع ينبت فى تربة، أنها خليط من الهولانديين والأبالسة، بينما يكتفى دورر بأن يصور الوجه الحزين للقديس أنطونيوس المصرى فى منظر من مناظر نورمبرج، يتناول بروجل التاريخ القديم الذى انبسطت صحائفه فى الصحراء، ويضعه فى إطار هولندى.

على أن بروجل وبوش لم يكونا الوحيدين فى عصرهما اللذين أدخلا الواقعية فى تصويرهما على حروب القديس أنطونيوس الروحية. ففى إيطاليا عالج بارينتينو نفس الموضوع، وكذلك فعل الفنانان العظيمان شواينجاوير وجرونيفالد فى ألمانيا فنقش شواينجاوير حروب القديس أنطونيوس بطابع خاص سر له ميشيل آنجلو إلى حد أنه نقله عنه، ولكن على طريقته الخاصة، فقد أبرز التعارض القائم بين أهل جهنم والإنسان الذى انتصر عليهم بفضل عزيمته فى الزهد. ففى هلوسة هذا الكابوس، حيث رأس ميت يتوجها الورود على جسم إمرأة ناصعة البياض، ومن حولها الشياطين يقفزون ويطيرون وينفخون النار من أنوفهم، ويضربون أجنحتهم بذيل ضارب إلى الخضرة، بينما يشاهد القديس أنطونيوس معانقاً الصليب وهو فى مغارة تضيئها لهب الجحيم.

أما المصور ماتياس جرونيفا الذى اقترب أعظم الاقتراب من فهمنا الحديث للتصوير فقد تخطى معاصريه، واقتحم المشكلة من زاوية قريبة جداً من فكرنا وإحساسنا الحاضر، فهو لم يقنع بتصوير العناصر الخارجية للمأساة. وإنما عبر أيضاً عن العامل الداخلى والعامل السيكولوجى، وقد أعد لوحاته للمذبح الرئيسى فى ايزينهايم نزولاً على رغبة دير على النظام الأنطونى ١٥١٦، وقد كرس فى يوم عيد القديس أنطونيوس أى فى ١٧ يناير، وأن لوحات روافد مذبح جرونفالد تمثل الزهد من وجهتيه الأساسيتين: المجاهدة والظافرة. ولأول مرة يبدو الناسك العظيم وقد اجتاحه الفزع الشديد، ونفذ إلى أعمق أعماق نفسه ونظرات الإستغاثة والعجز وإشارات يده فى وهن اليأس، وبالجملة فإن هيئته تفصح عن الرعب الذى لا يوصف، من هول الحرب الروحية التى يكاد أن يخر فيها صريعاً. أما اللوحة المقابلة فعلى العكس من الأولى إذ أنها تبين بوضوح تام السلام الهادئ، السلام الشاعرى الذى يغمر القديسين أنطونيوس وبولس (بولا)، وهما يرقبان أثناء الصلاة والتأمل رغيف الخبز الذى يجئ به إليهما الغراب ليستعيدوا قوتهما.

إلا أن الصور التى تبلغ بالتجارب الروحية للمغبوط أنطونيوس مبلغ الغرابة والشذوذ، هى بلا منازع صور تنييه وجاك كالوه. فلتنييه صور شيطانية وسط الخرائب والقبور، فى أشكال وحوش حقيقية وحيوانات شرسة، فى حين أن كالوه قد طبع مبتكراته بعبقريته الخاصة، فى نقوشه على النحاس لأطياف وخيالات مفترسة، كتلك التى صورها بروجل.

ولئن كانت فنون التصوير والنقش والنحت، قد نقلت إلينا إكرام القديس أنطونيوس فيمكننا أن نقول أيضاً أن كتب الأدب متأثرة كذلك فى الغالب بسيرة القديس أنطونيوس وحروبه الروحية.

ففى عام ١٨٤٥ بينما كان فلوبير يزور رواق قصر بالبى فى جنوه، وقف مذهولاً أمام صورة لحروب روحية التى صورها بروجل. ولم يكن الإنفعال الذى استحوذ عليه فأوقفه مسمراً فى مكانه ساعات عدة، لم يكن هذا من سحر الإنتاج الفنى الرفيع على نفس إنسانية فحسب، بل كان الفتنة التى استهوت إنساناً وجد نفسه وجهاً لوجه أمام مصيره.

وبعد عودته إلى فرنسا بقليل، اشترى لوحة لكالوه على نسق لوحة بروجل وعلقها فى غرفة عمله فى بلدة كرواسيه حيث ظلت معلقة إلى يوم وفاته. وأمام هذه الصورة المحفورة كتب فلوبير كتابه الشهير عن تجارب القديس أنطونيوس وقد واصل العمل فيه مدى ثمانية عشر شهراً ليلاً ونهاراً بحماس مستميت خول له الحق أن يكتب للويس كوليه فى ٣ يناير ١٨٥٣ يقول «أيها الزمن السعيد زمن القديس أنطونيوس. أين أنت لقد كتبت ما كتبت بكل جوارحى جميعاً».

ثم أوقف عمله ليبدأ «مدام بوفارى» وما كاد يفرغ من روايته العظيمة هذه حتى عاد إلى حروب القديس أنطونيوس يصبها فى قالب مختلف، قالب أحسن. ففى هذا الوقت قام برحلة إلى مصر، لأنه أراد أن يزور الأماكن التى كان الناسك العظيم يصارع فيه المجرب. وبعد رحلته إلى القسطنطينية كتب رواية جديدة لمأساته التاريخية. ولكنه لم يقنع بهذا فدرس المئات من المصادر ثم أبرز فى آخر كتاب له عن القديس أنطونيوس الأزمة الفكرية والخلقية التى أقلقت النفس الإنسانية فى أواخر أيام الوثنية. إنها دراما عميقة جداً رحيبة للغاية فى آن واحد، لأنه من وراء الأساليب الخطابية المجردة وأزيز الخطايا الكبرى تتمثل الإنسانية بأسرها. ونفس المتوحد إذا تركت لنفسها فإنها تجتاز بالضرورة وبصفة ثابتة، السبع الدرجات المنطقية للشر: الأولى الكبرياء فالبخل، فالحسد، فالغضب، فالشراهة، فالكسل وأخيراً الترف، فالإلهام الذى استقاه الروائى الكبير من مصور القرن السادس عشر، نقله فى تأليفه إلى الفنانين المحدثين، ولقد وجد كل من الفن والأدب بفضل هذا الإيحاء مصدراً لخصوبة عجيبة. فكان لمؤلف فلوبير أثر عميق على عدد كبير من الفنانين الفرنسيين من بينهم فيليسيان رويس وسيزان، وعلى الخصوص هنرى ريفيير الذى كان لأنسجته الأربعين المكرسة لحروب القديس أنطونيوس فضل إحياء الموضوعات الأنطونية فى الأدب الحديث.

وكان ريفيير عضواً فى جماعة «القط الأسود» ونجحت هذه الجماعة من فنانى مون مارتر فى أن تؤلف تجارب جديدة للقديس أنطونيوس، وقد صور ريفيير وأصدقاؤه القديس الناسك لا على أرضية هولندية أو أمام مدينة نورمبرج ولكن فى مقاهى باريس أو على طرقات هذه العاصمة العظيمة.

وصور ريفيير وكذلك رويس، الشيطان فى زى المساء بين الأوصاف التى صورا بها مغريات المدينة الكبيرة. كما أن زولا نفسه صور لنا أسواق باريس وأبان لنا الفجر القرمزى، جبال الفاكهة

والخضروات. وجثث البهائم المذبوحة منذ زمن قليل، وكل هذه الأشياء التى يحبها أهل باريس وهى عندهم مصدر للإغراء. وبديهى أنه أظهر لنا بعد ذلك أرصفة باريس بكل مغرياتها التى يمكن تخيلها وما يتبعها من صنوف الخلاعة فى تفصيلات دقيقة، نساء بأرداف ضخمة وشعور طويلة مموجة، أطرافها طائرة فى الهواء كالنسوة اللائى صورهن موشا فى نهاية القرن التاسع عشر. ثم لا أنسى أناتول فرانس مؤلف تاييس الذى تأثر حتى الأعماق بتوبة القديس أنطونيوس، ولما كان كاتبنا المتشكك طفلاً، لم يكن له من مطمع إلا فى أن يصبح قديساً تائباً، قديساً غائصاً فى أعماق الإسقيط.

وهلا علمتم ماذا صنع أناتول فرانس مؤلف «دكان شواء الملكة بيدوك» و«الآلهة عطش» أى نعم أناتول فرانس؟ أنه شق الكرسى الأبوى ليستخرج منه الشعر الذى أراد أن يجعل منه مسحاً له!

يمكنكم إذن أن تتيقنوا من أن إكرام القديس أنطونيوس كان ولا زال حياً، ليس فقط فى جميع الطقوس وفى جميع الكنائس بل وفى جميع الفنون والآداب أيضاً.

هذا هو السبب فى أننا لا نستطيع أن نمر في صمت على الذكرى السادسة عشرة المئوية، لوفاة هذا القديس العظيم، الذى بعد أن جابة الحروب من كل نوع، وبعد أن ارتعب أمام التماسيح التى لها أقدام كأقدام التيس الجبلى، والبوم التى لها أذناب كذنب الحية، والخنازير التى لها خطم كخطم النمر، والمعيز التى لها مؤخر كمؤخر الحمار، والضفادع المغطاة بالشعر كأنها دببة، وبعد أن أحاطت به لذات الترف وإغراءات الشهوة، وبعد أن رأى الصحراء ترتجف من صوت الرقصات الشيطانية، أوصى تلاميذه قبل أن يغمض عينيه، أن لا يحنطوا جسده «إنه طقس طالما شجبته» قال القديس أنطونيوس.

بعد ذلك أحس القديس أنطونيوس بنبضات قلبه تبطئ فى هدوء وتخفت فى رقة وعذوبة، وكأنها ينبوع ماء ينضب، أو صدى لا يلبث أن يتلاشى، وبعدها رقد القديس أنطونيوس.

ومن ثم رأى السموات تنفتح قليلاً، على شبه خيمة ترتفع ستائرها، أو سحب من ذهب تتبدد فى أشكال حلزونية كبيرة، فتكشف عن فردوس النعيم، وفى وسطه تماماً يشع يسوع المسيح فى بهاء جماله، وقد جاء ليقطف أنطونيوس زهرة الصحراء ويغرسه فى جنات الفردوس.

واليوم فى عزلة وادى النطرون أو فى القحط المضئ بجبال القلزم، يعيش تلاميذ القديس العظيم أنطونيوس. وتلاميذه هم أيضاً قد نذروا أنفسهم للرب سيد الطبيعة، فوهبوا أنفسهم لعبادة حارة، لأنهم لا يصلون إلى الله فقط ولا يكرموه فحسب، ولا يبتهلون إليه من أجل هذا العالم الثائر، فقط، لكنهم أيضاً قد سلموا أجسادهم للرياضات الروحية، وأرواحهم للتأملات.

هؤلاء الرجال هم أبطال، لأن حياتهم كحياة القديس أنطونيوس استشهاد حقيقى.

الأنبا باخوم المعروف بأبى الشركة

فى اليوم الرابع عشر من شهر بشنس القبطى ويوافق عادة الثانى والعشرين من شهر مايو- أيار انتقل الأنبا باخوم أبو الشركة إلى عالم البقاء والخلود.

والأنبا باخوم هو واضع نظام الإشتراكية التعاونية فى الحياة الرهبانية، وهو صاحب فكرة التصنيع فى الأديرة المصرية، وهو الذى وجّه الرهبنة وجهة جديدة لم تُعرف من قبله، وعنه أخذها الرهبان فى كل العالم شرقاً وغرباً.

رأى القديس باخوم (أو باخوميوس كما يسمّيه اليونان)، واسمه بالقبطية **Παϩωм** Pakhom أى «النّسر»، أن حياة التوحّد المطلق فيها قسوة بالغة، ولا يقوى عليها إلاّ نفر قليل من الناس، لكنّ الراغبين فى حياة الكمال أكثر عدداً، وهم يحتاجون إلى قيادة وإلى توجيه. فجمع الكثيرين ممن تبعوا سيرته، ووضع لهم نظاماً عاماً مشتركاً للحياة الروحية، ورتّب لهم قواعد يخضعون لها فى طاعة تامة فيما يتصل بعبادتهم وأكلهم ونومهم. وفرض لهم مواعيد محددة، **فهم يصلّون معاً ويأكلون على مائدة واحدة فى وقت واحد . ولهم أوقات للعمل. وقد اهتم القديس باخوم بمبدأ العمل وأكبر من شأنه، واعتبره ضرورة على كل راهب بحيث كان يطرد الراهب الكسول من الدير، ولا يجعل له نصيباً فى مجتمعه الجديد**. ويلغ من حزم هذا القديس وإصراره على إلتزام الراهب لواجباته فى طاعة تامة وفى حدود النظام المرسوم له، أنه كان يعاقب كل راهب يخرج على النظام حتى لو كان ذلك بقصد حسن أو حتى إذا أنتج هذا الخروج على النظام خيراً مادياً للدير. وكان يرى أنّ الخضوع للنظام ولأوامر الرئيس فضيلة كبيرة، لأنّ فيها قهراً للنفس ومقاومة لرغباتها وأهوائها، كما أنّ فيها إتضاعاً وخضوعاً لازمين لنجاح كل مجتمع صغيراً كان أو كبيراً.

وبذلك أحال الأنبا باخوم الرهبنة إلى نوع من **العسكرية الروحية**، ووضع لها قوانين ونظماً، وكان الرهبان يقيمون فى بيوت بحسب الحِرف التى كانوا يمارسونها قبل الرهبنة، فكان للخبازين بيت، ولصانعى الفخار بيت، وللنسّاجين بيت. وكان القديس يقيم لكل دير رئيساً ووكيلاً، ويقيم للأديرة جميعها رئيساً عاماً ووكيلاً وأميناً، وقد اتّخذ من أحد الأديرة فى (فاو)، على الضفة اليمنى من النيل مقابل هور، قاعدة لحكومته الديرية وإدارة جميع الأديرة التابعة له فى الصعيد. وكان يجمع جميع الرهبان فى هذا الدير مرة كل سنة، وذلك فى عيد رأس السنة القبطية، وكان يعيّن فى هذا العيد الوظائف للسنة الجديدة. وقد تشرّف القديس باخوم بزيارة البابا أثناسيوس الرسولى فى ديره المعروف بدير طابانا. وقد استقبله الأنبا باخوم استقبالاً حاراً وهو يعلم أنه يستقبل حامى الإيمان القويم.

مولده، وكيف اهتدى إلى المسيحية:

ولد باخوم من أبوين وثنيين غنيين فى إقليم إسنا فى نحو سنة ٢٨٨ لميلاد المسيح ويبدو أنه منذ طفولته شعر بإحتقار شديد للديانة الوثنية، على الرغم من أنّ والديه كانا يرغّبانه فيها ويصحبانه معهما إلى المعابد والهياكل الوثنية. ويقال أنه دخل مرة مع والديه إلى معبد الوثن فاحتقر الآلهة، ولذلك غضب الكاهن الوثنى وقال عنه إنه سيصير عدواً لديانته ثم طرده من الهيكل.

وفى سن العشرين من عمره انتظم باخوم فى سلك الجندية، وذهب تحت قيادة القائد قسطنطين فى حملة لإخضاع الحبشة. وفى الطريق جاع الجند وعطشوا فخرج للقائهم أهل القرية وأكرموهم إكراماً فائقاً، فدهش باخوم من تصرف الأهالى وسأل عن سرّ هذا الصنيع، فقيل له إنهم مسيحيون، وديانتهم تأمرهم بإكرام الغرباء والإحسان إليهم. فوقع ذلك منه موقعاً حسناً، وشعر بسموّ الديانة المسيحية. ويروى المؤرخون عنه أنه صلّى فى تلك الليلة صلاة قال فيها «إنّى أعاهدك على أن أعبدك وأحفظ وصاياك كلّ أيام حياتى إذا نظرتَ إلىّ برحمتك وعرّفتنى بلاهوتك».

وقال عنه المؤرخون إنّ من العوامل التى جذبته إلى المسيحية صبر الشهداء على احتمال العذاب القاسى الذى فرضه عليهم (دقلديانوس).

فلما عاد من الحرب صمّم على أن يدرس المسيحية فانخرط فى سلك الموعوظين، وفى الليلة التى كان سينال فيها سرّ المعمودية المقدّس، رأى أنّ يده اليمنى ممتدة نحو السماء، وإذا الندى يستحيل فى يده إلى تفاحة، وكان صوت من السماء يناديه أن يحتفظ بالنعمة العظيمة التى سيقتبلها من الرب يسوع.

وبعد العماد سار فى طريق الفضيلة واشتهى حياة العزلة والتعبّد، فتتلمذ لعابد قديس متوحد اسمه (بلامون). ومع أنّ الناسك صرفه عنه فى مبدأ الأمر منذراً إياه بأن طريق النسك وعر وصعب، إلاّ أنّ باخوم كان راغباً فى حياة التعبد من كلّ قلبه. وسأل الشيخ فى ضراعة أن يقبله، فقبله. ولم يلبث أن حذا حذو معلّمه . ولم يطل الأمد بمعلّمه، إذ توفى بعد سنوات، ولكن تلميذه صار بعد هذه السنين قادراً على أن يسير بمفرده، بل قادراً على أن يقود الكثيرين الذين تبعوا سيرته.

وعلى الرغم من أن الأنبا باخوميوس هو واضع نظام الرهبنة الإشتراكية، إلاّ أنه هو نفسه كان يميل إلى التوحّد المطلق، وكان يرى أن نظام الشركة لابدّ منه للمبتدئين ولغير القادرين

على التوحّد. ولذلك كان هو يعتزل فى مغارة يقيم فيها أياماً طويلة ثم يعود ليفتقد أولاده الرهبان ليعلم أحوالهم ويوجههم.

مواهبه الروحية:

وللأنبا باخوم فى وحدته مناظر روحانية كان يتمتع بها، وله أيضاً رؤى عن مستقبل الرهبنة، ومستقبل الكنيسة. وكان عندما يصلّى يبكى بدموع كثيرة من أجل رهبانه، ومن أجل الناس الذين فى العالم. وقد ذكر تلاميذه عنه فى سيرة حياته أنّ الدموع حفرت على خديه مجريين واضحين تركا أثرهما على جلد وجهه.

وكان يقصد إليه أناس من مختلف بلاد العالم لينتفعوا بتجاربه ومواعظه. ومرة جاءه راهب من روما لا يعرف القبطية. فحزن (باخوم) لعائق اللغة بينه وبين هذا الضيف الغريب. فصلّى لله وقال: أنت تعلم يا ربّ أننى لا أعرف اللغات، ولذلك فإننى لا أستطيع أن أفيد الآتين إلىّ من الناطقين باللغات الأخرى. فإما أن تمنحنى معرفة لغة من يقدم إلىّ حتى ينتفع بالإرشاد، أو تمنعه من القدوم إلىّ. فسمع الرب لصلاته فصار قادراً على أن يستمع إلى شكوى الراهب الرومانى ويجيبه بما ينفعه، وهذه هى موهبة التكلّم بالألسنة واللغات، وهى من مواهب الروح القدس.

وفاته:

شعر القديس باخوم بدنوّ أجله فعيّن بدلاً منه أحد تلاميذه ويسمى (بترونيوس)، ولكنه مات بعد تعيينه بقليل، ثم عيّن من بعده تلميذاً آخر اسمه (هوريسيوس). وكان من المتوقع أن يقيم أحبّ تلاميذه إليه وأخلصهم له وهو (تادرس). ولكنّ باخوم لم يشأ أن يسند إليه الرياسة على الرغم من ثقته وثقة جميع الرهبان فيه. ولعله فعل ذلك إشفاقاً عليه ورحمة به، أو لأنه رأى الرياسة ثقلاً على تادرس قد لا يقوى على إحتماله، أو قد تعطل نموّه الروحانى فى الفضيلة. ومما يدل على ثقة باخوم فى تلميذه تادرس أنه عهد إليه بدفن جسده، وطلب إليه أن يحتفظ به سراً من كل أحد آخر. وانتقل القديس العظيم إلى الأخدار السماوية فى نحو ٤٠٥ لميلاد المسيح.

القديس مقاريوس الكبير

من ٣٠١ - ٣٩١ م

يعرف هذا القديس بمكاريوس المصرى تمييزاً له عن آخر يعرف بمكاريوس الأسكندرى أو الأسكندرانى، وثالث يعرف باسم مقاريوس الأسقف - فالثلاثة من كبار الرهبان، ويذكرون معاً باسم «ثلاثة المقارات القديسين».

والمعروف عن القديس مقاريوس المصرى أنه الأشهر بين الثلاثة، ولذلك يسمى بمقاريوس الكبير - (أو أبو مقار)، وهو صاحب الدير العظيم المنسوب لأسمه (دير أبو مقار)، ويعد من أقدم أديرة وادى النطرون (١) فى الصحراء الغربية جنوبى الأسكندرية، أو بالقرب من كيلو ٩٢ فى الطريق الصحراوى بين القاهرة والأسكندرية.

والقديس مقاريوس المصرى (أو أبو مقار) هو أول من سكن من الرهبان وادى النطرون، ولذلك يعد «أباً» لرهبان وادى النطرون جميعاً، وصار الوادى كله ينسب إليه، فيسمى «برية مقاريوس» أو «إسقيط مقاريوس». وكلمة (أسقيط) ترجع إلى الكلمة اليونانية التى تقّبطت ἀσκίτης بمعنى (الناسك)، فأصبحت البرية كلها منسوبة إلى الناسك مقاريوس المصرى.

ومقاريوس المصرى هو المنشىء للنظام الرهبانى النسكى الذى انتشر بفضله فى كل وادى النطرون. ومن هنا فمقاريوس المصرى هو المؤسس الحقيقى لجميع أديرة وادى النطرون. وجميع الرهبان فى هذا الوادى هم من تلاميذه، عشقوا الحياة الرهبانية بسببه وتتلمذوا عليه متمثلين به، فكان لهم جميعاً هو الأب والراعى والمثل الأعلى والقدوة والمثال والأمثولة. وبفضله تجمع الرهبان فى حياته وكانوا أعداداً كبيرة يقدرون فى التاريخ بعشرات الألوف.

وكما سّمى القديس أنطونيوس المصرى بـ (أبو جميع الرهبان) فى الصعيد، صار القديس مقاريوس المصرى يعرف بـ (أبو جميع رهبان وادى النطرون أو نيتريا).

والقديس مقاريوس المصرى هو ذاته تلميذ القديس أنطونيوس المصرى، فقد بدأ حياته معه وأخذ عنه، وتتلمذ عليه، ونال بركته، وهو الذى ألبسه اسكيم (٢) الرهبنة قبل أن يذهب شمالاً

---

(١) منخفض بقرب الدلتا غرباً فى صحراء ليبيا عرف منذ القديم بوجود النطرون والملح، ولذلك سمى فى عصر البطالمة بـ «حقل الملح».

(٢) اسكيم الرهبنة هو (شكل) الرهبنة - وهى كلمة يونانية تقّبطت σχῆμα فمن ينذر نفسه للحياة الرهبانية يلبسه أب الدير الزى الخاص بالراهب. وهو الجبة أو الثوب من الصوف، ومنطقة من الجلد مطرزة بالصلبان يتزر بها فى وسطه، ثم قلنسوّه مطرزة بالصلبان، يغطى بها رأسه.

ليكون مؤسس رهبنة نيتريا أو وادى النطرون. وفارق السن بين الراهبين القديسين هو خمسون سنة، فقد كان القديس أنطونيوس شيخاً عندما عرفه مقاريوس وتتلمذ عليه، ولذلك كان مقاريوس إمتداداً لشخصية معلمه أنطونيوس فى تقواه ونسكه وزهده، وصبره الطويل على نسكيات العبادة من صوم إنقطاعى طويل وعنيف، وصلاة بلا إنقطاع، وتدريبات شديدة على أنواع الإماتات الحسية، والسيطرة على الميول الجسدية، والشهوات البدنية، والرغبات المادية، والارتباطات والعلاقات الأرضية، والإرتفاع فوق الأنانية والذاتية ومحبة القنية أو التملك، بل وفوق الأنية والفردانية والتسامى فوق ضروب الإنفعالات من غضب ولذة، وتأثر بالمدح أو الذم وإحساس بالكرامة الشخصية، وهى صورة من صور الذاتية والأنية، وذلك للإندماج فى الروحانية الصافية، نتيجة الشخوص فى الله شخوصاً دائماً، وبلوغ ما يعرف بالفناء والبقاء بعد الفناء، فيفنى الراهب العابد العاشق لله عن ذاته ولكن مع ذلك يبقى، ولكن لا يبقى فى ذاته ولذاته، وإنما يبقى فى الله ولله، وهى هذه التدريبات التى يمارس فيها العابد الناسك ممارسة عملية باطنية جوانية العبارة الإنجيلية «لأنى مت.. لأحيا لله. مع المسيح صلبت، فما أنا أحيا بعد، بل المسيح يحيا فىّ. وإذا كنت أحيا الآن فى الجسد، فحياتى هى فى الإيمان». (غلاطية ٢ : ١٩، ٢٠).

ولد القديس مقاريوس المصرى فى سنة ٣٠١ م فى بلدة (شبشير) إحدى بلاد المنوفية (وهى قريبة من منوف) وتسمى الآن شبشير اطملاى. ولد من أبوين مسيحيين تقيين، أب كان قسيساً اشتهر بالورع والفضيلة والعطف والبر بالفقراء وأصحاب الحاجات اسمه إبراهيم، وأم طيبة تقية ممدوحة السيرة فى بلدتها أسمها سارة، وكانا لسنوات ليس لهما ولد، وحدث أن اعتدى بعض اللصوص على منزلهما وسلبوهما كل ممتلكاتهما، لكن الله لم يتركهما، وفى إحدى الليالى رأى القسيس فى منامه النبى إبراهيم الخليل يعزيه عما فقده من مقتنيات، ويبشره بأن إمراته ستحبل وتلد إبناً صالحاً وسيكون له شأن عظيم، وسيشيع ذكره فى كل مكان ويكون أباً روحياً ومرشداً لكثيرين، وقائداً لعباد يخدمون الله على نحو خدمة ملائكة السماء، يقومون على عبادة خالقهم آناء الليل وأطراف النهار، عبادة متواصلة بغير إنقطاع، وقال له إبراهيم الخليل أنه يسمى ولده بإسم (مقار) أو مكاريوس ومعناه «سعيد» أو «مبارك»، لأنه سيكون سعيداً بروحانيته وبرعاية الله له، وسيسعد الآخرين بحسن إرشاده وتوجيهه.

وتحقق وعد الله، فحبلت سارة وولدت مقاريوس، وتربى الطفل فى مخافة الله، وكبر وصار يساعد أباه فى خدمة الحقول والمزارع. وبارك الله مقاريوس وأبويه، وتبدل فقر العائلة إلى خير وبركة، وصار للعائلة غنم وماشية وخيرات كثيرة، وأخذوا يحسنون منها ويتصدقون على الفقراء

والمساكين، وإزدادت محبة الناس لهم. وأما مقاريوس فقد نال رضاء أهل البلدة جميعاً، فأتوا به إلى الأسقف فرسمه شماساً (قارئاً) فى الكنيسة للفصول المقدسة، ولم يكتفوا بهذا، بل أراد الكهنة والشعب أن يرسموه قسيساً ليقوم بالخدمة الدينية فى سلك الكهنوت، ولكن قبل أن يرسم قسيساً كان لابد أن يتزوج. فلا زواج بعد الرسامة، وهنا أجمع الكهنة والشعب على ضرورة زواجه من إمرأة، وكذلك ألح الأبوان عليه بالزواج شأن كل الوالدين الذين يسرهما أن يريا ولدهما له زوجة وأسرة. أما هو فأبى بشدة واعتذر بعدم رغبته فى الزواج، وإعتزامه على التبتل والعفة الكاملة وأن يكون مقدساً لله روحاً وجسداً. ولكن أحداً لم يصغ لرغبته فألزموه بالزواج وعقدوا له على إمرأة فاضلة من أهل بلدته، فرضخ للأمر على مضض، ولكنه لم يقترب إليها ولم يمسها بل لم ينظر إليها.. واستأذن أباه بعد أيام قلائل فى أن يمضى بجمال أبيه مع الأجراء يحمِلون النطرون من جبل النطرون إلى مصر، وقد صار يقوم بهذا العمل مراراً مع الجمالين حتى عُرف هو نفسه بين أهل قريته باسم «مقاريوس الجمال». وفى إحدى الليالى، وكان نازلاً بالجبل مع الجمالين، وكان متعباً فنام، ورأى فى منامه كائناً نورانياً يقول له: إن الله يقول لك إننى أعطيك هذا الجبل ميراثاً لك، وسيكون لك بنون روحانيين ينقطعون لعبادتى... ثم قال له: انهض الآن من نومك، وامض بسلام إلى موضعك.. فاستيقظ مبهوراً، مذهولاً، وبدا عليه الشرود فى الفكر، فسأله رفاقه وأصحابه عما أصابه، فلم يجيبهم بشىء، وبعد ثلاثة أيام من الرؤيا رجع من جبل النطرون إلى بيته فوجد زوجته مريضة بحمى شديدة، وما لبثت حتى ماتت وهى بتول طاهرة.

أما مقاريوس، فقد ظل فى بلده يعمل بنشاط ليعول أسرته. وكان أبوه قد طعن فى السن، وصار مقاريوس يخدم أباه فى شيخوخته، كما كان فى نفس الوقت يوزع الصدقات على الفقراء ويخدم الأرامل والأيتام حتى أحبه جميع الناس، ولم يعد أحد من أسرته أو من أهل قريته يحدثه فى موضوع زواجه، وكان يقضى فى المساء وقتاً طويلاً فى الصلاة والعبادة، فالعبادة كانت له لذة ومتعة ونعيماً.

فلما توفى أبوه، لاحظت أمه العجوز أنه قد بدأ يوزع كل ما يملك على الفقراء وأصحاب الحاجات، فلامته أمه على ذلك، وقالت له: ما هذا الذى تصنعه يا ولدى؟ إنك إذا بددت كل مالك صرت محتاجاً لآخرين، وأنت لا تزال بعد شاباً، فلم يسفه نصيحة أمه ولم يحزن قلبها، بل وافقها، وقال لها: سأعمل بنصيحتك، ولا أعصِ لك أمراً...

وبعد ستة أشهر ماتت أمه فدفنها إلى جوار أبيه.. وأقبل العيد، فأولم وليمة دعا إليها الفقراء ترحماً على أبيه وأمه.

قصد مقاريوس بعد ذلك إلى راهب متوحد بالقرب من قريته. وبات عنده فى صومعته. ورأى المتوحد، وهو يصلى، رؤيا جميلة... رأى مقاريوس وجموعاً من الرهبان محدقه به،

وكلهم يضيئون وعلى أكتافهم أجنحة كالطيور.. ففهم الراهب المتوحد مغزى هذه الرؤيا... ثم بارك المتوحد الشاب مقاريوس، وصرفه من عنده، وقال له: ما اعتزمت عليه سر فيه، فإن دعوتك هى من الله. فمضى مقاريوس وفرق كل ما بقى معه من ماله ومقتنياته على الفقراء والمساكين، ثم ذهب فسكن فى صومعة خارج القرية متعبداً فى هدوء وسكون.

على أن أهل قريته لم يتركوه فى هدوء، وإنما رغبوا فى رسامته قسيساً ليخدمهم، فحملوه على الرغم منه وساقوه إلى أسقفهم، فرسمه قسيساً... وروى مقاريوس فيما بعد أنه آثر الوحدة على الخدمة، قال «وإذ لم أوثر أن أتقلد هذه الرتبة (القسيسية) هربت إلى مكان آخر».

وبينما هو يصلى ظهر له ملاك من السماء بنور عظيم وأرشده إلى المكان الذى يستقر فيه، وقاده بيده فسار مسيرة يومين أو يزيد إلى أن جاء به إلى برية وادى النطرون. ولما طلب مقاريوس من الملاك أن يعين له المكان الذى يحفر فيه مغارته ليتعبد فيها، قال له الملاك: ها هى كل البرية أمامك... فحفر له مغارة فى الصخر.. لم يلبث حتى تركها لغيره ممن بدأوا يتوافدون عليه... هكذا تعددت المغارات والصوامع بكثرة عدد الذين أقبلوا عليه يطلبون إرشاده، ويسيرون مسيرته.

وسمع بسيرة القديس الأنبا أنطونيوس المصرى فى الجبل الشرقى بالقرب من البحر الأحمر، واشتهى أن يلتقى به، وفعلاً سار إليه على قدميه ليسترشد به. ولما وصل إلى المكان قبله الأنبا أنطونيوس، ولم يوار نفسه عنه، بل فرح وقبل رأسه، وكان قد علم مسبقاً بالروح بمجيئه إليه، كما علم بإستقامة قلبه، فشجعه على حياة العزلة والروحانية والعبادة الحارة، ولما طلب إليه مقاريوس أن يقيم عنده، ذكره بأن يلزم المكان الذى أرشده إليه الملاك لأن له فى هذا المكان رسالة ليصير أباً ومرشداً وإماماً لكثيرين. وقال له الأنبا أنطونيوس «فليصر كل واحد منا فى الموضع الذى دعاه الرب إليه». فأطاع مقاريوس نصيحة الأنبا أنطونيوس، ولكنه أقام عنده أياماً، كاشفه بما فى قلبه، وسأله التوجيه والإرشاد كمعلم كبير سبقه فى ميدان الجهاد الروحانى مع النفس، ومع القوات الروحية المضادة من الشياطين والأرواح النجسة، فأجابه على أسئلته ورسم له طريق العبادة، وعلّمه أن للحياة الرهبانية مقاماتها فى سلّم صاعد، وعلى العابد أن يكون متزناً رصيناً، ولا يكون عجولاً، وأن يبدأ الطريق من أوله، ولا يقفز إلى مقام أعلى من مقامه إلا إذا أقام فى المقام الأدنى وقتاً كافياً،وقد شبع منه وارتوى، وبلغ فيه النضج وصار مالكاً فيه لنفسه وعلى يقين من نفسه، لئلا يجمح ويجنح إلى الغرور والصلف فيرتد ويسقط ويفشل، وهكذا أخذ الأنبا أنطونيوس يزوده بنصائح من خبراته الطويلة، ويهديه إلى سبيل النصرة والغلبة على حروب النفس وحروب الجسد، وعلى حروب الشياطين، ثم ألبسه اسكيم الرهبنة، وصرفه

من عنده بسلام ليذهب إلى المكان الذى أرشده الملاك إليه، ليصبح فيه قائداً ومرشداً ومعلماً ومدبراً لحياة الكثيرين، ممن يقصدونه ليتعلموا منه طريق النمو الروحانى، للوصول إلى مقام «المشاهد الطوباوية» والاتحاد بالله بعد طريق طويل شاق، فى إماتة الميول والرغبات الحسية والإنفعالات البشرية، حتى تسقط عن العابد كل رغبة ذاتية، وتصبح إرادة الله هى إرادته ومشيئة الله هى مشيئته، وهو مقام الفناء، والبقاء بعد الفناء.

وعاد القديس مقاريوس إلى برية وادى النطرون، وأخذ يمارس ضروب العبادة والتقشف كما علمه الأنبا أنطونيوس، وكما أرشده روح التقوى التى تملكته وكأنه لم يخلق إلا لعبادة الله، ولم يكن له من مثل أعلى يحتذيه إلا خدمة الملائكة فى السماء، الواقفين أمام عرش الله يعبدونه ويخدمونه منذ بدء الخليقة.

والواقع أن هذا هو المفهوم الحقيقى للرهبنة المصرية... فالراهب عابد لله وحده، وخادم واقف على خدمة سيده طوال حياته، وقد رغب فى أن يكون كالملاك فى السماء. ومن هنا سمّى الرهبان بـ «ملائكة أرضيين»، أو «بشر سمائيين» وسميت الرهبنة بخدمة الملائكة، و«طريق الكمال».

وفى البرية واصل مقاريوس الجهاد الروحانى، فكان يجاهد الشيطان عن نفسه، بالصلوات الدائمة والأصوام الطويلة، والهذيذ فى المزامير والتسابيح وأقوال الكتب المقدسة. وتحقق له الصفاء الروحانى، والشفافية ووصل إلى مقام الثيئورية (أى المكاشفات والرؤى الإلهية) .. ووهبه الله موهبة شفاء المرضى، فكان يصلى عليهم ويدهنهم بزيت فيبرأون، وشهد عنه القديس أنطونيوس بقوله «إن الأب مقاريوس أعطاه الله نعمة الشفاء» ثم وهبه الله أيضاً بعد كل تلك المجاهدات الروحانية سلطاناً على إخراج الشياطين والأرواح النجسة من المجانين والمصروعين، وذلك بالصلاةعليهم ودهنهم بالزيت المصلى عليه، وكذلك بصلواته كان يبطل قوة السحر والأعمال السحرية الشيطانية، ويعود الإنسان سليماً معافى وقد نجا وتخلص من أثر السحر وأعمال السحر على روحه ونفسه وجسده.

ووهبه الله موهبة النبوءة، فصار يخبر بأمور آتية...

وبسبب سيرته ومواهبه الكثيرة أقبل إليه إناس كثيرون، قصدوا إلى البرية وتتلمذوا عليه، هذا غير أعداد كبيرة ممن قصدوا إليه من أهل العالم لينتفعوا به ويستفيدوا من صلواته وبركاته.

وشاء الله أن يقصد إليه إناس لا من مصر وحدها، فى شمالها وجنوبها،بل قصد إليه كثيرون من بلاد أخرى خارجية ممن سمعوا عنه: من فلسطين والشام ومن بلاد السودان والنوبة وكل

أقاليم أفريقيا، بل أيضاً من ايطاليا واسبانيا وآسيا الصغرى وغيرها. وممن قصدوا إليه إبنا الملك فالنتينيانوس الأول قيصر الغرب (٣٦٤ ـ ٣٧٥) وهما مكسيموس ودوماديوس، وإليهما ينتسب دير البراموس وهو أقدم دير بناه القديس مقاريوس ـ وتعد كنيسة دير البراموس لهذا، أقدم كنيسة بنيت فى برية مقاريوس ـ وكلمة البراموس كلمة قبطية **Παρωμεο** أى «الخاص بالروم ـ أو الرومانيين» فكان حقاً نوراً وهاجاً أضاء فى ظلمات الليل. وجذب برائحته الزكية وسيرته العطرة ومواهبه الروحانية، المئات والألوف وعشرات الألوف، فتحولت بسببه الصحراء القاحلة إلى دوحة فيحاء تآوت تحت أغصانها جماعات بشرية من كل شعب وأمة تحت السماء، وهربت منها الشياطين والأرواح المقدسة وأصبحت موئلا للملائكة والأرواح المقدسة، وصارت تسمع فى جنباتها الترانيم والتسابيح والأغانى الروحية والصلوات بغير إنقطاع.

وعلى غير ما يتوقعه الناس، وعلى غير ما يستدل من المنطق البشرى، فإن الرجل الذى أخفى نفسه فى أعماق الصحراء طلباً للهدوء والسكون والعبادة الصامتة، صار الرجل ، على غير ما كان يرجو هو نفسه أن يكون، شهيراً وعلماً عالياً على ربوة، معروفاً ومرموقاً. وأصبح الرجل الذى هرب من الخدمة بين الناس خادماً للناس على أروع وأعمق وأسمى ما تكون الخدمة للناس.

إن سيرة القديس مقاريوس ومن قبله سيرة القديس أنطونيوس كشفت عن حقيقة إنسانية، أن من يبدأ خدمته بين الناس بخدمة الناس، قد يتحول إلى زعيم شعبى يحبه الناس ويمدحونه ويكرمونه... أما الذى يبدأ خدمته بخدمة الله، فى عبادة صامته خفية، وبهذه العبادة يصفو ويتطهر من بواعثه الشخصية ودوافعه الذاتية، وبها يرتفع ويسمو فوق كل إنفعال، يتحول بالتدريج ودون أن يشعر إلى خادم لجميع الناس، ولكن خدمته للناس فى هذه الحالة ستكون فى إطار خدمته لله بروحانية صافية وتكون خدمته بغير هوى، خدمة للخير فى ذاته، وهذا هو أرقى مقام للخدمة بين الناس، بعد أن تكون قد أصبحت خدمة لله، ومن أجل الله ومن أجل خير القريب ويكون الإنسان قد صار فى خدمته شبيهاً بالله ذاته والله صانع الخيرات، أو هو على ما يسميه ارسطو «هو الخير الأعظم» وربما لهذا يسمى بالإنجليزية God اللفظ المشتق من Good وبالألمانية Gott المشتق من Gute أى الخير ـ أو الجودة.

وفى سنة ٣٧٥ م نفى القديس مقاريوس المصرى ومعه القديس مقاريوس الأسكندرانى وآخرون، من قادة الرهبان وأئمتهم إلى جزيرة بأعلى الصعيد قيل أنها جزيرة فيلى، فى زمن الأمبراطور ـ أريوسى العقيدة ـ فالنس أو والس Valens الذى أمر بإضطهاد الأرثوذكس فى كل أنحاء مصر، فزحف لوكيوس الأريوسى ومعه رئيس الجند وفرق كثيرة من الجند، إلى كل أديرة

مصر، وقبضوا على مقاريوس المصرى وآخرين، من كبار الرهبان وأرسلوهم إلى جزيرة فيلى التى تغمرها المستنقعات، وكان كل سكان تلك الجزيرة وثنيين يعبدون الأوثان، فما أن رسا الرهبان على الجزيرة حتى ذهبت إليهم إبنة كاهن الجزيرة الوثنى وكان بها شيطان وأخذت تصيح قائلة: من أين أتيتم إلينا يا خدام الله العظيم؟ فانتهر القديس مقاريوس الشيطان فيها، فعادت سليمة العقل، وللحال اعتنق أبواها المسيحية وكل أهل بيتها، وكل سكان الجزيرة، وحوّلوا المعبد الوثنى إلى كنيسة مسيحية. ولما علم لوكيوس بذلك حزن حزناً شديداً، ثم أرسل أوامر سرية بإرجاع القديس مقاريوس وزميله الأسكندرانى والآخرين إلى محل إقامتهم فى البرية، فعادوا نحو سنة ٣٧٦م.

وفاة القديس مقاريوس

وبلغ القديس مقاريوس من العمر عتيا. وعاش أكثر من تسعين سنة وقيل أنه عاش نحو ٩٧ عاما، وهزل وضعف من كثرة النسك والجهاد الروحى، وأصيب بحمى شديدة، وكان ينام على حصيرة وبات عاجزاً عن النهوض من مكانه، واجتمع حوله أولاده الرهبان، فأخذ يوصيهم بمواصلة الثبات فى الفضيلة ومداومة الصلاة بغير إنقطاع، وقال لهم وهو يودعهم أنه لم يؤخر عنهم شيئاً من الفوائد، وأعطاهم من خبراته وإهتمامه، كل ما كان يملك أن يعطيه، فحزنوا جميعاً وبكوا إذ أدركوا أنه أشرف على نهاية حياته.

وفى تلك الليلة بينما هو يصلى ظهر له إثنان منيران عليهما سحنة روحانية وسعادة وإشراق، وسألاه إذا كان يعرفهما فعرف أحدهما وهو القديس أنطونيوس الكبير، وعرفه القديس أنطونيوس بالآخر الذى يرافقه وقال عنه «أنه الأب باخوم» وهو المعروف بالأنبا باخوم أبى الشركة، وهو مؤسس النظام الرهبانى الديرى المعروف بنظام الشركة أو الحياة المشتركة (١) وأعلماه أن رحلة حياته على الأرض هى فى نهايتها، وأنه سيلحق بهما بعد تسعة أيام.

وفعلاً فى الليلة الثامنة لظهور القديسين أنطونيوس وباخوم ظهر له الملاك ومعه جموع من الروحانيين من القديسين، ودعاه إلى الخروج من الجسد، وقال له: إن هؤلاء كلهم ينتظرونك. عند ذاك أسلم القديس مقاريوس روحه بيد الملاك، وكانت وفاته فى السابع والعشرين من شهر

---

(١) نظام الشركة أنشأه الأنبا باخوم ليكون طريقاً وسطاً بين حياة العالم فى المجتمع الكبير وبين حياة التوحد المطلق. فقد رأى الأنبا باخوم أن حياة التوحد المطلق لمشقتها تصعب على المبتدئين فى حياة الرهبنة، وقد تؤدى بهم إلى الفشل فضلاً عما يتعرضون له من مشاق وصعوبات أضرت بصحة الكثيرين. فرأى إنشاء نظام الشركة، وهو حياة إجتماعية لا إنفرادية ، لرهبان مبتدئين يصلون معاً، ويعملون معاً، ويأكلون معاً، ويسكنون معاً، ولهم فى حياتهم المشتركة نظام دقيق، فى اليقظة والنوم، والعمل،والأكل.. ومحظور على أحد منهم أن ينفرد بسيرة =

برمهات القبطى سنة ١٠٨ للشهداء، فبكاه من كان حاضراً وفاته من أولاده، وسمع الباقون فاجتمعوا فى الكنيسة وصلوا عليه، وتباركوا من جسده وقبلوه. وبعد أن دفنوه انصرفوا كل واحد إلى صومعته، وخلفه فى المسئولية العامة تلميذه بفنوتيوس أو ببنوده (= عبد الله) وتعيد الكنيسة القبطية لوفاة القديس مقاريوس فى السابع والعشرين من الشهر القبطى ويوافق الخامس من أبريل - نيسان.

ولما علم أهل قريته شبشير عقدوا النية على أن يحملوا جسده إلى بلدتهم... فانتظروا زماناً وأتوا سراً إلى برية القديس مقاريوس، وتمكنوا من سرقة جسده، وحملوه إلى قريتهم بفرح كبير، وبنوا كنيسة فى الجانب الغربى من القرية، ووضعوا جسد القديس مقاريوس إلى جانب المذبح.

مقالات ورسائل القديس مقاريوس

وإلى مواعظ القديس مقاريوس الشفوية ونصائحة وتوجيهاته التى أودعها صدور تلاميذه وأولاده الروحيين فقد كتب باللغة القبطية أكثر من خمسين رسالة فى موضوعات دينية متفرقة، وقد قام موريل بترجمتها إلى الفرنسية وطبعها فى باريس بالفرنسية سنة ١٥٥٩م. وله أيضاً سبع رسائل لاهوتية طبعت بالفرنسية فى مدينة تولوز بفرنسا سنة ١٦٨٤م. ونشر أرنولد ترجمة ألمانية لجميع مؤلفات هذا القديس سنة ١٧٠٢ وأعاد كاسيدان طبعها سنة ١٨١٩ ولهذه المواعظ ترجمة عربية. طبعت بمطبعة عين شمس سنة ١٩٠١م.

من أقوال القديس مقاريوس المصرى

قال القديس مقاريوس فى بيان التسامى فوق الإنفعالات: «إذا ما تقبلت التحقير كالإكرام، واللوم كالمديح، والفقر كالثراء، فإنك لا تموت».

وسأله أحد الناس: ياأبى، قل لى كلمة لأحيا. فقال له القديس مقاريوس المصرى اذهب إلى المقابر، واشتم الموتى فذهب وشتمهم ورجمهم بالحجارة ورجع فأخبر الشيخ بأنه قد فعل هكذا.

= حياته، ومن يخرج على النظام المرسوم يطرد من الدير- ويعد العمل اليدوى من مقومات نظام الشركة.. وكان التصنيع من أبرز خصائص النظام الديرى الباخومى. وكان بين الرهبان خبازون، وبناءون، ونجارون، وزراع، ودباغون، وحدّادون، وصناع لسائر الحرف اللازمة ومنها صناعة الأسبتة والخيرزان والصناعات الجلدية وتجليد الكتب، والزخارف، والحياكة، وتطعيم أحجبة الكنائس وما إلى ذلك...

ويتبين نظام الشركة بالأكثر عند مقارنته بنظام الرهبنه الأنطونى، الذى بموجبه يحيا كل راهب منفرداً فى صومعة أو مغارة، له نظامه الخاص المستقل فى عبادته وأكله ونومه. ومهمة أب الدير أن يطوف بالرهبان من وقت إلى آخر للإرشاد والتوجيه، ولكن من دون أن يجمعهم فى حياة مشتركة أو مجتمع واحد.

فقال له القديس: هل قالوا لك شيئاً؟ فأجابه الأخ: لا.. فقال له الشيخ القديس: امض غداً وامدحهم وقل لهم يا قديسون، يا أبرار... فمضى الأخ ومدحهم، وعاد فقال للشيخ: لقد مدحتهم. فقال له الشيخ: وهل أجابوك بشيء؟ فقال: لا.. فقال له الشيخ: «ها أنت ترى أنك مدحتهم فلم يقولوا لك شيئاً، وشتمتهم فلم يردوا لك جواباً. فلتكن أنت هكذا أيضاً. إذا رغبت فى أن تحيا، كن ميتاً، حتى أنك لا تهتم بشتيمة الناس ولا بمديحهم، لأن الميت لا يحس بكرامة ولا بإهانة، وبذلك تستطيع أن تحيا».

وقال القديس مقاريوس «أن الإنسان الذى يأسف على فقد شيء منه ليس كاملاً بعد. إن كنا قد أمرنا أن نرفض أنفسنا وأجسادنا، فكم بالحرى المقتنيات؟ إن الشياطين تحترق بهذه الفضيلة وأمثالها. عندما يرون إنساناً غير ملتفت إلى الأشياء وليس بمتأسف عليها إذا فقدها. إذا رأى الشياطين إنساناً قد شتم أو أهين أو خسر شيئاً، ولم يغتم بل احتمل بصبر وجلد، فإنها ترتاع منه، لأنها تعتقد وتعلم أنه قد سلك فى طريق الله».

«كل فضيلة مرتبطة بالأخرى مثل سلسلة روحية، فالصلاة مرتبطة بالمحبة، والمحبة بالفرح، والفرح بالوداعة، والوداعة بالتواضع، والتواضع بالخدمة، والخدمة بالرجاء، والرجاء بالإيمان، والإيمان بالطاعة، والطاعة بالبساطة. وكذلك من الجهة الأخرى فإن الرذائل مرتبط أحدها بالآخر. فالبغضة مرتبط بالغضب، والغضب بالكبرياء، والكبرياء بالمجد الباطل، والمجد الباطل بعدم الإيمان، وعدم الإيمان بقساوة القلب، وقساوة القلب بالإهمال، والإهمال بالكسل، والكسل بالضجر، والضجر بعدم الصبر، وعدم الصبر بمحبة اللذة. وباقى أجزاء الرذيلة هى بالمثل متعلقة بعضها ببعض، كما أنه من الجهة الصالحة فإن الفضائل متعلقة بعضها ببعض ومرتبطة معاً».

كنائس باسم القديس مقاريوس المصرى

١ـ إلى جانب الدير المعروف بدير (أبو مقار) وما يشتمل عليه من كنائس وكان به فى وقت ما ١٢ كنيسة عندما كان يسكنه نحو ألف راهب ـ نذكر كنيسة الأنبا مقار تلاصق السور البحرى للدير وهى الكنيسة الكبرى وبها ثلاثة هياكل.

٢ـ كنيسة (أبو مقار) ـ فى مصر القديمة أو بالفسطاط أو بابليون.

٣ـ كنيسة (أبو مقار) بدير الخندق بالقاهرة كانت موجودة فى القرن الثانى عشر وأوائل الثالث عشر وكانت ملاصقة لباب الدير، وقد أعطاها القبط للأرمن فى عهد بطريركية البابا كيرلس الثانى وهو السابع والستون فى عداد البطاركة.

٤ـ كنيسة القديس (أبو مقار) بدير مدافن يقع فوق تل عال جنوبى أبو تيج ببضع مئات من الأمتار، وقد ذكرت فى كتاب الخطط المقريزية جزء ٨ صفحة ١٩ .

٥ـ كنيسة (أبو مقار) ببلدة البياضية بمركز البدارى بمحافظة أسيوط.

٦ـ كنيسة (أبو مقار) فى العزبة التابعة لدير (أبو مقار) ببلدة اتريس مركز امبابة، مديرية الجيزة بالعزبة الغربية ـ بنيت سنة ١٨٧٢ .

٧ـ كنيسة (أبو مقار) بدير العذراء المعروف بدير جبل الطير فى الجبل الشرقى مقابل سمالوط، وتوجد فوق كنيسة العذراء الأثرية بالدير ويرجع تاريخها إلى سنة ١٨٨٩م.

٨ـ كنيسة (أبو مقار) بالبلينا، بنيت قبل سنة ١٩٣١م.

٩ـ كنيسة (أبو مقار) ببلدة شنشور مركز الباجور بالمنوفية ـ افتتحت سنة ١٩٥٩ .

مـــــراجـــــع

+ السنكسار ـ الصادق الأمين فى أخبار القديسين.

+ سير الثلاثة مقارات القديسين ـ تقديم دير السريان، ١٩٦٢ .

+ تاريخ البطاركة للأنبا ساويرس بن المقفع.

+ مخطوطة رقم ٢٧٨ بدير السريان.

+ مخطوطة رقم ٢٧٩ .

+ مخطوطة رقم ٢٨٠ .

+ مخطوطة رقم ٢٨٦ ميامر.

+ مخطوطة رقم ٢٩٠ ميامر بدير السريان.

وتضم سيرة القديس مقاريوس كما رواها أنبا سرابيون أسقف تميوس.

+ مختصر تاريخ الأمة القبطية فى عصرى الوثنية والمسيحية لواضعة سليم سليمان ـ الجزء الأول ـ القاهرة ١٩١٤ .

+ الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة تأليف الأسقف إيسيذوروس ـ الجزء الأول.

+ تاريخ الكنيسة القبطية تأليف منسى القمص القاهرة ١٩٢٤ .

+ قصة الكنيسة القبطية ـ تأليف إيريس حبيب المصرى ـ صفحة ٢٥٧ ـ ٢٦٦ .

+ الرهبنة القبطية فى عصر القديس أنبا مقار ـ الأب متى المسكين ـ ١٩٧٢ .

+ عظات القديس أنبا مقاريوس المصرى.

وهو يحتوى على خمسين عظة روحية وتفسيرية ـ القاهرة ١٩٥١ .

+ وادى النطرون ورهبانه وأديرته ـ للأمير عمر طوسون القاهرة ـ ١٩٣٥ .

+ تحفة السائلين فى ذكر أديرة رهبان المصريين، تأليف القمص عبد المسيح صليب المسعودى، القاهرة ١٩٢٤ .

+ دراسات فى تاريخ الرهبانية والديرية المصرية مع دراسة مقارنة لرهبنة وادى النطرون، تأليف الدكتور حكيم أمين ـ القاهرة ١٩٦٣ .

+ أديرة وادى النطرون ـ للدكتور منير شكرى، الأسكندرية ١٩٦٣ .

+ الأديرة المصرية العامرة، تأليف القمص صموئيل تاوضروس السريانى، القاهرة ١٩٦٨ .

+ تاريخ الرهبنة والديرية فى مصر وآثارهما الإنسانية على العالم ـ تأليف دكتور رءوف حبيب، ١٩٧٩ .

مراجع

* SOCRATES, ECCLESIASTICAL HISTORY.

* SOZOMENUS ECCLESIASTICAL HISTORY.

* THEODORET, ECCLESIASTICAL HISTORY.

* PARADISE OF THE FATHERS ed. BY BUDGE,.

* LAUSIAC HISTORY by PALLADIUS; Cambridge (Eng.) 1907.

* EVELYN WHITE, THE Monasteries of The Wadi Natrun.

* LES Saints dÉGYPTE , par R.P. PAUL CHENEAU, DÓRLEANS, Jerusalem, 1923, Tome I, P. 117 - 138.

* The Saints of EGYPT by DE LACY O'LEARY, London 1937 P. 182 - 184.

* The Story of the COPTS by IRIS HABIB EL MASRI Cairo, 1956.

*SOCIOLOGICAL and MORAL STUDIES IN THE FIELD OF MONASTICISM, by Dr. FARAG ROFAIL FARAG, LEIDEN, 1964.

الأنبا شنودة رئيس المتوحدين

الأنبا شنودة رئيس المتوحدين عملاقاً من عمالقة الروحانية فى القرن الخامس للميلاد، كان جبارا من جبابرة الروح، وكانت له روح إيليا وقوته، ولد بقرية شندويل بجرجا، ومن طفولته المبكرة ظهرت عبقريته الروحية، حتى وهو فى السابعة من عمره، كان يذهب وراء والده فى رعاية الغنم، كان يختبىء فيفتش عنه أبوه فيجده منزوياً فى مكان يصلّى، وفى السابعة من عمره رأى أبوه هذا الطفل الصغير حينما كان يصلى كانت أصابعه تضىء بالنور فأدرك أن هذا الطفل ليس عادياً، وإنما عبقريته الروحية ظهرت فى هذا السن المبكر، علامة على أن هذا فى كبره سينمو أكثر فأكثر، حتى يصبح نوراً وهاجاً لكثيرين، وفعلاً كبر الأنبا شنودة وأصبح شيئاً كبيرا بالنسبة لأعداد عديدة من الناس، وسمي بأرشيمندريت، والمعنى الحرفى لأرشيمندريت معناه رئيس دير من ثلاثة مئة راهب، لكن الأنبا شنودة صار ديره المعروف بالدير الأبيض بالقرب من سوهاج، وكان يضم عشرات الألوف من الرهبان، بعضهم سلكوا طريق الرهبنة الإشتراكية لكن بعضاً آخر سلك طريق التوحد المطلق، وصار هو رئيساً للمتوحدين، وكان أحيانا يترك ديره طلباً للوحدة، ويقيم على الرهبان واحداً من أكبرهم وأقربهم إلى قلبه، وأكثر من يطمئن إليه فى قيادة الرهبان، وكان هو يمضى في خلوة، فى بعض الأحيان قد تطول هذه الخلوة إلى خمس سنوات، كان يعكف فيها على الصلاة المستديمة الصلاة التى بلا إنقطاع، ومن شدة عنفه فى الصلاة وعمق صلواته الطويلة، أنه كان إذا أقبل أسبوع الآلام كان يقف للصلاة معلقاً يديه فى الهواء بمثال الصليب، وكان يستمر على هذا الوضع طويلاً ليعيش آلام الصليب، حتى قالوا عنه أنه كان يصلب نفسه على هذا الوضع ساعات وأيام، ليعيش فى عمق المشاعر وليحس بآلام الصليب وبآلام المسيح، كان طرازاً من الرجال ومن الرهبان نادر المثال، ولقد أدرك خاله بيجال بالروح القدس مستقبل هذا الإنسان، فحينما حمله أبوه وهو طفلاً إلى خاله بيجال وكان من كبار الرهبان المتوحدين، أخذه إليه لينال بركته، فما كان من الراهب المتوحد بيجال خال هذا الولد الصغير شنودة، إلا أن حمل يد الصبى ووضعها على رأسه، وكأنه يطلب بركة هذا الطفل لنفسه، وتنبأ قائلاً أنه سيصير أبا لجمهور كثير من الرهبان، لكنه لم يصر أبا للرهبان وحدهم ولا للمتوحدين فحسب، ولكن للملايين من الأقباط فى مصر كلها، ولمئات وألوف من الأجانب الذين وردوا إلى بلادنا خصيصاً، لينالوا بركة هذا الإنسان بعد أن سمعوا شيئاً عن قصة حياته، ومن بين مايروى عن جموع الأجانب التى كانت تأتى إليه لتنال بركته، وليصلى من أجلهم، أن جاءه جماعة من بلاد إيطاليا، وكان فى هذا الوقت قد طلب إلى تلميذه ويصا، أنه سيترك الدير إلى خلوة طويلة، وأمره قائلاً لا تأتى إلىّ فى مكانى بل اتركنى هادئاً، ومهما يكن من أمر مهما حدث تصرف ولا تحاول أن تأتى إلى، قد أعطيتك أمراً فلا تخالف، وكان الرجل شديداً وحازماً وقوياً فلم يملك تلميذه ويصا إلا أن صدع للأمر، وذهب الأنبا شنودة إلى خلوته إلى مغارته فى مكان قصى عن الدير، وفى هذه الأثناء جاء ضيوف أجانب من

إيطاليا، وطلبوا أن يقابلوا الأنبا شنودة لينالوا بركته، فأخبرهم تلميذه ويصا بأن معلمه ليس فى الدير وأنه فى خلوته، فألحوا فى طلبه وقالوا لقد جئنا من بلادنا خصيصاً ونرجو أن لا نرجع خائبين، فأعلمهم ويصا بوصية معلمه وأنه كان متشدداً فى الأمر، وأنه لا يستطيع أبداً أن يخالف أمر معلمه، فألحوا بشدة وقالوا له لا يمكن أن نغادر إلى بلادنا مالم نحظى برؤية الأنبا شنودة، لأننا قد أتينا خصيصاً، ورجوه فى إلحاح أن يذهب إليه فقال لا أستطيع، قالوا متى يعود؟ قال لا أعلم، فأخذوا يلحون جداً إلى أن ضاق الأنبا ويصا، ضاق بالأمر جداً ولم يعلم ماذا يصنع وكان فى حيرة من موقفين موقف المعلم المتشدد والذى أمره بإلحاح مهما يحدث أن لا يأتى إليه فى خلوته، وبين إلحاح هؤلاء القوم الأجانب الذين أتوا من مكان بعيد وطامعين فى أن يروا الأنبا شنودة وأن يحظوا ببركته وبصلواته، وإصرارهم أن لا ينطلقون مالم يروا الأنبا شنودة بالذات، وبقوا فى الدير أياماً كثيرة وبإلحاح متواصل وأخيراً اضطر تلميذه ويصا أن يحاول أن يذهب إليه فى قلايته بعيداً عن الدير، وعندما وصل إلى المغارة أصبح متردد وخائف، خائف أن ينال غضبه مادام أعطى له أمراً وأمراً مشدداً، وفى أثناء تردده أخذ يدور حول المغارة وهو خائف، وفى أثناء الدوران حول المغارة رأى فتحة فى المغارة ومن هذه الفتحة رأى معلمه ومعه كائنات روحانية من قديسين ومن ملائكة، إناس نورانيين، فبهت الأنبا ويصا من هذه الرؤيا ونسى نفسه فى هذا المنظر الروحانى الجميل، وانسحب وراء هذه المناظر الروحانية إلى أن إختفى المنظر، وبعد ذلك فى إستحياء شديد قرع على باب المغارة وهو يقول أغابى، وهى الكلمة التى اعتاد الرهبان أن يستخدموها حينما يريدون أن يدخلوا إلى قلاية راهب آخر، أغابى أى اصنع معى محبة، واسمح لى بالدخول ، وأخيراً سمح له الأنبا شنودة فدخل إلى القلاية، فابتدره قائلاً لماذا جئت؟ ألم أقل لك لا تحضر ، قال له يا معلمى يوجد ضيوف أجانب جاءوا من إيطاليا، وألحوا إلحاحات طويلة، وأنا قلت لهم أنا لا أقدرأبداً أن أخالف كلام معلمى، وقد شدد على بعدم المجىء، ولكن ألحوا إلحاحات طويلة، وبكوا أمامى بالدموع، وقالوا من غير المعقول أن نحضر من البلاد البعيدة ونرجع خائبين، وظلوا على هذه الحال أياماً طويلة حتى ضجرت من إلحاحهم، وأضطررت أن آتى إليك، فقبل الأنبا شنودة أن ينزل مع ويصا إلى الدير ليلتقى بهؤلاء الضيوف الأجانب، وفى الطريق قال له ويصا اسمح يا معلمى وقل لى من الذين كانوا معك فى المغارة، ففى مبدء الأمر وبروح الإتضاع أراد أن يخبىء عن تلميذه ويصا أمر هذه المناظر الروحانية، ولكن لما علم أن تلميذه ويصا أمكنه أن يرى من فتحة المغارة معلمه مع جمهور من الروحانيين ومن القديسين، فالأنبا شنودة شرح لتلميذه قائلاً هذه رؤى يرسلها لنا الرب للتعزية وللتشدد وللتقوية، ولكن آمرك بأن هذا الذى رأيته لا تتحدث به إلى يوم مماتى، وفعلاً كتم هذا التلميذ الأمين هذه المناظر إلى مابعد وفاة معلمه، كان هذا الرجل كما قلنا عملاقاً من عمالقة الروحانية فى صلواته، وفى أصوامه، وفى كل عباداته، وكانت له روح إيليا وقوته فى جبروته وغضبه على المخالفات والتعديات التى يتعدى بها الخطاة على وصايا الله، ولذلك كان يفتح الدير فى

بعض المناسبات للجمهور وكثير من الناس كانوا يقبلوا إلى الدير خصوصاً فى مناسبات الأصوام والأعياد، وكان الأنبا شنودة بروحانيته يعظ ويعلم وكانت مواعظه مليئة بالروحانية وبالقوة، وبلغ من أثر مواعظه على الأقباط فى ذلك الوقت، أن أثر الأنبا شنودة كان حتى على اللغة القبطية نفسها، التى كان الأقباط يتكلمونها، كان الأنبا شنودة من اخميم، وكانت اللهجة القبطية التى يتكلم بها هى اللهجة الإخميمية، وهى إحدى لهجات اللغة القبطية الخمسة التى سيطرت على هذا الإقليم، أقول بلغ من أثر الأنبا شنودة على الجماهير أن اللهجة الإخميمية سادت مصر كلها خمسة قرون متوالية، من القرن الخامس إلى القرن العاشر للميلاد، سيطرت اللهجة الإخميمية على مصر كلها وعلى الأدب القبطى، وعلى لغة التخاطب، وهذا يدل على مدى الأثر الذى أحدثه الأنبا شنودة لا على الرهبان وحدهم، وإنما على كل أقباط مصر، وكان معروفاً بحرارته وقوته، هناك فى الدير الأبيض بالقرب من سوهاج، يوجد مكان اسمه «المسخوطة» والمسخوطة هذه إمرأة، إمرأة ساقطة انتهزت فرصة إقبال عددا كبيرا من الشعب إلى الدير، ليستمع إلى المواعظ فاندست بين الناس كما يندس أمثالها فى أعياد القديسين إلى اليوم، لتسقط فى حبائلها أشخاصاً لتمضى معهم وبهم إلى الجحيم، فعلم الأنبا شنودة بأمرها وواجهها بخطاياها، ولما رآها طرازا من الأشرار مصرا على خطيئته متولعاً بالشهوة، غضب عليها وسخطها، فامتصها الحجر وصارت صلبة كالحجر كإمرأة لوط، وكل من يذهب إلى الدير يرى هذا المكان ويرى هذه المسخوطة، ويذكر لعنة الله وغضبه على النجاسة وعلى النجسين، كان الأنبا شنودة بروح إيليا وبقوته، وكان إيليا كما تعملون مشهوراً بحرارته، وأنه كان يتولع بالغيرة الإلهية، وهذا التولع كان ناراً، نارا محرقة على الأشرار، ونحن نعلم أنه كم من مرة سخط إيليا على بعض القادة الذين كان يرسلهم آخاب، ويقولوا له يارجل الله الملك يقول أنزل، فيقول لهم «إن كنت أنا رجل الله فلتنزل ناراً من السماء فتأكلك أنت والذين معك» فكانت تنزل ناراً من السماء وتحرق القائد والعسكر الذين تحت قيادته، ونذكر مواقف إيليا مع آخاب عندما قال له «كما لحست الكلاب دم نابوت اليزرعيلى تلحس الكلاب دمك أنت أيضاً» وحدث ما كان ينذر به إيليا آخاب، ونحن نذكر إيليا وما صنعه بأنبياء البعل وكيف أنه بعد أن فشلوا فى أن ينزلوا ناراً من السماء فتأكل الذبيحة التى قدموها كبرهان على صدق إلههم، ورفع هو صلاته إلى الله وقال له استجبنى يارب استجبنى فنزلت نار من السماء وأكلت المحرقة ولحست المياه التى حول المحرقة، وبعد ذلك قال امسكوا أنبياء البعل واقتلوهم فقتلوهم، وكانوا نحو أربعة مئة وخمسين من كهنة البعل من كهنة الأصنام، كان إيليا مشهوراً بأنه نارى، نارى فى غيرته، ولذلك حينما أختطف إلى السماء، نزلت مركبة من نار ورفعته إلى السماء وظل إيليا بلا موت إلى يومنا هذا لأن له رسالة، احتجزه الرب من أجلها، رسالة فى آخر الأيام حينما يظهر المسيح الدجال، فسينزل إيليا وهو محتجز الآن فى السماء، لأنه طراز نارى ورجل جبار، يحتجز لمواقف القوة، فسينزل إيليا لأن الحاجة إليه وإلى روحه القوية، لأنه لا يوجد أصلح منه ليواجه المسيح الدجال، هذا هو الأنبا شنودة الذى أتى بروح إيليا وبقوته،

كـان هذا هو الطراز من الرهبـان الأقـوياء الأشداء الذى لا يتـسـاهل، وكـان نارا على الأشـرار والمفسدين وعلى الخطيئة، فإذا غضب فويل لمن يقع عليه هذا الغضب، حتى اليوم فى الصعيد عندما يروا عقرب يقولوا ارصدها يا أنبا شنودة، إلى اليوم وتقف العقرب فى الحال، معروف هذا الرجل بصرامته، صرامة الراهب العنيف، الذى كان عنيفاً على نفسه، حتى أنه كان كما قلنا فى اسبوع الآلام، كان يصلب نفسه ليعيش مع آلام المسيح روحا وجسدا، هذا الرجل العنيف أراد أن يصطحبه البابا كيرلس الأول فى المجمع العظيم الذى انعقد فى مدينة أفسس سنة ٤٣١ ميلادية انعقد مجمع أفسس الأول، ويسمى بالمجمع المسكونى الثالث الذى انعقد بسبب بدعـة نسطور بطريرك القسطنطينيـة، الذى أنكر أن تسمـى العـذراء بوالدة الإله، وكـان هذا ينطوى فى ذلك الوقت على سوء إعتقاده فى لاهوت المسيح، ونادى بطبيعتين منفصلتين فى المسيح، وقال حقاً يأتى المسيح الإثنان الإله والإنسان، الأول مبـهـر بالمعجزات والثانى ملقى للإهانات، فجعل المسيح إثنين بدلاً من واحد، وكانت هذه البدعة الشنيعة التى فصلت بين لاهوت المسيح وبين ناسوته وبين الطبيعة اللاهوتية وبين الطبيعة الناسوتية، أدت بنسطور إلى أن يعتبر المسيح ولد كإنسـان، وقال أنا لا أسجد لطفل ابن ثلاثة شهور، لأنه ينكر ما صنعه المجوس الذين سجدوا لمولود بيت لحم وقدموا له هداياهم، بهذه الهرطقة الشنيعة سقط نسطور، وانبرى له البابا كيرلس الأول عـامود الإيمان القديس، الذى الآن يحترمـه ويجله جميع المسيحيين فى الشرق والغرب، لأنه استطاع بقوة حجته وبقداسة سيرته، وبمثابرته واحتماله لكل صنوف المتاعب، فى سبيل معارضة بطريرك المدينة العظمى القسطنطينية، التى كانت عاصمة الدولة البيزنطية فى ذلك الوقت، تعرض لكثير من المتاعب، ولكنه واصل كفاحه وجهاده، من أجل إثبات أنه ليس فى المسيح طبيعتين منفصلتين، وليس المسيح إثنين إنما اتحد لاهوت المسيح بناسوته فى طبيعة واحدة، فهو طبيعة واحدة من طبيعتين، طبيعة واحدة، طبيعة الإله المتجسد، ولا نستطيع أن نفصل بين لاهوت المسيح وبين ناسوته، فإذا فصلنا بين اللاهوت والناسوت كان هو الخطر على تدبير الفداء، لأنه يكون حينئذ الذى صلب من أجلنا إنساناً، والإنسان لا يكاد يفدى إلا واحدا، ولكن كل قيمة الفداء أن الإله اتحد بإنسانيتنا حتى يكون دم المسيح دما ثميناً، له القيمة الأبدية قيمة الله نفسه، وفى هذا يكفى جميع البشر، فالمفارقة بين اللاهوت والناسوت خطرا على قيمة الفداء، لذلك كانت المشكلة صعبة وخطيرة على الإيمان المسيحى، لأنها تهدد لا إيماننا فقط بلاهوت المسيح، وإنما تهدد خلاص الإنسان وتهدد تدبير الفداء، وتهدد كيان المسيحية كلها، ولذلك بعد سنوات من كفاح ونضال وكتابات متواصلة كان يرسلها بابا الأسكندرية كيرلس الأول تقرر أن يعقد مجمع فى أفسس فى كنيسة العذراء بمدينة أفسس، وإجتمع مئتان من أساقفة العالم لدراسة هذا الخطر، الذى نادى به نسطور، وثبت الأباء العقيدة وأيدوا موقف البابا كيرلس ورسالته العقائدية المشهورة، التى حدد بها إيماننا فى طبيعة المسيح، فى أنها طبيعة الإله المتجسد، وأنه لا يمكن أن يفصل بين لاهوت المسيح وبين ناسوته، وخطر هذا الفصل على

إيماننا بلاهوت المسيح وبالخلاص وبالعمل الكفارى الذى قام به المسيح، وبالتالى أثبت أيضاً فى استحقاق العذراء فى أن تسمى بوالدة الإله، والدة الإله لا بمعنى أنها أصل للاهوت حاشا، ولكن لأن الإله حل فى أحشائها واتحد بالإنسانية التى كونها من لحمها ومن دمها، وخرج من أحشائها الإله المتجسد، فبهذا المعنى صارت العذراء مستحقة بأن تسمى والدة الإله، كما دعتها أليصابات حينما قالت من أين لى هذا أن تأتى أم ربى إليِّ، ووضع البابا كيرلس مقدمة قانون الإيمان نعظمك يا أم النور الحقيقى، ونمجدك أيتها العذراء القديسة والدة الإله، وأقر المجمع الرسالة العقائدية التى وضعها البابا كيرلس الأول، واعتبرها رسالة معبرة عن الإيمان المسيحى، وأنها الرسالة الأرثوذكسية الدقيقة، التى تعبر فى أمانة وفى دقة عن عقيدتنا فى الإله المتجسد، وفى أن العذراء والدة الإله، وناقشوا نسطور ولما وجدوه متمسكاً بكفره حكم المجمع بإسقاطه من جميع درجاته الكهنوتية، وحكم الأمبراطور بناء على قرار المجمع بنفيه إلى إخميم، نفى نسطور إلى إخميم والناس يتساءلون لماذا إخميم بالذات؟! لأنها المكان الوحيد الذى لا يستطيع نسطور أن يصنع فيه شيئاً، لأنه فى أى مكان آخر قد يمكن أن يبث فيه سموم أفكاره، إلا اخميم حيث الأنبا شنودة هذا العملاق الروحانى، بوجوده يصير نسطور الذى كان بطريركاً للقسطنطينية كالقشة لا يساوى شيئاً، ولا يستطيع أن يؤثر على شعبنا، نفى إلى اخميم، وأصيب بعد ذلك بسرطان فى لسانه ومات نسطور شر ميتة، ودفن فى إخميم وبعد دفنه كان كل من يمر على قبره يرمى عليه حجراً، وأهل المدينة كانوا يحملون إلى هذا القبر أوساخاً وقاذورات، إلى أن أصبح على قبره تل يسمى حتى الآن بتل نسطور ، من يذهب إلى اخميم يسأل عن تل نسطور، وأما النساطرة أتباع نسطور فقد نفوا إلى خارج حدود الأمبراطورية الرومانية، فاستقروا فى بلاد العرب، وكانت لهم فى بلاد العرب أديرة، ومن بين هذه الأديرة النسطورية كان بحيرة الراهب النسطورى، الذى كانت له علاقة بمحمد نبى الإسلام، وهذه حقيقة مقررة ومعروفة فى الكتب والمراجع الإسلامية نفسها، فبعض الناس قالوا للبابا كيرلس الأول، لماذا تأخذ الأنبا شنودة مجمع أفسس؟ هل الأنبا شنودة رجل يفهم فى اللاهوتيات، لماذا تأخذه أو تصحبه معك إلى مجمع أفسس؟ حيث الأساقفة والعلماء، الذين يتناظرون فى الأمور اللاهوتية، ماذا يفهم هذا الراهب البسيط الذى لا يعرف اليونانية التى كانوا يتكلمون بها فى المجامع، لأنها اللغة العالمية فى ذلك الوقت، الأنبا شنودة لم يكن يعرف إلا القبطية الإخميمية، وكان متشدداً فى كلامه باللغة القبطية، حتى أنه ماكان يسمح لنفسه أن يستخدم كلمة واحدة يونانية فى داخل اللغة القبطية، فماذا يفهم الأنبا شنودة؟ فكان رد البابا كيرلس الأول أنا غير محتاج له فى المناقشات اللاهوتية، ولكن أنا محتاج لبركته، محتاج لصلواته أن يسندنى وأن يعيننى بصلواته التى يرفعها إلى الله، وفعلاً ذهب الأنبا شنودة ولم يشارك فى المناقشات اللاهوتية، ولكنه بصلواته وطلباته وضراعته ساند البابا كيرلس مساندة عجيبة، وانتصر البابا كيرلس وانتصر الإيمان الأرثوذكسى، ومما يرويه التاريخ أن البابا كيرلس وهو فى طريق العودة، وكانت وقتها المراكب شراعية، لم تكن توجد بعد المراكب البخارية،

وكانت المراكب نادرة نظراً لصعوبة السفر فى البحار، فلما رجع البابا كيرلس ومعه عدد كبير من الأساقفة والكهنة، وآخرين مما كانوا ذهبوا من تلقاء أنفسهم ليشهدوا المجمع المهم، فمع الزحام البابا كيرلس عندما دخل المركب وامتلأت، وبعد أن سارت المركب فى طريقهما إلى الأسكندرية، بعد أن تحركت المركب قليلاً تذكر الأنبا كيرلس الأنبا شنودة، فأخذ يبحث عنه وسط الناس، وبينما هو يفتش عنه إذ بالأنبا شنودة الذى لم يجد مركبا ولا مكاناً فى المركب، خطفته سحابة من السماء وكلم البابا كيرلس قائلاً، ها أنا يا أبى... وحدثت فى هذه اللحظة مناجاة روحية بين بابا الأسكندرية وبين الأنبا شنودة وهو على السحاب. هذا هو الأنبا شنودة فى روحانيته وفى تقواه، خدم الكنيسة وساندها بصلواته العميقة وشخصيته النارية، وغيرته المتقدة، كان من طراز إيليا ومن قوته، هذا هو الأنبا شنودة الذى من تأثر الأقباط به، صارت لهجة اخميم هى اللهجة الرسمية لمصر كلها خمسة قرون متوالية من القرن الخامس إلى القرن العاشر للميلاد، أما معجزاته التى أجراها الله على يديه، فهى عشرات ومئات من الأشفية ومن إخراج الشياطين أجراها الله على يديه وعشرات من الأمثلة عن غضبه إذا غضب وما يصيب الأشخاص عندما يقع عليهم غضب هذا الإنسان التقى القديس فكان يحل بهم غضب الله، نحن نحتفل اليوم فى السابع من أبيب من كل عام بذكرى نياحة هذا القديس، الذى صعدت روحه إلى خالقها وبارئها طاهرة نقية مقدسة صافية، عاش فى السماء وهو على الأرض فكان صديقاً للقديسين، لذلك لم يكن غريباً عليهم حينما ذهب إلى هناك، كان له هناك سحابة من أصدقاؤه، ومن قديسين من أعلى طراز، لم يكن هذا الإنسان كاهناً، فكان الأنبا شنودة كطراز الرهبان العظام الأوائل، الذين لم يقبلوا أن يساموا كهنة، حتى لا يخلط بين الرهبنة كطريق للعبادة وبين الكهنوت كطريق للخدمة، فكانوا عنيفين على هذا الفصل الواضح بين الكهنوت وبين الرهبنة، فكان كالأنبا أنطونيوس وكالأنبا بولا وكالأنبا باخوميوس وكالأنبا بيشوى وغيرهم، من عمالقة الرهبنة الذين فرضوا فرضاً على تلاميذهم أن لا يقبلوا الكهنوت مدى الحياة، حتى يحفظوا للرهبنة صفائها وهدفها الواضح، أنها لن تكون طريقاً للخدمة الكهنوتية، وإنما كطريق الملائكة كطريق السماء، طريق العبادة البحتة حتى لا يندس فيها إناس مما يريدون أن يصلوا إلى الكهنوت عن طريقها، كان الأنبا شنودة من طراز هؤلاء الرهبان الأوائل الذين نسميهم بأباء الإسكيم، الذين حرصوا على أن يحيوا كل حياتهم للعبادة وحدها، فى طريق التصوف البحت حتى يكونوا هم وتلاميذهم نموذجاً للنفس الراغبة فى العبادة وحدها، كطريق ملائكى يؤهل صاحبه لهذه الخدمة، خدمة الملائكة، أو كما يسمون فى المصطلح الكنسى الرهبان ملائكة أرضيون أو بشر سماويون، كان هذا هو الأنبا شنودة فى سيرته المقدسة فى يومه العظيم نرسل إليه تحياتنا، نبعث إليه برجائنا أن يصلى من أجلنا، وأن يذكر الكنيسة المجاهدة فى صراعها، لكى يعين المجاهدين ويبارك المناضلين المكافحين، أصحاب المبادىء والقيم الذين يصرون أن يكونوا دائماً لمبادئهم مخلصين إلى النفس الأخير.

كلمات عن الرهبنة (١)

+ (الرهبان) فهموا عن الله، وساروا إلى الله، وأعرضوا عما سوى الله، خرقت الحجب أنوارهم، وجالت حول العرش أسرارهم، وجلّت عند ذى العرش أخطارهم، وعميت عما دون العرش أبصارهم، فهم أجسام روحانيون، وفى الأرض سماويون، ومع الخلق ربانيون، سكوت نظار، غيب حضار، ملوك تحت أطمار. (التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذى ص ٤).

+ تركوا الدنيا فخرجوا عن الأوطان، وهجروا الأخدان (الأصدقاء)، وساحوا فى البلاد، وأجاعوا الأكباد، وأعروا الأجساد (التعرف ص ٥).

+ (الراهب) من صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر (الحقائق الروحية) وانقطع إلى الله من البشر، واستوى عنده الذهب والمدر (الطين) (التعرف ص ٩).

+ من لوازم الرهبنة : قلة الكلام، قلة المنام، قلة الطعام.

+ الوحدة هى ذلك البحر الذى يتصاعد منه الماء، فينعقد سحابا ويهبط أفكاراً من حين إلى حين.

الوحدة هى المحجر الروحى... الذى لا غنى عنه لكل صاحب رسالة عقلية أو دينية (فيكتور هيجو).

الوحدة هى الصفحة البيضاء التى يرسم عليها الإنسان مشاهد الطبيعة وخلجات الحياة.

مقال هام عن الرهبنة والتوحد بعنوان خطاب من مرشد روحانى حول حياة الكمال المسيحى ـ بمجلة مدارس الأحد سنة ١٦ عدد ٤ (مايو ١٩٦٢ ـ برمودة ١٦٣٨ صفحة ٧، ٨، ٩، ١٠، ١٣.

---

(١) كلمات عن الرهبنة جمعها نيافته بمعرفته.



منشورات أبناء الأنبا غريغوريوس

موسوعة الأنبا غريغوريوس

٣ - الرهبنة القبطية وأشهر رجالها

للمتنيح الأنبا غريغوريوس
أسقف عام
للدراسات العليا اللاهوتية والثقافة القبطية
والبحث العلمي

أسـئلة

والإجـابـات عليـها

١ ـ النظام الأنطونى والنظام الباخومى (١)

سؤال : ماهو الفرق بين النظام الأنطونى والنظام الباخومى فى الرهبنة؟

الجواب :

النظام الأنطونى : هو نظام التوحد Ⲙⲟⲛⲁⲥⲧⲏⲣⲓⲟⲛ بالمعنى الدقيق، نحن نسمى الدير منيستريون كنوع من أنواع التجاوز، لكن هذه تسمية أنطونية، والنظام الأنطونى كل راهب يعيش بمفرده، لا يوجد حياة جماعية، وكان الأنبا أنطونيوس الأب الأكبر يمر على كل راهب ويعطى له إرشاداته وتوجيهه، ويجيب على أسئلته ويحل له كل الإشكالات الشخصية، لم يكن هناك أسوار تحيط بالرهبان، الأسوار ظهرت فى عهد الأمبراطور زينون بعد رهبنة القديسة إيلارية.

النظام الباخومى : يسمى نظام الشركة Coenobitic- Κοινωνια ، نظام الحياة الجماعية، إن الرهبان يصلوا معاً، ويأكلوا معا ويشتغلوا معاً، لدرجة أن الأنبا باخوميوس عمل تصنيف فكان هناك بيت للخبازين وبيت للحدادين، وبيت للبنائين، وجعل الرهبان الذين فى مهن متقاربة يعيشوا معاً. ومن هنا جاءت فكرة الأجراس فى الأديرة، لتجمع الرهبان عند العمل أو الأكل، وجاءت فكرة القراية أو المقرأة التى يوضع عليها الكتاب الذى يقرأ منه أثناء الأكل، لكى لا تنشغل عقولهم بأفكار خارجية تفسد عقولهم، هذا النظام موجود الآن فى الأديرة الغربية.

وكان من ضمن المبادىء الباخومية التى أغفلناها اليوم فى أديرتنا، أنه يضع الرهبان المبتدئين كل ثلاثة معاً، وكان يرى أن الرهبان الثلاثة يشجعوا بعض ويقووا بعض ويسندوا بعض، حتى يحدث إشباع على نوع ما للغريزة الطبيعية، لأن الإنسان صعب أن يتغلب على الغريزة الإجتماعية أو الشعور الإجتماعى، وهذا الكلام قاله أرسطو: الإنسان كائن اجتماعى (سماه حيوان إجتماعى) فلا يمكن أن يحيا الإنسان فى غير مجتمع إلا إذا كان فوق الطبيعة أو تحت الطبيعة، فالإنسان اجتماعى بطبيعته فكونه ينتقل فجأة من المجتمع الكبير إلى التوحد المطلق، هذه قسوة غير طبيعيه وتؤدى عادة إلى الفشل.

فالأنبا باخوميوس كان يرى أن الثلاثة رهبان معا أفضل، يكون بينهما صداقة ويُصلُوا معا، ويراقبوا بعض ولو أخطأ أحدهم يلفت نظره الثانى، وتحدث بينهم نوع من المناقشة الروحية الطبيعية التى تفيدهم.

---

(١) إجابة على سؤال بدير القديس باخوم بحاجر ادفو فى مساء الأحد ١٣/ ١/ ١٩٨٠م ـ ٤ طوبه ١٦٩٦ ش. نقلاً عن شريط كاسيت

والرهبنة لم تكن موجودة بالشكل المعروف إلا إبتداء من الأنبا باخوميوس، فأصبح هناك شكل معين، وحتى الراهبات أيضاً، أخت الأنبا باخوميوس هى التى أقامت نظام الراهبات، قبل ذلك كان هناك مايسمى نظام خورس العذارى فى الكنيسة، والسيدة العذراء هى التى بدأت نظام الخورس، وتبعها بعد ذلك عذارى أخرى، وكانت تصلى معهم وكانت رائدة لهم، وكان يعرف بعذارى جبل الزيتون، وفى الدسقولية تجد هذا الكلام عن خورس العذارى.

٢ - حياة الراهب داخل القلاية (١)

سؤال :

نريد فكرة عن حياة الراهب داخل القلاية وكيف ينظم وقته فيها؟ وإذا إنتاب الراهب الملل مع طول المدة فكيف يدفعه عنه؟

الجواب :

الحقيقة الراهب المفروض أنه يقضى وقته بين ثلاثة أشياء، أى يقسم وقته بين ثلاثة إتجاهات:

(١) العبادة أو التعبد.

(٢) الدرس : القراءة والدراسة فى الكتب المقدسة وأيضاً الكتب الأخرى النافعة والمفيدة.

(٣) العمل اليدوى.

وهناك تحذيرات خصوصاً أنبا باخوميوس أب الشركة يقول الراهب الذى يعمل يحاربه شيطان واحد والراهب الذى لا يعمل يحاربه شياطين كثيرة.

من هنا كان مبدأ الحياة الإشتراكية، وأن الرهبان يعملوا معاً.

والحقيقة منعا من الملل الراهب يقسم وقته بين هذه الإتجاهات.

وأيضاً هناك تحذيرات من أن الراهب لا يعيش حياة الكسل، وينصح الأباء أنه يجب أن الراهب لا يسمح لنفسه بدقيقة واحدة بلا عمل، سواء كان عبادة أو دراسة أو عمل يدوى. إنما تختلف المسألة من واحد إلى آخر، فنجد بالنسبة للمبتدئين المفروض أن العمل يكون أكثر من العبادة ومن الدراسة، أى أن النشاط الجسمانى يكون أكثر، وطبعاً الأباء ينصحوا بهذا لئلا يصيب الإنسان الملل. وكلنا نعلم قصة أن الملاك ظهر للأنبا انطونيوس وعرفه لكى يغلب الملل أنه يصلى جزء من الوقت ويشتغل فى الجزء الآخر بحيث لا يعطى وقت للأفكار.

ففعلاً مفروض أن الراهب يملأ وقته كله بما هو نافع، والنافع هنا مثل ماقلنا النشاط الجسمانى وأيضاً العبادة وأيضاً الدراسة.

وتختلف نسب هذه النشاطات الثلاثة حسب درجات الرهبنة أو مقامات الرهبنة السبعة، لذلك نصيب الراهب من هذه الثلاثة أشياء يختلف حسب التطور الروحى للراهب.

---

(١) حديث إلى رهبان دير القديس الأنبا صموئيل المعترف فى يناير ١٩٩٠م نقلاً عن شريط كاسيت.

كما أن الراهب المبتدىء لا يقدر أن يكون عنده الطاقة الروحية التى يحس بها لذة الصلاة ساعات متواصلة، كما يحسها المتقدمين، وهذا هو السبب أنه فى تقليد الرهبنة يعطوا للمبتدئين أعمال المجمع، من أجل المبدأ الذى قاله الأنبا باخوميوس الراهب الذى يشتغل يحاربه شيطان واحد والذى لا يشتغل يحاربه شياطين عدة، وهذا هو السبب أن أنبا باخوميوس عمل نظام الشركة على أساس أنه مرحلة متوسطة بين حياة الإنسان فى العالم (المجتمع الكبير) وبين التوحد المطلق وهو المفروض أن يكون آخر شىء يصل إليه الراهب، فلابد أن يكون نصيب الإنسان المبتدىء فى الرهبنة من العمل اليدوى أكثر من نصيبه الذى يعطى للصلاة والدرس.

٣ ـ هل هناك سواح الآن ؟ (١)

سؤال :

هل هناك سواح الآن؟

الجواب :

نعم: يوجد أشخاص رأوا خارج دير المحرق دير آخر مخفى عن الأنظار، غير ظاهر للكل، لكن فيه ناس شافوا فعلاً سواح، فطبعاً هناك سواح؟ نعم، ومن وقت لآخر نلتقى ببعض أشخاص فى مناسبات معينة، يدل على أنه فيه بعض الناس فى مرحلة السياحة فى البرية الجوانية، لكن فيه هناك أشخاص بيلتقوا بالسواح.

وأريد أن أقول. أن هناك أشخاص يروا فى فترات معينة وفى كنائس مغلقة رهبان سواح، فمثلاً يروى الأنبا لوكاس مطران منفلوط وابنوب وكان أصلاً من دير المحرق قبل أن يرسم أسقفاً، عن أبونا ميخائيل البحيرى وكان رجل روحانى جداً وفى درجة السياحة، وكان أب اعتراف الدير كله، وتنيح سنة ١٩٢٢ وكان كبير السن. مع النسك ومع الشيخوخة وهذا فى كتاب خليفة الأنبا ابرام. ويقصد به الأب ميخائيل البحيرى، فيقول إنى أنا لاحظت أن أبونا ميخائيل دخل الكنيسة وخرج عدة مرات وهذا على غير عادته فلفت نظرنا، فيقول أنا كنت خالع الجزمة فمشيت وراءه فوجدته طلع خارج الكنيسة الأثرية بالدير المحرق على سلم كان يؤدى إلى كنيسة للأحباش ـ ولكن سنة ٣٦ وجدوا منهاخطورة على الكنيسة الأثرية فهدمت ـ فوجدته يتكلم مع واحد راهب غريب عن الدير،.

ورواية أخرى قصها الرهبان، أنهم يصلوا يومياً قداس فى الكنيسة الأثرية حسب التقليد، ففى الساعة ٢ بعد منتصف الليل تبدأ التسبحة وتأخذ ساعتين وبعد ذلك رفع الحمل وبعد ذلك القداس، فابتداء من ١,٣٠ الرهبان ابتدأوا يتحركوا نحو الكنيسة، الكنيسة لها باب يقفل بمفتاح خشب وسهل جداً فتحه، وعادة بمجرد فتحه الباب يفتح بدون أى مجهود، فقال الآباء الرهبان إننا بعد أن فتحنا الباب بالمفتاح،.وجدنا صعوبة فى فتح الباب وكأن قوة صادة من الداخل مانعة من فتح الباب، حاولوا كلهم ففشلوا ولم يحدث هذا الأمر من قبل، فذهبوا للأسقف الأنبا باخوميوس الأول وقتها وقالوا له الباب لا يفتح قال: غريبة كيف؟ قالوا، إننا نحس أن قوة ضاغطة من الداخل، فقال لهم أحضروا أبونا ميخائيل البحيرى، فلما حضر قال له الأسقف اذهب افتح الباب يا أبونا ميخائيل، فذهب ووضع يده على الباب وقال انفتح يا مبارك فانفتح، الرهبان قالوا إننا سمعنا صوت أرجل كانت خلف الباب. فكيف تفسر هذا؟ طبعاً لاشك كانت أرجل السواح.

الخلاصة إن فيه سواح؟ لا نقدر أن نقول أن هذا الباب أغلق أبداً.

---

(١) فى دير القديس الأنبا صموئيل المعترف فى يناير ١٩٩٠م ـ نقلاً عن شريط كاسيت.

٤ - هل يوجد سواح من العلمانيين؟

سؤال : هل يمكن أن يكون سواح من العلمانيين؟

الجواب :

ممكن فى بعض الأحيان، يكون فيه ناس طيبين من العلمانيين، وقلوبهم رقيقة ويكون عندهم جلاء بصرى ويروا رؤى. مثلاً الأنبا رويس ، كان رجل يبيع الملح، لم يكن راهباً ولم يكن كاهناً، إنما وصل لدرجة السياحة.

فالسواح موجودين وهذا الطريق لا يمكن أن يغلق أبداً أبداً، سيظل بإستمرار لأن الروحانية طريق مفتوح، فلماذا يكون فى القديم ولا يكون الآن؟ ما هو العائق؟ العائق فى الإنسان نفسه، لكن من جهة الإمكانية موجودة.

٥ - هل الرهبنة طريق التوبة؟ (١)

سؤال : هل الرهبنة هى طريق التوبة؟

الجواب :

هى فُهمت على أنها طريق التوبة، ولكن ليس على أساس أن أى واحد يسير فى طريق الخطية فيسمع كلمة وعظ فيقول أتوب فأترهبن؟ لا..لا.. كلمة الرهبنة طريق التوبة بمعنى أن ممارسات العبادة التى يمارسها الراهب فى حياة الرهبنة، من شأنها أنها تعطيه التوبة اليومية عن أخطائه كل يوم، بمعنى أنه يحاسب النفس ويتوب عن الأخطاء التى يشعر بها كل يوم، لكن إنسان ضال وتائه وبعيد عن ربنا ثم يسمع كلمة أو عظة وأثرت فيه وفكر أنه يتوب فيذهب للرهبنة!!؟ مستحيل طبعاً لأنه ممكن جداً لا يصلح للرهبنة.

٦ - حياة البتولية (٢)

سؤال :

كلام بولس الرسول فى كورنثوس الأولى ٧ الواضح أنه بيدفع الناس دفعا إلى طريق الرهبنة؟

الجواب :

لا.. لا.. ليس طريق الرهبنة، بولس الرسول لا يقول الرهبنة، هو يتكلم عن البتولية ونحن قلنا أن هناك فرق بين البتولية والرهبنة، البتولية معناها أن الإنسان يعيش ٣٠، ٤٠ سنة، ٥٠ سنة، ٧٠ سنة، ٨٠ سنة الحياة قصيرة، فالإنسان إذا كان فى إمكانه وعنده دعوة وعنده إستعداد وعنده إحتمال، أن يعيش متبتل ويكرس روحه وجسده وعقله وذهنه وأعصابه وكل قدرته فى الحياة هذا يكون أفضل، إنما لا يكون على الرغم منه، لازم بإختياره. لذلك قال الرسول من تزوج يفعل حسنا بدلا من أن يعيش البتولية مع التحرق.

---

(١)، (٢) فى دير القديس الأنبا صموئيل المعترف فى يناير ١٩٩٠م. نقلاً عن شريط كاسيت.

٧ ـ هل الرهبنة نتيجة أمر إلهى فى الكتاب المقدس (١)

سؤال :

هل هناك أمر إلهى فى العهد الجديد أو العهد القديم للرهبنة ؟

الجواب :

الكلام عن الرهبنة هو الذى قاله السيد المسيح له المجد: «إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع كل مالك ووزعه على الفقراء وتعال اتبعنى» مرقس ١٠ : ٢١ ، متى ١٩ : ٢١ ، إن أردت أن تكون كاملاً لذلك يسمى طريق الرهبنة طريق الكمال. على أساس أن فيه تطبيق لهذا المعنى ، وهذا هو الذى سار عليه الأنبا أنطونيوس عندما ذهب إلى الكنيسة ، وسمع الإنجيل يقول هذا الكلام ، قال لابد أن أنفذ هذا الكلام فباع أملاكه ووزعها على الفقراء وترك العالم وذهب للتعبد فى الصحراء.

أما كلام بولس الرسول ليس عن الرهبنة ولكن كلامه عن التبتل.

ومتى ١٩ عن التبتل أيضاً لما قال «خصوا أنفسهم من أجل ملكوت الله». التبتل أحد مقومات الرهبنة ، أحد مقومات الرهبنة هو التبتل. إنما الرهبنة فيها غير التبتل فكرة الإعتزال ، وفكرة الفقر الإختيارى وهذه موجودة فى الآية التى قالها المسيح «إن أردت أن تكون كاملاً اذهب بع كل مالك واعط الفقراء.. وتعال اتبعنى حاملاً الصليب» (مرقس ١٠ : ٢١).

إذن الرهبنة حمل الصليب؟

نعم حمل الصليب ، لأن فيها معاناة وفيها جهاد وفيها الإنسان يصلب شهواته ، يقف ضد رغباته ، فطبعاً فيها صلب وفيها معاناة ، وكونه يقطع العلاقات أو يضحى بعلاقاته مع الأسرة ومع العائلة ، مفيش شك أن هذه معاناة ليست قليلة ، طبعاً الإنسان إجتماعى بطبعة مثل ماقال أرسطو ، لا يقدر الإنسان يحيا بعيداً عن المجتمع إلا إذ كان فوق الطبيعة البشرية أو تحت الطبيعة البشرية ، فليس من السهل إن الواحد يعتزل أقربائه أو أصدقائه ، يحيا بعيداً ، فهذه تعد تضحية ومعاناة ، وكونه يستغنى عن إحتياجاته المادية ويعيش فقير هذه أيضاً معاناة ، وكونه يذهب إلى مكان نائى لا يعرف ما يصيبه فى هذا المكان هذه أيضاً معاناة ، وكونه يقف ضد رغباته وحتى ضد الحاجات المباحة مثل الأكل والشرب ، أكيد إن الراهب وخصوصاً المتوحد لا يوجد عنده الإمكانيات ، من الطعام والشراب والمسكن والملبس وما إلى ذلك مثل إمكانيات الإنسان الموجود فى العالم. أحياناً فيه بعض الرهبان لا يملك إلا ثوب واحد وقد يكون ممزق ، مثلاً يوحنا المعمدان كان يلبس وبر الإبل ومنطقة من جلد على حقويه ، فهذه معاناة إن الواحد يكون له ثوب واحد

---

(١) فى دير القديس الأنبا صموئيل فى يناير ١٩٩٠م ـ نقلاً عن شريط كاسيت.

وتكون له ظروف قاسية بهذا الشكل، وفيه بعض الرهبان المتوحدين تدخل فى قلايته لا تجد أى شىء، أبدا، فطبعاً هذه معاناة ليست قليلة، فلما المسيح يقول «يحمل صليبه» واضح من هنا أن المقصود بحمل الصليب كل أنواع المعاناة التى يعانيها الراهب، سواء فيما يتصل بصلب الشهوات أو الرغبات حتى المباح منها وهو مثلاً موضوع الأكل والشرب والمسكن واللباس وحاجات مثل ذلك مباحه، لكن كونه يقسو على نفسه حتى أنه يستغنى حتى عن الضروريات، أو يأخذ منها القليل جداً، وكونه يخرج من وسط أهله وعشيرته ويستغنى عن وظيفته وعن عمله كل هذا معاناة. كونه يختار الفقر طبعاً كل هذا معاناة.

٨ - التكريس والرهبنة (١)

سؤال :

هل يوجد علاقة بين التكريس للخدمة فى العالم وبين الرهبنة؟

الجواب :

فيه علاقة، فيه علاقة بتعتبر غالباً شبيهه بخدمة مريم وخدمة مرثا، دائماً يصطلح على إن خدمة مريم التى فضلت أنها تجلس عند قدمى المسيح وتسمع كلامه وتستفيد من هذا الكلام، أنها تعد رمز للحياة الرهبانية التى فيها يترك الواحد كل شىء ويكون مخصص حياته كلها لهذا التعبد.

خدمة مرثا بترمز إلى حياة الخدمة فى العالم، طبعاً خدمة ضرورية ومفيدة، إنما نوع آخر من الحياة، لا تعد ضد حياة مريم، إنما تعد مكملة لها ولكن من زاوية أخرى والإثنين يكملا بعض.

فيه مدح لإختيار مريم هنا؟

نعم فيه مدح، على أساسِ نوع منِ أنواع التفضيل، لكن مرثا عملها له قيمته. أنا أريد أن أقول أن هناك فرق بين خدمة العالِم والمعلّم، العالِم هو الشخص الذى يقبع فى مكانه ويحاول أن يدخل إلى أعماق العلم والمعرفة، ويضع مؤلفات وكتب أو كشوف علمية.

ولكن المعلّم يأخذ ماعمله العالِم ويقدمه للناس أو للتلامذه، فالمعلم بيعتمد على العالِم، لأن العالِم بيعد الكتب، التى يأخذها المعلم وينقلها للطلبة، العملين مع بعض مكملين لبعض. والإثنين عملهم مفيد، لكن هذا من زاوية والآخر من زاوية أخرى. لكن لا يوجد تعارض بين الأثنين، فالشخص بيكون عنده إستعداد أن يكون معلم أفضل من أن يكون عالم، وهناك آخرين ليس

(١) فى دير القديس الأنبا صموئيل فى يناير ١٩٩٠م - نقلاً عن شريط كاسيت.

عندهم إستعداد أن يكونوا علماء أكثر من أن يكونوا معلمين، كلنا رأينا مثلاً فى المدارس، أمثلة من الأساتذة تجده فى ذاته كويس جداً جداً، لكن لا يستطيع أن يشرح جيدا. لا يوجد عنده مقدرة على الشرح ولا مقدرة على ضبط الفصل. إنما مثلاً عنده فهم أو ذكاء أو قدرة علمية، أتذكر أيام ثانوى كان عندنا مدرس أول رياضة، هذا الرجل من سوء حظ الفصل كان هو مدرس الفصل، وكان أكثر أساتذة الرياضة نبوغاً لدرجة المسائل أو التمارين التى يعجز عنها الأساتذة بلمحة سريعة يستطيع حلها، فهو كان معروف فعلاً أنه الأستاذ الأول، إنما لا يعرف أن يشرح أبداً إطلاقاً ، كان وجوده أو عدمه فى الحصة سواء، . على الرغم من أنه هو مدرس أول رياضة. فيه واحد آخر كان أقل منه كفاءة فيما يتصل بالقدرة العقلية إنما كان عظيم جداً كمعلم، عاوز أقول هذه موهبة وهذه موهبة أخرى، الإثنين ليسا ضد بعض لكن الإثنين يكملا بعض، لكن المفروض كل واحد يرى أين موهبته، هذا هو الفرق بين العالِم والمعلِّم، كذلك المفروض أن يكون هناك فرق بين مريم ومرثا، وبين الخدمة التى يسموها خدمة الملائكة التى هى التعبد الخالص، وهى اجترار الحياة الروحية والدخول إلى أعماقها، ثم المعلمين فى الكنيسة الذين يأخذوا الخبرات الروحية التى وصل إليها كبار هؤلاء الناس المتصوفة، ويأخذوا من ثمرات هذه الحياة الروحية العالية ويقدموها للناس فى الكنيسة، بينما هؤلاء الناس دفنوا أنفسهم فى أماكن بعيدة وحصلوا على خبرات روحية، هذه الخبرات الروحية ظهرت منهم فى حياة تلاميذهم من جهة وفى الكتب التى وضعوها من جهة أخرى. تجد مثلاً واحد مثل الأنبا أنطونيوس، الأنبا بولا، الأنبا بيشوى، الأنبا شنوده رئيس المتوحدين، أبو مقار غيره غيره غيره، كل هؤلاء العمالقة تركوا تلاميذ من ورائهم من القديسين، ثم تركوا سيرة حية كلنا عايشين عليها لغاية اليوم، ثم تركوا كتب لأن خبراتهم كتبت فى كتب ومؤلفات موجودة فى مخطوطات الآن بالأديرة ويقرأها الرهبان أو غيرهم لينتفعوا بها.

٩ ـ هل الرهبنة هروب من الحياة؟ (١)

سؤال :

هل الرهبنة هروب من الحياة؟

الجواب :

كلمة رهبنة فى العربى من رهب يرهب، أو جزع يجزع فحالة الرهبنة هى حالة الجزع، وهى مخافة الله حينما ترتسم فى نفس الإنسان. فالراهب هو الإنسان الذى بإرادته يرغب أن يحيا حياة الملائكة على الأرض، وهى حياة الصلاة التى بلا إنقطاع، بدلاً أن يعطى جزء من حياته لله، يقول لماذا لا أعطى حياتى كلها لله؟ السيد المسيح له المجد قال إن أردت أن تكون كاملاً اذهب وبع كل ماتملك ووزعه على الفقراء وتعال اتبعنى حاملاً الصليب، وهذا هو السبب الذى يقولوا من أجله أن الرهبنة طريق الكمال، لأن المسيح قال إن أردت أن تكون كاملاً اذهب وبع كل ماتملك، لكن الرهبنة الحقيقية ليست هربا من الحياة، ولا هربا من إلتزامات الحياة الزوجية أبداً، مثل هذا الإنسان لا يكون راهباً أبداً على الحقيقة، وإنما يكون إنسان هارب من نفسه وهارب من مسئولياته، إنما الراهب ليس هو الإنسان الفاشل، الراهب الحقيقى هو إنسان يطمع فى أن يحيا مع الله مقدسا جسداً وروحاً، وبدلا من أن يعطى جزء من وقته لربنا يعطى وقته كله لربنا ويعطى أعصابه وجهده مثل خدمة الملائكة، الكاروبيم الآن هم حملة العرش، ماهى خدمتهم؟ واقفين طول الوقت من يوم خلقتهم حتى الآن، واقفين طول الوقت رافعين وحاملين العرش الإلهى، تصور من يوم الخليقة حتى اليوم، من يوم ماخلق الله النور اليوم الأول، الخلقة الأولى، الملائكة واقفين لم يتعبوا من الوقوف، إنه واقف أمام الله، هذه الوقفة وقفة التعبد، الملاك جبرائيل لما ظهر لزكريا قال له: أنا جبرائيل الواقف أمام الله، لذلك الرهبان يريدون أن يعيشوا حياة الوقوف أمام الله وهى خدمة الملائكة، لذلك إيليا النبى وهو راهب بكل معنى الرهبنة يقول: حى الرب الذى أنا واقف أمامه، هذا يعنى أن إيليا النبى كانت حياته كلها حياة التعبد واقف أمام الله، وماكان ينزل إلى العالم إلا ليؤدى رسالة، ليبلغ رسالة الله مثلاً إلى الملك آخاب وإلى غيره ولكن على الرغم من ذلك كان يعود مرة أخرى لحياة الوقوف مع الله.

فالرهبنة الحقيقية ليست هرباً من العالم ولا هرباً من مسئوليات الحياة الزوجية، إنما الرهبنة الحقيقية هى حياة الوقوف أمام الله، والصلاة التى بلا إنقطاع، عندنا فى الكتاب المقدس ذبيحة السلامة وتوجد ذبيحة المحرقة، ذبيحة السلامة، عندما يكون أحد مريض ثم شفى فلكى يشكر الله يقدم ذبيحة شكر لله، أو كان مسافر ورجع بالسلامة فيقدم ذبيحة شكر لله، أو كان فى ضيقة

---

(١) محاضرة بكنيسة السيدة العذراء بادفو فى مساء السبت ١٢ يناير ١٩٨٠م نقلاً عن شريط كاسيت.

وتخلص من هذه الضيقة يقدم هذه الذبيحة، هذه الذبيحة ذبيحة السلامة، كان بعضها يحرق على المذبح بالنار، وجزء منها يأخذه الكهنة كنصيب لهم، لأنهم ليس لهم نصيب من أهل العالم إلا هذا النصيب، وجزء يوزع على الفقراء والمساكين، والجزء الرابع يأخذه مقدم الذبيحة ليأكل منه هو وإمرأته وأولاده ليفرحوا معاً.

فذبيحة السلامة تجزأ إلى أربعة أجزاء الله له ربع والكهنة لهم ربع والفقراء والمساكين لهم ربع، ومقدم الذبيحة مع إمرأته وأولاده لهم ربع. إنما ذبيحة المحرقة، كلها تحرق لله بالنار، لا يبقى منها شيء لكاهن ولا للفقراء أو المساكين أو مقدم الذبيحة، إنما كلها تحرق لله عبادة له، العلامة أوريجينوس يقول هذا هو الفرق بين ما يعطى جزءا من حياته لله مثل سائر المؤمنين، وبين المتبتل أو المنقطع، لأن فى ذلك الوقت لم يكن يوجد طريق الرهبنة بالطريق المعروف الآن، فقال المتبتلون أو المنقطعون بالتبتل والبتولية لله، مثل ذبيحة المحرقة، كما قال الرسول بولس يكون مقدساً جسداً وروحا، أى مدشنا لا يبقى منه شيء لأحد من البشر إنما كله لله.

هذا هو معنى الرهبنة بالمفهوم الدقيق.

١٠ ـ الرهبنة أم الخدمة (١)

سؤال :

ما رأى قداستكم فى إنسان خادم يريد الرهبنة، ولكن البلد فى إحتياج كبير إليه. هل يرسم كاهن؟ وهل الرهبنة أفضل أم الخدمة فى الكنيسة؟

الجواب :

الرهبنة موهبة وإستعداد، والخدمة موهبة وإستعداد. وهما ليسا ضد بعض، بل يكملا بعض. لكن المهم أن الواحد يعرف استعداده وأهليته. إنما الحقيقة أن الإنسانية بصفة عامة فى حاجة إلى مختلف أنواع المواهب. كل موهبة تكمل الأخرى لكن كلمة هذه أفضل أو لا، هذا نافع أو لا.. هذا خطأ، هذا طريق وهذا طريق ولكن الإثنين ليسا ضد بعض ولكنهما يكملا بعض.

ونحن بصفة عامة كمبدأ عام معروف أن المسيحية ترى أن البتولية أفضل من الزواج. لأن البتولية معناها أن الإنسان يعطى حياته كلها، ويركز كل إهتمامه ويفرغ كل طاقاته النفسية والفكرية والعقلية والعصبية والجسدية لله وحده، بحيث أن الواحد يصير كله محرقة لله لا يبقى منه شيء لنفسه ولا لأسرته بل كله لله. مثل الفرق فى العهد القديم ما بين المحرقة وذبيحة السلامة. طبعاً كمبدأ عام البتولية طريق أفضل وخاصة إذا صاحب البتولية الرهبنة. ومعنى الرهبنة إختيار الفقر وإعتزال العالم للتعبد، لأنه جائز أن الراهب لا يكون بتول، فممكن أن يكون سبق له الزواج، وأراد بعد ذلك أن يترهب، إنما المهم فى الرهبنة اعتزال العالم للتعبد وإختيار الفقر. فإذا صحب نذر البتولية الرهبنة أى إلى جانب نذر التبتل كان هناك اعتزال عن العالم للتعبد واختيار الفقر هذا يكون أفضل، فالرهبنة هى إعطاء الحياة كلها لله وإعطاء الوقت كله. لأن الخدام المتبتلين المقيمين فى العالم هناك جزء كبير من وقتهم يعطى للخدمة طبعاً هذا عمل مقدس. لكن خدمة الرهبان من طراز آخر بنسميه خدمة الملائكة. كما أن الملائكة وقوف أمام العرش الإلهى ليلاً ونهارا يسبحونه، كذلك الرهبان أيضاً، وهذه فلسفة الرهبنة الأصيلة أن الراهب الذى يترك العالم ويتفرغ تفرغاً تاماً لحياة الصلاة التى بلا إنقطاع، التى قال عنها الرسول بولس فى رسالته الثانية إلى تسالونيكى، الصلاة التى بلا إنقطاع، هذه فلسفة الرهبنة للوصول إلى مراحل الروحانية العالية التى تنتهى بما يعرف بالإتحاد بالله، وإلى ما يعرف بالرؤيا الطوبانية والشخوص التام فى الله، والفناء المطلق فى الله، فيصير الإنسان لا وجود له فى ذاته، إنما وجوده فى الله، ينحل عن الكل ليصبح متحداً بالواحد، وهذا طريق يحتاج وقت طويل

(١) إجابة على سؤال بكنيسة القديس يوحنا الحبيب بنجع حمادى فى مساء الثلاثاء ٢٥ / ١١/ ١٩٧٥م ـ ١٥ هاتور ١٦٩٢ ش ـ نقلاً عن شريط كاسيت.

ويحتاج رياضات مستمرة حتى يرتفع الإنسان شيئاً فشيئاً فوق المادة وفوق الجسد، إلى أن يصل إلى المراقى الروحانية العالية السامية التى فيها يصير شبيهاً بالملائكة. لاشك أن هذا الطريق أفضل كثيراً. لأنه يحدث تطهير كامل لكافة القوى والطاقات الإنسانية والحصول على الشفافية العالية، التى فيها تنعدم الذات إنعداماً يكاد يكون تاماً، وهذه هى فلسفة الرهبنة العالية. هذه هى القضية العامة. ولكنى لا أستطيع أن أقول أيهما أفضل الزواج أو التبتل أو الرهبنة لهذا الإنسان، لأنه لابد للنظر إلى استعداد هذا الإنسان وإلى قدرته وإلى إمكاناته، فما يصلح لهذا قد لا يصلح لذاك، ممكن جداً أن يكون الزواج لشخص أصلح بالنسبة له، ويمكن أن يعطى طاقات للخدمة الإلهية أفضل مما لو أنه تبتل وعاش فى تحرق، هنا لا تصلح له البتولية لأنه سيعيش معذباً وتتبعثر طاقاته الحيوية فى ضبطه لقواه، شخص آخر لو أنه تزوج لكان الزواج بالنسبة له يعطله عن الحياة التى يميل إليها ويرغب فيها، بل وأحياناً يكون الزواج بالنسبة لبعض الناس مشكلة، فقد يشقى المرأة التى يتزوجها. والعكس أيضاً بالنسبة للمرأة.

إذن ليست البتولية أفضل من الزواج بالنسبة لكل واحد. لهذا الإنسان أحسن. فقد تكون أفضل لإنسان، ولكن لإنسان آخر أفضل أن يتزوج من أن يتبتل ، لأن لكل واحد استعداده وميوله وإمكانياته، فما يصلح لهذا قد لا يصلح لذاك.

أما من جهة الخدمة. فنقول أن الرهبنة طريق وهناك من يصلح لهذا الطريق، وهذا الطريق نافع ومفيد للكنيسة. لأن الرهبان يعطوا شحنات روحانية عالية، ويصلوا إلى خبرات روحية، هذه الخبرات الروحية تشحن الكنيسة بالروحانية، وتسند الكنيسة بالروحانية وتعطى قوة للكنيسة عن طريق صلوات هؤلاء الأباء وحياتهم المقدسة، إن أمثال هؤلاء الناس يشفعوا فى البشر ويمكن لولا وجودهم لكان غضب الله ينزل على البشرية. مثل ما قاله ربنا لأبونا إبراهيم «إن وجد هناك خمسون باراً فى المدينة أصفح عن المكان كله من أجلهم» فوجود الأبرار فى وسط الناس فى العالم يشفع فى العالم.

فالرهبان قوم نافعون بل سميهم ملائكة أرضيون أو بشر سمائيون، وليس كل الناس يصلحوا للرهبنة، لكن لا نقول لأن الراهب يعيش فى الدير وبعيد عن العالم فلذلك لا نستفيد منه شيء، لا.. نحن نستفيد من الراهب من صلواته ومن شحناته الروحية العالية بالسيرة المقدسة العطرة التى تعيش عليها الكنيسة مئات السنين، نحن حتى اليوم نردد سيرة القديس الأنبا أنطونيوس، والأنبا بولا والأنبا باخوميوس والأنبا بيشوى، فسيرة هؤلاء الرهبان سيرة عطرة نافعة ورائحة ذكية تعيش عليها الكنيسة أجيال.

إذا خدمة الرهبنة نافعة، وأيضاً الخدمة فى العالم نافعة . الإثنين يكملا بعض. نحن ككنيسة محتاجين إلى الإثنين معاً، وهذا طريق وذاك طريق ولا نستطيع أن نقول أيهما أفضل، لأنه كما قال الرسول كل واحد بحسب دعوته.

أما الشخص الذى يريد أن يعرف ماهو الأفضل له شخصياً، الرهبنة أو الخدمة فى العالم، فهذا يحتاج أن يدرس الشخص نفسه، قبل أن يعلن عن ذلك لأسرته وأفراد عائلته، ويسترشد بمن لهم خبرة، وأولهم أباء الإعتراف ممن يكونوا نافعين فى هذه الإستشارة وذلك قبل أن يقرر نهائياً، إذا كان يصلح لأن يعيش راهباً أو يعيش خادماً فى العالم.

١١ - القوانين والنظم الرهبانية

سؤال :

القوانين والنظم الرهبانية هل وضعها مؤسسو الرهبنة بحسب عقولهم البشرية وخبرتهم أم بإرشاد الروح القدس؟

الجواب :

أولاً : يجب أن نفرق تفرقة واضحة بين قوانين الكنيسة التى تسرى على جميع المؤمنين بما فيهم رجال الدين - وبين قوانين الرهبنة، وهى قوانين وضعت لتنظيم الحياة الرهبانية لمجموعة من الناس ارتضت إختيارياً أن تحيا حياة التبتل مع إعتزال العالم للتعبد فى الصحارى والجبال.

وعلى ذلك فليس كل مؤمن ملتزماً بقوانين الرهبنة إنما يلتزم بقوانين الرهبنة فئة خاصة من بين المؤمنين.

ثانياً : المفروض فى قوانين الرهبنة أنها لا تتعارض مع قوانين الكنيسة، فالراهب كأى مؤمن لا يجوز له أن يكسر قانوناً من قوانين الكنيسة. ولا يجوز أن يكون فى قوانين الرهبنة أى قانون يتعارض مع قوانين الكنيسة.

ثالثاً : أن قوانين الرهبنة تقوم أساساً على تنظيم حياة الرهبان فى داخل مجتمعهم الخاص حتى يتوافر للراهب الحياة الرهبانية السليمة التى تبلغ به إلى غايات الرهبنة السامية.

وهذه القوانين لا تخرج فى مجملها عن تنظيم حياة الراهب الخاصة من صلاة ومطانيات إلى صوم إلى إعتراف وفحص للضمير ومراعاة الصمت والسكون وتناول من الأسرار المقدسة، إلى الزىّ الذى يرتديه والعمل اليدوى الذى يقوم به، وساعات النوم التى ينامها، ومكان إقامته الخاص وسياسة التدرج التى يجب أن يسير عليها فى صلواته وأصوامه واعتكافه... وعلاقته بمجمع الدير.

ولا شك أن هذه القوانين مقتبسة أصولها من الكتاب المقدس، ومن خبرات كبار الروحانيين الذين وصلوا إلى مستويات روحانية مرتفعة رآها فيهم تلاميذهم والذين أخذوا عنهم... ولما توطدت هذه المبادىء والأسس بالتجربة العملية وضعت كدستور مكتوب، مثل قوانين الأنبا باخوم أبى الشركة وقوانين الأنبا شنودة رئيس المتوحدين...

إن مثل هذه القوانين الرهبانية مثل اللوائح التى تضعها المؤسسات والهيئات الإجتماعية المختلفة، وهى لا تختلف ولا تتعارض مع قوانين الدولة ودستورها، ولكنها فى مجموعها تحدد أهداف الهيئة أو المؤسسة وتنظم وسائط بلوغها لتلك الأهداف، كما تنظم علاقات أعضائها بعضهم ببعض، وعلاقتهم بالدولة، وبغيرهم من الناس، وبالهيئات والمؤسسات الأخرى فى المجتمع الخاص، وربما فى المجتمع الدولى أيضاً.

١٢ ـ الرهبنة ليست طريقك (١)

العزيز السيد / ....

سلام ونعمة وبركة من ربنا يسوع المسيح، أرجو وأُصلّى أن يحفظك الربّ، ويباركك، ويعينك فى جهادك لتبلغ إلى حياة الإنتصار والغلبة، فى مسيرة القديسين.

رداً على خطابك ننصح لك بأن تهدأ ولا تنفعل، ولا تيأس من مواصلة الجهاد الروحى، فإنك مع الصمود والثبات، والتفاؤل، والإيمان ستصل إن شاء الله إلى حياة أفضل.

وأعلم أنّ الفضيلة تقوم على تكوين عادات صالحة والعادة ميل متكرر.

فأنت تصلى دائماً، صلوات الساعات، وهذا جميل وتقرأ الكتاب المقدس بانتظام، وبذهن صاحى وقلب مفتوح..

وتمارس التوبة بإنتظام عن خطاياك اليومية، وتخضع لتدبير كاهن تشكو له نفسك، وتعمل بنصائحه وتوجيهاته، وتقرأ فى بعض الكتب الدينية بإنتظام، وتحاسب نفسك على تصرفاتك، وتراقب أفكارك وإحساساتك ولا تتنحلّ من المسئولية، عندما تخطىء فى أمر مع نفسك أو مع الأغيار من الأقارب والأصحاب، والبعيدين.

أما ترددك بين الرهبنة والزواج، فيبدو من خطابك أن الرهبنة ليست طريقك الآن، مادمت تشكو حرب الأفكار والشهوة.. عليك أن تمتحن نفسك إذا كنت تحب البتولية الدائمة، محبة فيها لذاتها.. بدون ذلك ننصح بأن ترجىء الرهبنة، ولربما يكون الزواج هو المناسب لك.

إنّ سنك مناسب للزواج، فلا تعذّب نفسك بالرهبنة. احفظ نفسك طاهرا، وتزوّج. واهرب من الشهوات الشبابية ومن مداخلها، ومارس الصوم الإنقطاعى إلى الثالثة بعد الظهر على الأقل. وتناول المأكولات النباتية من الخضروات والفاكهة. وتجنب المقليات بالزيت المقدوح. وفى أيام الإفطار أقلل من أكل اللحوم ومن المأكولات المثيرة مثل المخللات والشطة، واهرب من الأماكن التى تذكرك بالخطيئة والشهوة الرديئة، ولا تسمح لنفسك بالعادة السرّية، فإنها نجاسة وزنى فضلاً عن أنها مدمّرة للجهاز العصبى وللمخ والذاكرة، وتتسبب فى الأنيميا الجسدية والأنيميا المخية..

كن متفائلاً ولا تتشاءم. واعلم أنّ الله أب رحيم يتوق إلى توبتك، وإلى صلاحك. لكنه يترك لك أن تظهر إرادتك للخير. هو يراقبك وعينه عليك، ولكنه ليس من سياسته أن يقهرك أو يغصبك على طريق الخير والفضيلة. إنه يعطيك الفرصة لتختار أنت لنفسك طريق البر، حتى

(١) كتب فى ٢٩ من نوفمبر ١٩٩٠ ـ ٢٠ من هاتور ١٧٠٧ ش.

يكون لك الجزاء الصالح عن جهادك وصبرك وعن ثباتك في الفضيلة وطريق الخير.

اطلب دائماً معونة الله، واعلم أنّ الله لا يخذلك. كن صادقاً وأميناً معه، وكن صادقاً مع نفسك. ولا تخدع نفسك. عندما تخطيء استغفر ولا تكابر أو تغالط. «كن أميناً حتى الممات، فأعطيك إكليل الحياة».

ونعمة الرب تشملك

١٣ ـ اترك الرهبنة فوراً من أجل خلاصك (١)

العزيز الراهب / ....

سلام ومحبة من ربنا يسوع المسيح.

وصلتنى خطاباتكم التى تعبرون بها عن متاعبكم الروحية والنفسية. وعندى أنه من الخير لكم أن تستأذنوا أب الإعتراف، ثم رئيس الدير فى ترك الرهبنة الآن والخروج من الدير، ثم الزواج بإمرأة صالحة. «فإن التزوج خير من التحرق».

لقد كان ينبغى التريث قبل الرهبنة. ومع ذلك فإذا اكتشف الإنسان أنه لا يصلح للطريق، فخير له من أجل خلاص نفسه، ومن أجل أن لا يخسر أبديته وحياته الآخرة أن يعود إلى حياة المجتمع. ليست الرهبنة هى وحدها طريق الخلاص. إن الزواج طريق أفضل لمن ليست له دعوة الرهبنة. ولا يخفى عليك أن الزواج سرّ مقدس، فلا تتهاون من أجل خلاص نفسك أن تترك الرهبنة فوراً، وتخرج إلى العالم وتبحث عن زوجة. ليس هذا عيباً. فإن آخرين تركوا الرهبنة لمّا تبينوا أنهم أخطأوا الطريق وأن الطريق لا يصلح لهم.

فإذا كنت قبل الرهبنة موظفاً أو عاملاً فيمكنك أن تعود إلى العمل. وإن كنت طالباً فيمكنك أن تعود إلى إكمال دراستك.

أما أن تقول أن الإنتحار خير لك من أن تعود إلى العالم، فأنت بهذه الكبرياء وهذا العناد تدمر نفسك وتهلك روحك وتبدد قوتك العصبية.

اسمع للنصيحة، وعد إلى العمل أو إلى الدراسة وتزوج، ولا تكابر ببقائك راهباً.

وأما عن العمل، فيمكنك أن تعود إلى بلدتك، أو يمكنك بعد الزواج أن تهاجر إلى بلد عربى مثل الكويت أو العراق أو غيرهما.

ونعمة الرب تشملكم، وقوته تسندك.

---

(١) كتب فى ١٨ من سبتمبر ١٩٨١م ـ ٨ من توت ١٦٩٨ ش.

١٤ - واجبات المتقدم للرهبنة

الابن المبارك ......

نعمة وبركة وسلام يسوع المسيح.

وصلنا خطابكم الذى أظهرتم فيه رغبتكم للرهبنة، وهى رغبة طيبة إذا كانت ناتجة عن محبة خالصة لرب المجد، ونية صادقة فى الوجود بين يدى الله طول الوقت، والحياة فى عبادات تقوية من كل القلب والفكر والقدرات، وممارسة الصلاة بغير إنقطاع.

من هنا كان يجب على المتقدم للرهبنة أن يكون له معرفة دينية، ويحيا فى حياة التقوى والصلاح، وليس مرتبطاً بالزيجة، وقادراً على حياة البتولية والعفة الكاملة، وله شهادة حسنة من الناس، كما أنه يجب أن يكون ملماً بالقراءة والكتابة حتى يستطيع أن يدرس كلمة الله، كما يشترط فيه أن يكون أدى الخدمة العسكرية أو حصل على إعفاء منها، ويجب أيضاً إستشارة أب الإعتراف وأن تحصل على تزكية منه.

أما أديرتنا المأهولة بالرهبان فهى:

١ - الدير المحرق بجبل قسقام بأسيوط بالقرب من القوصية.

٢ - دير الأنبا بولا ببوش ببنى سويف.

٣ - دير الأنبا أنطونيوس ببوش ببنى سويف.

٤ - دير السيدة العذراء (البرموس) بوادى النطرون.

٥ - دير السيدة العذراء (السريان) بوادى النطرون.

٦ - دير الأنبا بيشوى بوادى النطرون.

٧- دير أبو مقار بوادى النطرون.

٨ - دير مارمينا بصحراء مريوط.

٩ - دير الأنبا صموئيل بجبل القلمون بمغاغة.

والإنسان الراغب فى الرهبنة يستطيع أن يحيا الحياة المرضية لله فى أى دير منها، ولك أن تختار ما شئت ومن الأفضل أن تستشر أب إعترافك فى ذلك.

مع دعائنا بالبركة أن يدبر الله حياتك لمشيئته.

ونعمة الرب تشملنا.

---

(١) كتب فى ١٨ من ديسمبر ١٩٧٢م - ٩ من كيهك ١٦٨٩ ش.

١٥ - امتحن نفسك أولاً

العزيز الابن / ....

سلام ونعمة ودعاء وبركة من ربنا يسوع المسيح.، راجياً ومصلياً أن يحفظ الله حياتك فى ملء الصحة وأن يهبك التوفيق والنجاح.

قرأت خطابك، ومنه وقفت على رغبتك منذ زمن فى أن تهب حياتك كلها لله راهباً عابداً، ولكنك فى حيرة لم تتخذ بعد قرارك فى الأمر، وتسألنا النصيحة.

نقول جميل أن تكون لك الرغبة فى حياة الرهبنة، وهذه الرغبة عميقة وثابتة، لكنك لازلت، متردداً فى اتخاذ القرار.

ولما كانت الرهبنة هى نذر التبتل لله، وإختيار الفقر عن طواعية، وإعتزال العالم للتعبد.

فأول ما ننصح لك به أن تتريث فى إتخاذ القرار بالنذر، مالم تكن مطمئناً إلى أن رغبتك فى الرهبنة هى رغبة كاملة مائة فى المائة، لأنه «أن لا تنذر خير من أن تنذر ولا توفى» (الجامعة ٥ : ٥)

وعليك أن تمتحن صدق رغبتك فى حياة (البتولية)، وهل هى رغبة صادقة وكاملة حتى لا يعاودك الندم، أو الرغبة فى الزواج، «فإذا لم يطيقوا العفاف فليتزوجوا، فالزواج خير من التحرق بالشهوة» (١ . كورنثوس ٧ : ٩).

على أن تكون رغبتك فى البتولية فى ذاتها ولذاتها، أى أن تكون عن محبة للبتولية ذاتها، وليس هربا من مسئولية الزواج، أو لأى سبب آخر.

وعليك أيضاً أن تمتحن صدق رغبتك فى حياة (الإعتزال) عن الناس، الأقرباء والأصدقاء، أهل تكون سعيداً فى حياة الهدوء والسكون، والتأمل، حتى لا تعاودك الرغبة فى الحياة الإجتماعية، والإلتصاق بالناس.

إنّ قرارك بخصوص هذين الموضوعين (البتولية، والإعتزال) ينبغى أن تخبزه وتعجنه فى داخل نفسك، ولا تناقشة مع أحد من الأهل أو الأصدقاء، ولا تخبر به أحداً.

فإذا صنعت القرار، فلا تتردد، وأحزم أمرك ولا تستشر لحما ولادما «فلا تتأخر عن الوفاء بنذرك» (الجامعة ٥ : ٤).

---

(١) كتب فى ٢٢ من ديسمبر ١٩٩٣م - ١٣ من كيهك ١٧١٠ش.

وامتحن ذاتك أولاً وأنت فى العالم، وفى بيتك ثم اذهب إلى بعض الأديرة فى خلوات روحية لمدة أسبوع أو أكثر وامتحن نفسك إذا كان هذا النوع من الحياة يروق لك، وهل هذا الطريق يصلح لك، وأنت تصلح له؟

لابّد من امتحان النفس قبل أن تنذر النذر الكبير، ولابّد أن يكون القرار من داخل نفسك، فأنت صاحب القرار، ولا يفرضه آخرون عليك، ولا تناقشه مع أحد آخر.

ونعمة الرب تشملك،

١٦ ـ أنصح لكِ الآن أن تؤجلى النذر (١)

سؤال من الإبنة/ ....

أرغب فى الرهبنة وسألنى أحد الخدام يريد أن يرتبط بى فأجبته أنى مخطوبة، فهل هذا إنكار للسيد المسيح؟

الجواب :

إن إجابتك على الخادم صحيحة، ولا خطأ فيها وليست فيها إنكار للسيد المسيح.

ثم إن إجابتك هى الإجابة الحكيمة.لأنه لو كانت لك ميول رهبانية، فليس مستحباً أن تتحدثى بهذه الميول إلى أحد إطلاقاً إلا لأب إعترافك. اكتميها الآن عن والديك وأهل بيتك. وامتحنيها أمام الله بالصلاة ولكن لا تبوحى بها لأحد الآن إطلاقاً.

ثم لا تنسى أنك صغيرة عن السن التى فيها تنذر البنت نفسها للمسيح. لا تنذرى نفسك إلا بعد أن تصلى إلى قرار نهائى فى الموضوع، لئلا يتغير فكرك، وحينئذ تصيرى فى حيرة من أمر هذا النذر الذى قيدتِ نفسك به، فإنه سيكون وعداً أمام الله. ولذلك أنصح لك الآن أن تؤجلى النذر إلى الوقت الذى يمكنك فيه أن تقررى الموضوع، وأنتِ واثقة بنعمة الله من نفسك وأنك ستوفين النذر لأنه «أن لا تنذر خير من أن تنذر ولا تفى».

الرب يباركك، ونعمته تعالى فلتشملك لكى تحيى روحا وجسداً، طاهرة عفيفة مقدسة.

١٧ ـ ترددك علَى الأديرة أمر نافع لك (٢)

الأبن / ....

نعمة وبركة وسلام.

رداً على خطابك أقول : نعم من الممكن أن تتردد على الأديرة حتى يأتى موعد خدمتك العسكرية، وبعد أداء خدمتك تعود إلى الدير. وفى هذه الفترة تمتحن رغبتك وتدرب نفسك لتتبيّن ما إذا كان حقاً أن طريق الرهبنة يصلح لك، وأنت تصلح له.

على أننى أوصيك أن لا تسرع بالنذر، فإن سنك صغير. ويليق بك أن تتريث وتصلّى وتمتحن نفسك، قبل أن تنذر، لأنه (خير أن لا تنذر من أن تنذر ولا تفى)

أما ترددك على الأديرة فهو أمر نافع لك

ونعمة الرب تشملك،،،،

---

(١) كتب فى ١٢ من مارس ١٩٨٤م ـ ٣من برمهات ١٧٠٠ش.

(٢) كتب فى ١٦ من نوفمبر ١٩٨٨م ـ ٧ من هاتور ١٧٠٥ش.

١٨ ـ تردد مبدئياً على الأديرة (١)

العزيز الابن / ....

سلام ومحبة وبركة ـ

رداً على خطابك أيها الابن، ألاحظ أنك ملتهب بمحبة الحياة الرهبانية ـ وهذا إتجاه جميل. كما يبدو من خطابك أنك تقصد إلى الرهبنة فى ذاتها، وليس هرباً من الإلتزامات الإجتماعية والعلاقات الأسرية والواجبات المادية ـ وهذا جميل جداً.

فلا بأس أن تتردد مبدئياً على الأديرة لفترات قصيرة لممارسة العبادة بقدر ما يسمح وقتك.

ولكنى أنصح لك أن تتمم أولاً دراستك الثانوية والعليا. وهذا كله يعطيك فرصة للتهيئة الروحية للرهبنة الكاملة بعد أن تكون قد فرغت من دراساتك العلمية حتى تتفرغ بعد قبول النذور الرهبانية لحياة (الصلاة التى بلا إنقطاع). (١ . تسالونيكى ٥ : ١٧) وللعكوف على القراءة الحرة مع الدرس، ثم العمل اليدوى.

وعليك أن تصلّى منذ الآن بهدوء وبغير إنفعال تطلب الإرشاد، والفهم ومعرفة نفسك على حقيقتها، والتحقق من إستعداداتك لحياة الرهبنة، وهى حياة الكمال المسيحى، إلى أن يمتلىء قلبك بمحبة هذا الطريق إمتلاءً تاماً، ويعزِف قلبك عزوفاً تاماً عن محبة العالم وإغراءاته.

ونعمة الرب تشملكم،،،

١٩ ـ امتحن صدق رغبتك (١)

العزيز الابن / ....

سلام ومحبة وبركة ـ

رداً على خطابك أيها الابن، أشكر الله على أنكَ حسب قولك، قد عدلتَ عن طريق الخطيئة، وتبتَ عن خطاياك، وتمارس العبادة والقراءة فى الكتاب المقدّس، والتقرّب من الأسرار المقدسة.

وبالإضافة إلى هذا، ترغب فى أن تصير راهباً، وهذا إتجاه جميل ورغبة طيبة ـ

على أنك ـ كما عرفتُ من خطابك أنك لا تزال طالباً فى السنة الأولى من دبلوم الصنائع وأنك تبلغ من العمر ثمانى عشرة سنة.

وعلى ذلك يحسن أن تتم دراستك أولاً، وتحصل على شهادتك العلمية، فنحن فى عصر العلم.

ثمّ إنّ سنك صغير على طريق الرهبنة.

ولما كانت الرهبنة دعوة خاصة، فلابدّ أن يمتحن الشاب نفسه قبل أن يقرر نذر حياته للرهبنة، لأنه على مايقول الكتاب المقدّس (أَن لا تَنذِرُ خير من أن تنذر ولا تفى) (الجامعة٥: ٥).

ولذلك ننصح لك بأن تتريث طويلاً قبل أن تقرر ذهابك إلى الديرِ، كراهب، لئلا تكتشف بعد حين أنك أسرعت فى إتخاذ القرار، ثم تندم بعد ذلك على أنك اتخذتَ طريقاً غير طريقك.

على أنّك فى أثناء ذلك، أى فى فترة التلمذة الآن يمكنك أن تمارس العبادة. وأنْ تحفظ شبابك طاهراً، وأن تسلك بالقداسة، وأن تهرب من النجاسة ومن كل عادة شريرة يتنجّس بها القلب أو الفكر أو الجسم.

وعليك فى أثناء مسيرتك الروحية أن تجيب على سؤالين، مهمين ـ

الأول ـ هل أنتَ تعشق حياة البتولية الكاملة؟ وقد امتلأ قلبك بمحبة البتولية فى ذاتها ولذاتها، وهل تستطيع أن تثق فى صدق رغبتك أن تحيا بتولاً مدى الحياة، ولا تعاودك الأشواق لحياة الزواج؟

إنّ من يريد الرهبنة ينبغى أن يكون صادق النية فى أن يحيا بتولاً، وأن لا يكون متردداً بين الرغبة فى البتولية والرغبة فى الزواج ـ حتى لا ينقسم على ذاته، ويصير معذباً بين جاذبيتين كل منهما تشدّه إليها.

(١) كتب فى ٩ من أبريل ١٩٩١م ـ ١ من برموده ١٧٠٧ش.

الثاني ـ على الرّاغب في الرهبنة أن يمتحن صدق رغبته في حياة الوحدة أو الديرية، فلا تعذّبه أشواقه للحياة الإجتماعية.

والخلاصة : تَمَهَّل في اتّخاذ القرار النهائي، وأكمل الآن دراستك وفي أثناء ذلك عليك أن تمتحن نفسك جيداً قبل أن تُقدم على قرار الرهبنة.

ونعمة الرب تشملك،،،،

٢٠ ـ شرط الرهبنة الأساسى صدق الرغبة مع عدم التردد (١)

الإبنة / ....

سلام ونعمة وبركة.

إجابة على خطابك نفيد بأن الرهبنة شرطها الأساسى هو صدق رغبتك فى الرهبنة وعدم التردد.

وليس صحيحاً ما قيل لكِ أن الأديرة تتطلب شهادة عليا

ولعلّ تزكية أب الإعتراف هى الشهادة الأهم لإقناع الأم الرئيسة، بالإضافة إلى الانطباع الذى تتركينه على روحها ونفسها، من تأثير شخصيتك، ونظرتها إليك، وما إذا كانت تستريح لك،

نسأل الرب أن يدبر حياتك وأن يرشدك،،،،

٢١ ـ تمتحنين نفسك فى محبتك للبتولية فى ذاتها ولذاتها (١)

الإبنة العزيزة الأنسة/ ....

سلام لكِ أيتها الإبنة ودعاء إلى الله أن يحفظ شبابك طاهراً ومقدساً.

جميل أيتها الإبنة أن يتجه قلبك إلى الرهبنة وإلى حياة البتولية الكاملة.

أنتِ الآن فى الصف الثانوى التجارى، ولابدّ أن تتممى دراستك. وفى هذه الأثناء تمتحنين نفسك فى محبتك للبتولية فى ذاتها ولذاتها، بحيث لا تقدمين على نذر الرهبنة إلاّ وأنت متشبعة تماماً بمحبة البتولية «لأنه أن لا تنذر خير من أن تنذر ولا تفى» (الجامعة ٥: ٥) لابدّ أن تكون رغبتك فى البتولية الدائمة كاملة، حتى لا تندمى على هذا القرار والنذر.

وفى هذه الفترة ننصح لك بالقراءة فى الكتاب المقدس والصلاة فى مواعيدها ثم القراءة فى سيرة الراهبات القديسات حتى يمتلىء قلبك بعزيمة صادقة، وبغير تردد.

الرب يعينك ويقويك، ويشد أزرك.

ونعمته تشملك،

٢٢ ـ لا تهمل واجبك المقدس (١)

سؤال من العزيز الدكتور/ ....

هل هناك إمكانية التفرغ للدراسات الروحية، والانقطاع لخدمة الرب يسوع وحده والتعبد فى أحد الأديرة علماً بأنى متزوج؟

الجواب :

حيث أنك مرتبط برباط الزيجة المقدس ولك أولاد منها، فلا يجوز لك أن تترك زوجتك، كما لا يجوز لك أن تترك أولادك، وتذهب إلى الدير.

إن قوانين الرهبنة لا تبيح مبدئياً للمتزوج أن يذهب للدير من غير رأى زوجته، لأنه مرتبط بها برباط مقدّس والكتاب المقدس يقول بوضوح (أنت مرتبط بإمرأة فلا تطلب الإنفصال) (١ . كورنثوس ٧ : ٢٧) .

ثمّ وأنتَ أب لأبناء لا يجوز لك أن تترك أولادك بحجة الرهبنة والتفرغ للعبادة فى الأديرة. إن أولادك مسئوليتك الكبرى، فإذا تخليت عنهم أو تركتهم لزوجتك، فتكون قد أهملت فى واجبك المقدس. فلا يحلّ لك هذا، إلاّ إذا كبروا وأتموا تعليمهم، واستقروا فى حياتهم، وارتفعت بالتالى مسئوليتك عنهم ببلوغهم الإستقرار والإستقلال عن والديهم.

ولا أنسى أن أذكرك أنّ من الخطأ أن تبقى زوجتك فى السعودية، وأنت بعيد عنها. يجب أن تكون أنت وزوجتك معاً، ولا تنفصل عنها بحجة العمل، مهما كان السبب، وإلاّ فلماذا الزواج؟

أرجو فوراً العمل على أن تكون مع زوجتك وأولادك وتستردوا وجودكم معاً.

أما عن سؤالكم بخصوص مكتبتكم الروحية التى تعتزون بها والتى تريدون أن تضيفوا إليها جديداً. فهذا أمر جميل، نشجعكم عليه. وأرجو أن تشارككم زوجتكم وأولادكم فى الإستفادة الروحية من القراءة والدرس. على أن يحتلّ الكتاب المقدّس أولاً وبالذات موضع الصدارة، فتقرأوا، ولو فصلاً واحداً، كل يوم وبإنتظام، ثم بعد ذلك الكتب الروحية الأخرى والتاريخية والعقائدية والطقسية.

جميل أيها الإبن استمساكك بالدين والتقوى والروحانية، ومع ذلك يجب أن لا يشغلك هذا كله عن الإهتمام بحياتك الزوجية وأولادك، وعملك كطبيب وجراح، فهو خدمة إنسانية ودينية. ولعلّ الطب من أسمى المهام الإنسانية، ونحن ننصح بأن يكون فى حياتك تنسيق بين صلواتك وقراءاتك وقيامك بالمهام العملية كطبيب وجراح.

---

(١) كتب فى ٥ من فبراير ١٩٨٩ ـ ٢٨ من طوبه ١٧٠٥ ش.

ومن أروع الأمثلة القديمة، دانيال النبى، فإنه كان فى قمة روحية شامخة حتى كانت تكشف له الأسرار، وقد قيل عنه من الأمم أنه كانت معه روح الآلهة القدوسين.. ومع ذلك كان يقوم بعمله فى الدولة بمثابة وزير أو رئيس للوزراء - واستطاع أن يجمع جمعاً عادلاً وبغير خلل بين حياته التعبدية وحياته العملية كرجل دولة مسئول.

ولذلك فنحن ننصح لك بالمثل، خصوصاً وأن عملك كطبيب يؤهلك لأن تخدم الله فى الناس خدمة إنسانية بروح التقوى والتعبّد.

أما عن استفساركم ما إذا كنا نقر لجوءكم إلى أخذ مشورة الرب فى الهيكل وبعد التناول. فإننا ننصح بوضع المشكلة أمام الله، ولكننا لا نقر من حيث المبدأ الاحتكام إلى مايسمونه بالقرعة الهيكلية.... إننا نصلّى ، ولكننا لا نتطلب الإستجابة بالأحلام والرؤى... إننا نصلّى... ثمّ نستخدم ماوهبنا الله من عقل وقلب.. وأخيراً نبحث أين راحة القلب، على أن يكون المؤمن دائماً مخلصاً فى طلب الحقيقة، وأن يعدل عن تصرفه لو اتضح له أن تصرفه خاطىء.. دائماً يجب أن يكون الإخلاص رائد المؤمن السائر فى طريق السماء، وأن يكون ملتمساً للحق، كما يتضح له بحسب المقاييس الموهوبة له فى العقل والقلب، خصوصاً ونحن المسيحيين قد مُسِحنا بعد المعمودية بمسحة الميرون، فنحن - مع الإخلاص ومحبة الحق - يمكن أن نجد فى القلب إرشاد الروح القدس.

وإننى مع محبتى، أرجو مصلياً أن تواصل جهادك الروحى ولا تيأس، ولا تتراجع بسبب ما تجده أحياناً من مضايقات وإضطهادات، فلعلّ هذه المضايقات تشحذ همتك الروحية أكثر مما لو كانت حياتك سهلة ومن غير صعوبات (ادعنى فى وقت الضيق أنقذك فتمجدنى) (مزمور ٤٩ : ١٥).

فليباركك الرب، ويحفظك وزوجتك وأولادك فى موفور النعمة والصحة روحياً ونفسياً وجسدياً.

ولتشملكم نعمة ربنا يسوع المسيح،،،،،

٢٣ ـ لا أنصح لك بالخروج من الدير بقصد التلمذة على أحد (١)

الابن العزيز الراهب / ....

سلام ومحبة وبركة من ربنا يسوع المسيح.

أرجو لك نمواً فى النعمة، فى طريق الكمال الرهبانى. وصلنى مكتوبك. وإجابة على تساؤلك أفيد.

بأننى لا أنصح لك بالخروج من الدير، بقصد التلمذة على أحد، فإن من اختار طريق الرهبنة يجد بين الرهبان فى الأديرة من يتتلمذ عليه. فهذا طريق أفضل. على أننى بسبب الأمر الذى ذكرته فى خطابك أرى أن تشكوه إلى قداسة البابا، فقد يرى نقلك إلى دير آخر.

جميل أن تطيع الأمر الصادر إليك من أمين الدير للقيام ببعض الأعمال اليدوية أو الجسمانية. ولا تتذمر إذا تغير بالنسبة لك نوع العمل، وذلك لتأخذ بركة الطاعة والاتضاع. فضلاً عن أنه قد يكون فى التغيير مصلحة لك، فإن الحياة النمطية قد تسبب الملل. أما التغيير فله نفعه.

واعلم أن الراهب يقضى وقته ويصرفه بالتوزيع بين ثلاثة أعمال رئيسية.

(١) العمل اليدوى والجسمانى (٢) الصلاة والعبادة

(٣) القراءة والدرس.

ويختلف نصيب الراهب من هذه الأعمال الثلاثة بحسب سنه الرهبانى. فالعمل الجسمانى ينبغى أن يكون زائداً بالنسبة للراهب المبتدىء حتى لا يصاب بالملل. ثم أن الراهب ينبغى أن لا يترك نفسه دقيقة واحدة فى فراغ. ولذلك يقول أباء الإسكيم: «الراهب الذى يشتغل يحاربه شيطان واحد، ولكن الذى لا يشتغل تحاربه شياطين كثيرة».

لذلك أرجو أن تملأ وقتك، إما بالصلاة أو القراءة والدرس أو بالعمل اليدوى والجسمانى.

جميل أن تقرأ فى الكتاب المقدس كثيراً، ولكن يجب أن تكون القراءة بنظام، وبمنهج، وينبغى أن تقرأ تفسيراً للنصوص التى يصعب عليك فهمها.

كذلك تخيّر عددا من الكتب الروحية والعقائدية والطقسية والتاريخية والتفسيرية والتعليمية فتكون قراءتك منوعة، ولا تكون من صنف واحد، حتى تكون ثقافتك الروحية ثقافة منّوعة ومتكاملة.

---

(١) كتب فى ١٣ من مايو ١٩٨٠م ـ ٥ من بشنس ١٦٩٦ش.

ويحسن أن تدون فى كراسة الفوائد التى تجنيها من قراءتك.

يجب أن تؤدى صلواتك فى مواعيدها وأوقاتها. وللراهب المبتدىء أن يصلى بالأجبية، ويضيف مايرى إضافته من طلبات خاصة وتأملات ومذكرات.

أما الأصوام، فيكفى الآن بالنسبة لك أصوامنا العامة. ومن جهة النسك فيها، فتدرج فى النسك تحت إشراف أب كبير.

والآن أسأل لك النعمة والبركة على حياتك.

٢٤ ـ يجب أن ترجىء الرهبنة، أسرتك فى حاجة إليك (١)

سؤال : أرغب رغبة قوية فى الرهبنة ووالدى متوفى ووالدتى وإخوتى فى حاجة إلىَّ فماذا أصنع؟

الجواب :

ردا على خطابك بخصوص رغبتك القوية فى الرهبنة أجيب بأنه طالما أنّ والدتك فى حاجة إليك، وأخوك طالب بالصف الثانى ثانوى صنائع، والثانى بالصف الأول الإعدادى، فالأفضل إرجاء الرهبنة الآن، لأنّ أسرتك فى حاجة إليك. ومع ذلك يمكنك أن تعيش الرهبنة وأنت تعمل من أجل إعالة أسرتك. فتحفظ بتوليتك طاهرة، وتمارس صلواتك كاملة فى البيت، وتقرأ الكتاب المقدس والكتب الأخرى الروحية. كذلك صنع القديس يوحنا ذهبى الفم، فإنه مع رغبته الواضحة فى الرهبنة، بكى لبكاء والدته الأرملة التى قالت له : لمن تتركنى ياولدى؟ وفعلاً أرجأ الرهبنة حتى توافرت له الظروف الملائمة. ومع ذلك عاش بتولاً طاهراً فى البيت، وكان يذهب لعمله ويعود إلى البيت يمارس صلواته الحارة، وقراءاته فى الكتاب المقدس وكتب الكنيسة.

ونعمة الرب تشملكم،،،،

---

(١) كتب فى ١٠ من يونيه ١٩٨٨م ـ ٣ من بؤونه ١٧٠٤ ش.

٢٥ - يبدو أن طريق الرهبنة ليس طريقك (١)

سؤال : أرغب فى الرهبنة ولكنى مستعبد للعادة السرية؟

الجواب :

رداً على خطابكم أرى أنّ الأمر واضح ولا يحتاج إلى تردد.

اتْرُكْ موضوع الرهبنة، وتزوج. فإنه يبدو واضحاً أن طريق الرهبنة ليس طريقك، على الرغم من أنك أبديت رغبتك فى ذلك، وعلى الرغم من أنك أسرعت ونذرت نفسك.

فإذا كنتَ قد وقعت فى العادة السرية، واستعبدت ذاتك لها. فلا تغصبْ نفسك على طريق ليس هو طريقك، ولو أنك أصررت على الرهبنة مع ذلك، فإنك تكون قد سلكتَ طريقاً صعباً، يمكن أن يؤدى بك إلى أن تنقسم على نفسك.

ثمّ كيف تترك والديك، وخصوصاً والدتك المريضة وهى فى حاجة إليك.

إنّ قوانين الرهبنة تمنع من يريد الرهبنة ووالديه فى حاجة إليه.

هذا وأنت نفسك لو دخلتَ الرهبنة سوف يؤنبك ضميرك، وسوف تعانى القلق وعذاب الضمير ربما كل أيام حياتك.

مادمتَ اتجهتَ إلى الزواج، فتمم مشروعك فهو طريق أنسب كثيراً بالنسبة لك.

على أننى أريد أن أؤكد لك أنّ العادة السرية ضارة بصحتك، وهى تدمّر جهازك العصبى وتسبب لك الأنيميا وضعف العيون وضعف الذاكرة، وتضعف قوتك على التركيز العقلى والذهنى، ومالم تمنعها منذ الآن منعاً باتاً، ستدخل معك إلى حياتك الزوجية لأنها عادة، وستشقى بهذا نفسك وزوجتك.

يجب أن تمتنع عن هذه العادة المدّمره فوراً، وأن تكرهها من كل قلبك، فقد دمّرت حياة الكثيرين، وقال أحد الشباب إنها قادته إلى الجنون لأنها أكبر مدمر للجهاز العصبى.

أوقفها فوراً، ولا تسمح لنفسك بعد اليوم أن تسقط فيها ولو مرة واحدة، حتى تحتفظ بحيويتك وقوتك التى ستمنحها لأولادك من صلبك.

الرب الإله يدبر حياتك، وليشملك بنعمته.

---

(١) كتب فى ١٤ أكتوبر ١٩٨٨ م - ٤ من بابه ١٧٠٥ ش.

٢٦ ـ هل ينضم إلى سلك الرهبنة؟

سؤال : من السيد / ....

لى ميل شديد إلى الرهبنة وأقرأ كثيراً فيها وفى سير القديسين ، ولكن والديّ يعترضون فماذا أصنع؟

الجواب :

رداً على خطابكم غير المؤرخ بخصوص الرهبنة، وميلكم إليها بكل جوارحكم بعد قراءة فيها، وفى سير القديسين.

وحيث أن رغبتكم قوية واضحة، فلا بأس من تحقيق أمنيتكم، بعد موافقة أب الإعتراف.

أما بخصوص الأسرة، فمن الطبيعى أن يعترضوا على ذلك. ولكن ينبغى أن تجيب بنفسك على سؤال مهم: هل أهلك من أعضاء أسرتك الخاصة فى حاجة إليك للإنفاق عليهم؟ فإذا كان أهلك فى غنى عن مساعدتك المادية لهم، وإذا لم تكن أنت الإبن الوحيد لوالديك، وترى أنهم لا يضارون ولا يضامون برهبنتك، فيمكنك التوجه إلى الدير.

أما إذا كان والداك وأسرتك فى حاجة إليك، فأرجىء الموضوع الآن إلى أن يتهيأ لك الجوّ.

واعلم أن الرهبنة تبدأ بتبتل القلب والروح والجسم فى العالم. فيمكنك أن تحيا حياة الراهب، بالصلاة والقراءة والعبادة، وعدم الإختلاط بالعالم خارج حدود عملك، إلى أن تتمكن من الإنطلاق التام، واعلم أن القديس ذهبى الفم وغيره أيضاً ترهبنوا فى وقت متأخر بسبب ارتباطاتهم العائلية، ومع ذلك عاشوا حياة الرهبنة فى العالم حتى تهيأ لهم الجو كاملاً.

ونعمة الرب تشملكم.

٢٧ - ننصح لك مرة أخرى أن ترجئ فكرة الرهبنة الآن (١)

سؤال من العزيز الابن / ....

نبتت عندى فكرة الإلتحاق بالكلية الإكليريكية، ولكن قلبى يتجه نحو الرهبنة، فأى الطريقين أسلك؟

الجواب :

سلام لك أيها الشاب الطموح، ودعاء إلى الله أن يحفظ شبابك طاهرا، وأن يهدى خطواتك إلى طريق الفضيلة والكمال.

يبدو من خطابك أنك عصامىّ، وأنك مجاهد. فعلى الرغم من فقر والديك لكنك اكتسبت علما ومهارة وصناعة. وجميل أنك تتقدم وتتطور وتنمو فى المعرفة وفى كسب مهارات جديدة عملية ونظرية.

وأجمل من هذا كله أنك قد عرفت طريق الدين والكنيسة، وتقرأ الكتاب المقدس وكتب الكنيسة وكتبا أُخرى دينية وروحية، تشدك إليها محبة واضحة نحو المعرفة الدينية ورغبة فى الخدمة.

ولقد نبتت عندك فكرة الإلتحاق بالكلية الإكليريكية بعد الحصول على شهادة إتمام الدراسة الثانوية. ولكن قلبك اتجه نحو الرهبنة أيضا. وأنت فى حيرة أى الإتجاهين تتجه، خصوصا وقد خطبت فتاة وتواعدتما على الزواج.

ويبدو لنا أنه ينبغى التريث من جهة الفكر الرهبانى، لأنه ما لم يمتلئ قلبك به تماما بحيث لا يصير مجال لشئ آخر يحتل شيئا من عاطفتك، فلا تسرع إلى نذر البتولية وبالتالى إلى الرهبنة، خصوصا وقد كانت لك ضعفاتك. وإن كنت قد صرت إلى حال أفضل وأحسن، لكن مازلت على قولك تضعف أحيانا. ولو من قبيل العادة.

لذلك ننصح لك مرة أخرى أن ترجئ فكرة الرهبنة الآن، وتعطى لنفسك وقتا لإمتحان نفسك واختيار مدى صلاحيتك لهذا الطريق. ولكن فى ذات الوقت يمكنك أن تلتحق بالكلية الإكليريكية ما دامت هذه رغبتك، ولسوف تكتشف أثناء التلمذة بالإكليريكية أو بعد حصولك على شهادتها النهائية، إذا كنت تصلح أكثر لطريق الخدمة فى العالم، أم تصلح لطريق الرهبنة بالإعتزال فى الدير. وفى هذه الأثناء زوّد معارفك بالقراءة فى الكتب الدينية، وعلى رأسها الكتاب المقدس، فتقرأ فيه يوميا إصحاحا على الأقل. ويمكنك أن تزيد عن إصحاح فى أيام العطلات. ثم هيئ نفسك بالقراءة والصلاة وممارسة التوبة اليومية، والإعتراف والتناول من الأسرار المقدسة، فيزداد فى قلبك النور، وإشراقات الروح القدس فيرشدك، ويعلّمك ويخبرك بأمور آتية.

ونعمة الرب تشملك،،،

---

(١) كتب فى ٢٧ من مايو ١٩٨٥م - ١٩ من بشنس ١٧٠١ ش.

santa-mariaegypt.org

٢٨ ـ ننصح بإرجاء الرهبنة إذا كان والدك فى حاجة إليك (١)

سؤال من الابن / ....

أتممت دراستى وأديت الخدمة العسكرية، ولى رغبة فى الرهبنة ولكن ظروف الأسرة تحتاج إلى مساعدتى ماديا ماذا أفعل؟

الجواب :

أنت شماس وخادم بالكنيسة، تشتاق إلى حياة أعمق مع المسيح، وترغب فى أن تعطى حياتك كلها لله، وأن تدخل الحياة الأبدية وأنت على الأرض.

هذا جميل. ومادامت هذه رغبتك، فإنه يمكنك الحصول عليها، على أن تكون مستعداً أن تتحمل كل شئ فى سبيل رغبتك الجميلة والنبيلة.

أنت تريد أن تسلك طريق الرهبنة بعد أن أتممت دراستك، وبعد أن أديتَ الخدمة العسكرية وبتقدير (قدوة حسنة)، ولكن يفهم من خطابك أن والديك فى حاجة إليك، ويريدا منك أن تسافر إلى بلد عربى آخر، لكى تحصل على مال وفير يمكنكم به أن تتغلبوا على صعوبات المعيشة، ويتوافر لكم الكفاية لتغطية نفقات المعيشة من سكن وإقامة.

من هنا ولهذا السبب، وإذا كان والداك فى حاجة إليك ماديا، فواجبك أن ترعى حياتهما وترجئ أمر الرهبنة فى أحد الأديرة حتى تتهيأ لك الظروف المناسبة. والإرجاء ليس معناه الإلغاء. إنما معناه ترك التنفيذ إلى الوقت المناسب، حتى لا تتسرع باتخاذ خطوة تندم عليها مستقبلاً. وفى نفس الوقت يمكنك أن تحيا حياة الفضيلة والعبادة الصادقة، وأنت فى العمل، من أجل لقمة العيش لك ولوالديك، وذلك بالإهتمام بالصلاة والصوم والقراءة فى الكتاب المقدس والكتب الروحية، وممارسة التوبة اليومية والتناول من الأسرار المقدسة، والإسهام فى أعمال الخير والرحمة بالفقراء والأيتام، وذلك إلى أن تجد الفرصة المناسبة والمتاحة لإعتزال العالم فى أحد الأديرة ـ وحينذاك تكون أكثر فهما لنفسك وإستعداداتك وصلاحيتك لهذه الحياة النسكية.

وإذا كان والداك وظروفك لاتسمح لك بالسفر إلى العراق كما تقول فى خطابك، فيمكنك أن تعمل ببلد آخر مثل الكويت أو السعودية أو غيرهما

ونعمة الرب تشملكم،،،

---

(١) كتب فى ١ من ديسمبر ١٩٨٧م ـ ٢١ من هاتور ١٧٠٤ش.

٢٩ - نرى إرجاء النذر حتى تكون واثقا من نفسك تماماً (١)

العزيز الإبن / ....

سلام ونعمة وبركة من ربنا يسوع المسيح، أرجو لك أيها الإبن موفور الصحة وكل التوفيق.

واضح من خطابك رغبتك العارمة فى حياة الرهبنة، وحبك الجارف للعذراء القديسة مريم والأنبا يوحنس كاما ودير السريان، وترددك على الدير وأشواقك الملتهبة للإنضمام لسلك الرهبنة، بصورة تدل بكل الوضوح على صدق رغبتك فى طريق الرهبنة، وأنك تقصد إلى الرهبنة فى ذاتها كطريق للتعبد والروحانية العالية.

ولكنك كشاب يحاربك من وقت إلى آخر فكر الزواج.

كذلك، ولما كانت الرهبنة نذر التبتل لله مع إختيار الفقر طوعا، وإعتزال العالم للتعبد، نرى إرجاء النذر حتى تكون واثقا من نفسك تماماً، «لأنه أن لا تنذر خير من أن تنذر ولا تفى»، وحتى لا يعاودك الندم والشوق إلى حياة الزيجة.

وننصح بأن تمتحن نفسك فترة ما فى موضوعين أساسيين :

(١) حبك للبتولية فى ذاتها، ولذاتها. وأن تكون رغبتك فيها بغير تردد. أى يجب أن تكون رغبتك فيها مائة فى المائة أما أقل من ذلك، فيمكن أن تفتح لك مدخلاً للحروب الشبابية.

(٢) حبك للوحدة، والديرية، ولا تحاربك الرغبة فى الحياة الإجتماعية فى العالم.

فإذا وجدتَ نفسك ثابتاً وغير متردد وغير متزعزع، فامضِ فى طريق الرهبنة الناجحة.

صلِّ إذن، وتردد على الدير، وامتحن نفسك، فإذا وجدت راحة قلبك فى الرهبنة، فسر على بركة الله، ونعمته تعالى فلتشملك.

---

(١) كتب فى عيد نياحة القديس أثناسيوس الرسولى ١٥ من مايو ١٩٩١م - ٧ من بشنس ١٧٠٧ ش.

٣٠ - مواصلة التلمذة هى فرصة الراهب الذى لا يتوقف عن الدرس

الابن العزيز والأب المحترم الراهب.....

عندك فرصة ثمينة لا تقدر بثمن للإمتلاء روحيا وذهنيا وعلمياً فى الدير- بالقراءة والكتابة والترجمة مع صقل إستعداداتك اللغوية، فى اليونانية والانجليزية، والعبرية والعربية والقبطية، فضلاً عن الكتب الأخرى فى علوم الفلك وعلم النفس، والاجتماع وإِنى أعرف أن مكتبة الدير غنية جداً بالكتب، القديمة والحديثة. ليتك تنظم وقتك بحيث تستخرج من المكتبة مثلاً سبعة كتب فى موضوعات مختلفة، أحدها فى الرُوحيات والنسكيات، وآخر فى تفسير الكتاب المقدس، وثالث فى اللاهوتيات والعقائد، ورابع فى الطقوس، وخامس فى العلاقة بين العلم والدين- فى الچيولوچيا والطبيعيات... وسادس فى العلوم الإنسانية- وسابع فى اللغات، فضلاً عن نص الكتاب المقدس باللغات اليونانية والإنجليزية والقبطية... الخ إن وقت الراهب ثمين.. ويجب أن يستغله فى بناء شخصيته الروحية والعلمية، فإنّ الأديرة كانت دائما وفى كل العالم أفضل المراكز العلمية التى نشأت فى أحضانها الجامعات، أقول إِنّ مواصلة التلمذة على مستويات أعلى هى فرصة الراهب الذى لا يتوقف عن الدرس والتعلْم حتى لو كان سنه كبيراً.

إننى أغبط الراّهب الذى يُعطى وقته للعبادة وللدرس معاً فضلاً عن العمل اليدوى، لأنه بهذه المجالات الثلاثة ينمو ويعلو كالعمارة العالية إلى أن يبلغ علوها السماء.

«واختارت مريم النصيب الصالح الذى لن ينزع منها إلى الأبد»، «فإنّ الحاجة إلى قليل أو إلى واحد».

أشكرك على خطابك الذى أثار ذاكرتى، وإِنى أرجو الله أن تعيش وتحيا فى نعيم السّعادة الروحية، التى ينعم بها أكثر من غيره ، الراهب الذى وهب حياته، ونذر ذاته، لحياة التأمل، أرجو أن تفرح بالطريق الذى اخترته لنفسك، وأن تستغل وقتك فلا يضيع منك، فى أشياء أقل قيمة.

إنّ قلبى معك، ومع محبتى، أُصلى أن يحفظ الله حياتك، ويبارك وقتك، ويقوى جهادك، ويقبل منك صلواتك وعن الكنيسة كلها.

الرب معك، ومع جميعنا، ولأسمه المبارك المجد.

٣١- ليس للرهبنة سن معينة للرجال

الابن العزيز / ....

سلام ومحبة ودعاء وبركة من ربنا يسوع المسيح أرجو لكم موفور الصحة وكل التوفيق

قرأت خطابكم غير المؤرخ بتاريخ، وفيه إتجاه واضح نحو الرهبنة، وأن هذا الإتجاه قديم، وهو ينمو فيكم ولا يخبو، وقد قضيتم فترات خلوة كثيرة بجميع الأديرة ولكن ـ وقد هاجر أو سافر جميع أخوتكم الخمسة إلى بلاد أوربا،وأنت الآن تقيم مع والديك وهما كبيران أو متقدمان فى السن، أعطاك الرب بركة خدمتهما، وقد نصح لك أب إعترافك أن تبقى مع أبيك وأمك إلى أن يفتح لك الرب باب أحد الأديرة للرهبنة.

وأنت تخشى ـ على قولك ـ أن العمر يمرّ وقد يرفض الدير إلتحاقك به كطالب رهبنة.

وإنى أطمئنك أنه ليس هناك بالنسبة للرجال سن معينة أو محددة ـ وما سمعته بالنسبة للسن فهو عن البنات. والسبب فى ذلك أن رئيسة الدير قد تعترض على رهبنة البنت خوفاً من أن يكون سبب رهبنتها هو عدم توفيقها إلى الإرتباط بزوج.

أما بالنسبة للرجال فليس هناك سنّ معينة، بل كلّما تقدمت السن كان الطريق أوضح ـ وإنى عرفت فى الأديرة رهباناً، دخلوا الرهبنة فى سن المعاش.

فأنت يمكنك مادمتَ معتزماً على الرهبنة أن تدخل الدير الذى تريده فى أى سن.

ونحن ننصح لك إذا كانت ظروفك العائلية تتطلب كما نصحك أب إعترافك، أن تعتبر نفسك راهباً منذ الآن. وتمارس الصلاة فى أوقاتها السبعة والأصوام وأنت فى البيت، وتحيا راهباً بالروح والذهن والجسد، وقد سبق للقديس يوحنا ذهبى الفم أن رغب فى الإعتكاف بالدير، وكانت أمه أرملة ، فترجته بدموع أن لا يتركها، فاستجاب لرغبتها، حتى فارقت الحياة، وعند ذاك اعتكف بالدير. وقوانين الرهبنة تنص صراحة على ذلك: إذا كان لإنسان قريب، أبوه أو أمه فى حاجة إليه، فلا يجوز له أن يتركه ويذهب للدير.

وعلى ذلك وبناء على نصيحة أب اعترافك، اعتبر نفسك راهباً وعش راهباً نذر البتولية لذاتها وفى ذاتها، ومارِس قوانين الرهبنة فى الصلوات والأصوام، فى البيت والعمل، ولاتتردد من حيث السن.

وكن مطمئنا ضميريا، والرب الإله يعينك ويقويك ونعمته تشملك.

ولعظمته تعالى الشكر دائما،،،

٣٢ـ لماذا كانت الرهبنة طريق الكمال(١)

سؤال من الإبنة العزيزة الآنسة / ....

لماذا كانت الرهبنة طريق الكمال، فى حين أن الخدمة فى العالم أجدى للكنيسة وللناس من طريق الرهبنة، الذى يلجأ إليه الإنسان طلبا لخلاص نفسه فقط، ثم أن من يترهب لا يستطيع الناس الإتصال به لينتفعوا به، بينما تكون فائدته أكثر لو بقى فى العالم متبتلا ومكرسا حياته لله وللخدمة؟

الجواب :

إذا كانت الرهبنة طريق الكمال فالتعبير مأخوذ من كلمات الرب يسوع، كما قال للشاب الغنى «إذا أردت أن تكون كاملا، فاذهب وبع ماتملك واعط للفقراء، فتقتنى لك كنزا فى السماء وتعال اتبعنى» (متى ١٩ : ٢١)، (مرقس ١٠ : ٢١) (لوقا ١٨ : ٢٢).

وفى هذا النص يتضح أن طريق الكمال يقتضى أولا ـ **التجرد التام من القنية** ببيع الإنسان جميع مايملك ويعطيه للفقراء. ثانيا ـ **التبعية التامة الكلية للمسيح** وهذا واضح أنه يقتضى الرهبنة لأنها فى جوهرها ـ تجرد عام من الملكية، وإعطاء الحياة كلها للمسيح. ومن غير الرهبنة لا يستطيع الإنسان أن يكون كله للمسيح، ولا يقدر أن يتجرد تجردا تاما من القنية... حتى رجال الدين المتزوجون أصحاب العائلات لا يمكنهم التجرد التام الذى يتحدث عنه المسيح، لأنه يلزمه لأولاده وأسرته أن يمتلك ويقتنى شيئا ولو محدوداً، حتى يمكنه أن يضطلع بمسئولياته العائلية كرب أسرة تتألف منه ومن زوجته وأولاده، وما يعوزهم من ضرورات الحياة من طعام وشراب ولباس ومسكن وتعليم ونفقات أخرى...

ولقد فهم القديس الأنبا أنطونيوس كلمات المسيح عندما ذهب إلى الكنيسة وسمع الإنجيل، فلما أراد أن يترجمها عملياً ويمارسها فعلاً لم يجد بدا من الرهبنة، فباع أملاكه، واطمأن على مصير أخته ووزع مايملك على الفقراء، واعتزل العالم للتعبد المطلق، بحيث يعطى لاجزءاً من وقته بل كل وقته للعبادة، فيكون كملائكة السماء الذين يقفون أمام الله دائما ينظرون إلى وجهه. يلاحظ فى هذا الصدد قول جبرائيل الملاك لرئيس الكهنة زكريا والد يوحنا المعمدان «أنا جبرائيل الواقف أمام الله» (لوقا ١ : ١٩) يوافق هذا ويقابله قول إيليا النبى وقد كان راهبا بكل معنى الكلمة ـ متبتلا يسكن الجبال: «حيٌ هو رب الجنود الذى أنا واقف أمامه» (الملوك الأول ١٨ : ١٥)، (١٧ : ١)

---

(١) كتب فى ١٨ من أغسطس ١٩٧٤م ـ ١٢من مسرى ١٦٩٠ش.

فخدمة الرهبان هى خدمة الملائكة، ولذلك قالوا فى بعض كتب البيعة «الرهبان ملائكة أرضيون وبشر سمائيون».

وعلى الرغم من أن حياة الرهبنة هى حياة التأمل «والصلاة بغير إنقطاع» (الرسالة الأولى إلى تسالونيكى ٥ : ١٧) فإنها مغبوطة لذلك، وتعد الحياة عينها التى مدحها الرب بصفة خاصة فى مريم أخت لعازر، التى جلست عند قدمى رب المجد، وتركت أختها تخدم حتى تذمرت أختها وشكتها للرب، ومع ذلك مدح السيد مريم وقال «الحاجة إلى واحد فاختارت مريم النصيب الصالح الذى لن ينزع منها» (لوقا ١٠ : ٤٢)، وهى تعد أكثر كمالاً من حياة الخدمة، أو أكثر غبطة منها.

هذا ليس معناه أن الفرق بين حياة التأمل وحياة الخدمة كالفرق بين الخير والشر، حاشا لكن معناه أن حياة التأمل أكثر مجداً من حياة الخدمة لماذا؟

لأن حياة التأمل أكثر مشقة وصعوبة، ولا يقدر عليها إلا قلة قليلة من الناس، قادرون على ضبط الفكر والحواس، ولا يغلبها الملل أو الكسل، عن هذا الطراز من الحياة الباطنية التى لا تتوافر إلا لمن لهم خصوبة روحية غير عادية... هذه الخصوبة التى تغلب الملل والرتابة.

ثم إن هذه الحياة التأملية مستحيلة، إلا لمن كان لهم عمق ونصيب كبير من غنى المحبة الإلهية، هذا الغنى الذى يجعلهم يستعذبون حياة الصلاة بغير إنقطاع ويستزيدون منها كلما تقدموا، وتصير الصلاة لهم ألذ من الطعام والشراب، بل أقوى من الرغبة فى النوم، حتى أن بعضهم كان يتعمد ينقص ساعات نومه، ويتحايل على منع النوم حتى يتوافر له وقت أطول للصلاة التى بلا إنقطاع.

ثم أن حياة التأمل طريق أكمل للمعرفة الإلهية، فما أبعد الفرق فى مدى المعرفة التى يتوصل إليها من ينقطع طوال نهاره وليله لهذه الكرامة ويتبتل لهذه الغاية، مكرسا كل حواسه وطاقاته ووقته لهذا الأمر الواحد الوحيد، ومبعداً عن ذهنه كل الشواغل الأخرى... أقول ماأبعد الفرق بين ما يتوصل إليه الراهب المنقطع، وبين ما يتوصل إليه الإنسان الموجود فى العالم فى صخب الحياة وضجيجها بين المشاغل المختلفة الهامة والتافهة؟

إذا كان التلميذ المجتهد يعكف فى بيته على مكتبه لا سيما قبيل الإمتحانات وأثناءها مكرسا كل جهده ووقته،طارحا عنه كل المشغوليات الأخرى مضحيا بالخروج وبمتعة الصداقات والحفلات والإجتماعات واللقاءات فى سبيل إتقان دراساته.

وكذلك يفعل العلماء على الحقيقة الذين يتزوون فى مكتباتهم أو معاملهم، عن كل نشاط إجتماعى حتى يوفروا جهودهم ووقتهم لأبحاثهم.

فعلى هذا القياس نفهم فلسفة الرهبنة أنها إنقطاع لطراز من المعرفة، هى المعرفة الإلهية التى يتطلب الغوص فيها والدخول إلى مداخلها الأبعد غوراً، تبتلا وإنقطاعا وتهدجا ومواصلة للتأمل بغير إنقطاع، وصبرا على تركيز الإنتباه، وعلى استبعاد كل الشواغل للوصول إلى الهدف الواحد.

لهذا كانت الرهبنة طريق الكمال لأنها الطريق الأشق، ولا يقوى عليها إلا قلة من الناس لهم قوة إرادة وصلابة على هذا النوع الشاق من الحياة الصعبة والاستمرار فيه وعدم الرجوع عنه، وقال الرب «ليس الجميع يقبلون هذا الكلام وإنما الموهوبون فقط... فمن استطاع أن يقبل فليقبل» (متى ١٩: ١١، ١٢).

ومع ذلك يوجد الذين دخلوا الطريق الصعب ولم يستطيعوا الإستمرار فيه ففشلوا أو تحولوا عنه إلى طريق أسهل...

هذا ويبدو لمن ينظر إلى الأمور نظرة خارجية غير فاحصة أن طريق الخدمة فى العالم أفضل بالنسبة إلى الكنيسة.

ولاشك أن طريق الخدمة فى العالم ضرورى، لكنه محدود فى أثره بالنسبة لطريق الرهبنة التامة. محدود أولا فى نتائجه المباشرة للخادم. فالخادم المنشغل بالآخرين ليس له الوقت الكافى للنمو فى الفضيلة والمعرفة والخبرات الروحية التأملية بالنسبة إلى الراهب.

وكذلك بالنسبة للنتائج التى تعود على الكنيسة فى المدى البعيد، أقول إن أثار حياة الراهب الصالح على الكنيسة وفيرة وغنية وتمتد إلى أجيال وأجيال... لقد دفن الأنبا أنطونيوس نفسه كما يقول البروتستانت مشوهين مسلكه، ولكنه هذا الذى دفن نفسه كان كحبة الخردل التى دفنت وماتت، ولكنها بعد وقت صارت شجرة كبيرة حتى أن طيور السماء تآوت تحت أغصانها.. لقد كان صدى سيرة القديس أنطونيوس عبيراً عطر المسكونة شرقاوغربا..وأثره لا يمكن التحدث عنه بحال لأنه أعظم جدا مما يستطيع إنسان أن يحده.

الخلاصة:

إن الفرق بين الراهب والخادم فى العالم كالفرق بين العَالِم والمُعلم. إن المعلم نافع ووجوده ضرورى لمنفعة التلاميذ، ولكن العالم أكثر نفعا إذا نظرنا إلى أثَره البعيد للأجيال كلها..

إن عمل كل منهما يكمل الآخر، ولكن يجب أن نكرم عمل العالم لأنه لا يقوى عليه إلا قلة موهوبة من الناس... إن الذين يمكنهم أن يكونوا معلمين... أكثر جدا بما لا يقاس عن الذين يمكنهم أن يكونوا علماء، لأن الحياة الثانية أشق من الأولى...

٣٣- لا يسمح لك بالرهبنة بدون موافقة زوجتك (١)

العزيز الإبن / ....

أما عن موضوع الرهبنة، فحيث أنك متزوج فأنت مرتبط بإمرأة ، فلايُسمح لك بالرهبنة بدون موافقة زوجتك. على أن تقرر هى أيضا الرهبنة فتذهب إلى دير للنساء. هذا ما كان دائما يفعله كل من يرغب فى الرهبنة من المتزوجين. هذا المبدأ مقرر فى الكتاب المقدس وفى تعاليم الآباء القديسين . «**لاتفارق المرأة رجلها**. وإن فارقته فلتلبث غير متزوجة، أو لتصالح رجلها. ولا يترك الرجل زوجته» (١. كورنثوس ٧: ١٠، ١١) «**أنت مرتبط بإمرأة فلا تطلب الإنفصال**» (١. كورنثوس ٧: ٢٧)

وكذلك قوانين الرهبنة تنص على أنه لا يجوز لرجل متزوج أن يترهب إلا بموافقة زوجته، على أن تكون هى راغبة فى الرهبنة لا مضطرة، وإلا فإن هذا الفصل يعرض كلا من المرأة والرجل للخطيئة والإثم...

٣٤- لا تيأسى إذا كنتِ حقا راغبة فى حياة الرهبنة (٢)

الإبنة العزيزة / ....

سلام أيتها الإبنة ودعاء إلى الله أن يحفظ شبابك طاهراً، وأن ينعم عليك بالصحة والبركة على حياتك.

قرأتُ خطابك، الذى شرحتِ فيه رغبتكِ فى الرهبنة، ولكنك لم تُقبلى بعد فى أحد أديرة البنات بحجة أنه ليس هناك مكان.. وقد عرفتِ من أُخريات أنه قيل لهم ذلك.. فلا تيأسى إذا كنتِ حقاً راغبة رغبة صادقة فى حياة الرهبنة..

واعلمى أيتها الإبنة أنك مادمتِ راغبة فى حياة البتولية رغبة صادقة، فستتحقّق أُمنيتك هذه، فتشجعى ولا تترددى ولاتيأسى. إن الرب بنعمته كفيل بأن يفرح بك وبرغبتك وسيعينك على هذا. فقط، إفحصى نفسك جيداً، حتى لا تكون رغبتك فى الرهبنة بسبب تخوفك من الزواج ومسئوليات الزواج ومتاعب الزواج. أما إذا كنتِ تعشقين حياة البتولية لِذاتِها، وليس لسبب آخر، فلسوف تتحقق أُمنيتك، إن شاء الله.

ونعمة الرب تشملك.

---

(١) كتب فى ١٠ من أغسطس ١٩٨٧م - ٤من مسرى ١٧٠٣ش.

(٢) كتب فى ٩ من مارس ١٩٩١م - ٣٠من أمشير ١٧٠٧ش.

٣٥ـ أب إعترافكِ يوجهك إلى الرهبنة ويزكيك (١)

العزيزة الآنسة / ....

سلام وبركة

ردا على خطابك بخصوص رغبتك فى الرهبنة أجيب بأنه ينبغى أن تعرضى أولا رغبتك على أب إعترافك، فهو يرشدك أولا ثم يزكيك لرئيسة الدير، إن الأفضل أن يكون أب إعترافك هو الذى يوجهك إلى الرهبنة ويكتب للرئيسة تزكية، وسيكون لهذه التزكية إحترامها.

ونعمة الرب تشملك،،،

٣٦- هل يمكن لبروتستانتى أن يترهبن فى الدير؟(١)

سؤال من السيد / ....

يقول أننا سبق أن أجبنا على سؤال سابق لراغب فى الرهبنة أن يستشير أب إعترافه، ثم يحمل منه خطاب تزكية إلى رئاسة الدير- فما هى نصيحتنا له إذا كان هو أيضا يرغب فى الرهبنة علما بأنه قبطى بروتستانتى وهو يسأل أولا- هل يجوز له أن يترهب، أم أن الرهبنة قاصرة على الأقباط الأرثوذكس وحدهم، وثانيا - ما هى الإجراءات التى يتخذها لتحقيق رغبته فى دخول الدير؟

الجواب :

الرهبنة ليست قاصرة على الأقباط الأرثوذكس. الرهبنة إتجاه نفسى وروحى، يمكن أن يتجه إليه أى إنسان من كل دين، ومن كل جنس ولون من حيث هو إنسان خلقه الله على صورته ومثاله. الرهبنة طريق تعبّدى ومنهج يهب به الإنسان نفسه للعبادة منقطعا متبتلا لها، مشغولا بحياته الروحية الخالصة، مجاهدا فى بناء حياته الباطنية، بناءً كاملا، ناظرا بإهتمام إلى حياته بعد الموت، ساعيا للخلاص من خطاياه ومن كل مايعيقه عن الخلاص الأبدى، فيحظى بفردوس النعيم وملكوت السماوات.

لذلك رأينا على مدى التاريخ رهبانا من بين بنى إسرائيل، ولعل من أبرزهم من بين الأنبياء المعروفين إيليا النبى، وأليشع النبى ثم يوحنا المعمدان. ومن بين الفرق اليهودية أيضا الأسينيون (المتنطسون) الذين كانوا يسكنون الصحارى والجبال متبتلين لايتزوجون، يتعبدون صائمين قانعين بشظف العيش.

وفى مصر قبل المسيحية، سلك بعض المصريين مسلك الرهبان فى الصحارى المصرية متبتلين متعبدين كان بعضهم من الوثنيين، وكان بعضهم من اليهود.

وكذلك قل عن رهبان من الهنود وغيرهم من شعوب آسيا ومنهم البراهمة والبوذيين،

والخلاصة أن الرهبنة منهج تعبدى، وليست دينا، وهى مفتوحة للجميع.

أما الأديرة، فهى منظمات لها قواعد ونظم وقوانين، وهى تشترط فى الداخلين إليها شروطا تكفل للمنضمين إليها وحدة الفكر والعقيدة والمنهج، ليتوافروا على العبادة بروح واحدة للجماعة كلها. فالرهبان فى أى دير يؤلفون مجتمعا، ويشترط لهذا المجتمع ضمانا لقيامه واستمراره

---

(١) كتب فى ٧ من اكتوبر ١٩٨٠م - ٢٧ من توت ١٦٩٧ش.

الخضوع لنظام وقواعد يرتضيها الجميع، وهى عادة مرسومة ومعروفة ويعرفها كل من ينضم للجماعة قبل أن ينضم إليها.

وللأرثوذكسيين فى مصر عدد من الأديرة فى صحارى مصر غربيها وشرقها، شمالها وجنوبيها. والمعمورة منها أحد عشر ديرا للرجال.

وحيث أنك راغب فى الرهبنة فنحن ننصح لك بأن تطلب مقابلة نيافة الأنبا........ وهو رئيس دير.............. فهو يوجهك بما يحقق رغبتك.

٣٧- هل يفي بنذر حياته للرهبنة ؟

سؤال من السيد/ ....

يقول أنه شفي من مرض شديد وطويل بدأ بحمى روماتيزمية وانتهى به إلى الشلل الكلي. وبينما كان هو وأهله في يأس تام من الشفاء صلّى إلى الله بحرارة، ونذر نفسه لله إذا شفاه، فتجلت له العذراء أم النور في حلم، وأمرته بأن ينهض ويمضي إلى الكنيسة، فاستيقظ مبهورا وقد تم شفاؤه تماما، والتحق بعمل يعول به نفسه وأسرته لمدة أربع سنوات. ثم تذكر نذره ووعده بأن يهب حياته لله راهبا، وهو يسأل النصيحة.

الجواب :

ردا على خطابك نفيدك بأن المعجزة التي صنعتها معك العذراء القديسة مريم أم النور، معجزة حقيقية وباهرة. ونحن نمجد الله معك على هذا العمل الإلهي والنعمة السماوية التي شملتك.

وحيث أنك، على قولك، نذرت حياتك لله، وتريد الرهبنة، فنحن ننصح لك بالآتي:

أولا : عليك أن تعرض رغبتك هذه على الكاهن أبي ذمتك، المطلع على أسرارك، وهو أول من يقدم لك النصيحة والمشورة المناسبة، وهو الذي يشير عليك بناء على معرفته بتطورك النفسي والروحي إذا كانت الرهبنة تصلح لك، وأنت تصلح لها.

ثانيا : ينبغي أن تعرض نفسك على طبيب إخصائي في القلب والأعصاب. وبعد الكشف عليك جيدا وعمل الفحوص والأبحاث اللازمة يعطيك تقريرا طبيا عن حالتك الصحية الحالية. وبناء عليه يمكن التأكد من صلاحية الحياة الديرية والرهبانية لصحتك بعد أن تم شفاؤك منذ أربع سنوات.

ثالثا : ينبغي أن تراعي صوالح أسرتك قبل الرهبنة، فقد قلت في خطابك أنك إلتحقت بعمل بعد شفائك من مرضك لتعول إخوتك وأسرتك. واعلم أن قوانين الرهبنة لاتسمح لمن يعول أسرة، أن ينتظم في سلك الرهبان طالما أن أهله أو بعض أهله يحتاجون إلى وجوده معهم كعائل لهم.

رابعا : بعد هذا يمكن للكاهن أبي ذمتك وإعترافك أن يزكيك لرئيس الدير. فشهادة الكاهن أبي الإعتراف مهمة ومحترمة أمام رئاسة الدير.

٣٨ ـ هل يذهب فوراً إلى الدير ؟

سؤال من الإبن ....

الجواب :

إن الرهبنة دعوة مقدسة، لكنها ليست سهلة. هى نذر التبتل إلى الله مع إختيار الفقر طوعا وإعتزال العالم للتعبد.

ولكى تتأكد من إستعدادك لحياة التبتل ينبغى أن تفحص ضميرك بصدق، هل أنت تصلح لحياة التبتل كل أيام الحياة، ولا تندم على ذلك ؟

إن من الأفضل أن تنتظر قليلا للتأكد من صدق رغبتك واستعدادك لهذا النوع من الحياة الخاصة حتى لا تقع فى الندم، أو الإشتياق إلى الزواج.

ثانياً ـ هل أنت مستعد أن تحيا فى دير ولا تمل من وجودك فى الدير، بعيدا عن أهلك وعشيرتك ؟

ثالثاً ـ هل أنت مرتبط بواجب عائلى نحو اخوتك الصغار، أو أن والدك يمكنه أن ينفق على العائلة ولا يحتاج إلى وجودك إلى جواره لمساعدته ؟

هذه الأسئلة ينبغى أن تجيب عليها بأمانة وصدق. وننصح لك أن تبدأ بأن تتردد على بعض الأديرة، أديرة الصعيد، ومن بينها دير المحرق بالقرب من أسيوط، أو دير الأنبا صموئيل بالقرب من مغاغة أو دير الأنبا أنطونيوس أو الأنبا بولا ـ وتعرض رغبتك على رئيس الدير وتعمل بنصيحته. ومادام نيافة رئيس الدير قد طلب منك العمل فترة ما، فلا بأس من الطاعة وهذا نافع لك. على كل حال يجب أن تتردد على بعض تلك الأديرة لإمتحان نفسك ورغبتك وأخذ مشورة رئيس الدير.

٣٩ ـ هل يترك دراسته ويترهب؟ (١)

سؤال من ....

يقول أنه طالب بإحدى الكليات الجامعية يبلغ من العمر ١٩ سنه، راوده فكر الرهبنة منذ حداثته، ويلح عليه الآن هذا الفكر، ويرغب فى ترك دراسته بالكلية ليذهب توا إلى الدير. ويطلب النصيحة ؟

الجواب :

إننا ننصح لك بإتمام دراستك أولاً قبل الرهبنة. وعليك أن تستشير الكاهن أباك فى الإعتراف ليساعدك على فهم ذاتك. ولا داعى للإسراع والتعجل فإنك مازلت صغير السن عن نذر التبتل وإعتزال العالم. وقد تكون عليك إلتزامات عائلية حيال والديك وإخوتك. ينبغى أن تتريث قبل أن تتخذ قرارا فى الموضوع.

٤٠ ـ لا تعارض بين الرهبنة والحياة الزوجية المثمرة

سؤال من الإبن ....

يقول : فى إحدى العظات التى سمعتها من أحد الكهنة، علمت أن الإنسان خلقه الله كى يؤدى رسالة معيّنة هى الحفاظ على النوع وتعمير الأرض. لكن الرهبنة هى ترك العالم وترك الجسد وشهواته والذهاب لله وحده. وهذه تعتبر من أقصى درجات الإيمان فى المسيحية. فلو قلنا أن المسيحيين كلهم يترهبنون كى يصلوا إلى أعلى الدرجات الروحية، فهم بذلك يتركون العالم إذن، ويتخلون عن رسالتهم التى هى تعمير الأرض، وبهذا يعملون على إفناء روحهم وإفناء الإنسان، أى تحديد موتهم بنفسهم، فكيف هذا؟ وهل ما قاله الكاهن الذى ألقى العظة يتعارض مع الرهبنة؟

الجواب :

لا تعارض بين الرهبنة فى مفهومها الأصيل والدقيق، وبين الحياة الزوجية المثمرة للبنين والبنات لحفظ النوع. إنهما على خط واحد، وإن كان أحدهما أبعد وأكثر إمتدادا من الآخر، فى الروحانية وقداسة الجسد والروح (١ . كورنثوس ٧ : ٣٢– ٣٤) . لكنهما ليسا متناقضين أو متعارضين كما يبدو.

فالرهبنة هى زواج روحانى بين النفس وبين المسيح. النفس هى العروس، والمسيح هو العريس. وكما أن الرجل والمرأة يتحدان بسرّ الزيجة فيصيران جسداً واحداً، **هكذا تتّحدُ النفس الإنسانية بالمسيح إتّحاداً روحانيا، يصل بالنفس إلى أن تصبح مع المسيح إرادة واحدة ومشيئة واحدة ـ عندما يصل الإنسان الرُوحانى إلى (مقام الفناء والبقاء بعد الفناء)** ـ فتتعلق النفس بالمسيح فى وجدٍ وحب عميق، حتى تفنى النفس فى المسيح وتصير إلى حالة من الاتحاد الروحى التى وصفها الرسول بولس بقوله (مع المسيح صلبت، **فما أنا أحيا بعدُ، بل إنّما المسيح يحيا فىّ**. وإذا كنت أحيا الآن فى الجسد، فحياتى هى فى الإيمان بابن الله الذى أحبّنى وضحّى بنفسه من أجلى) (غلاطية ٢ : ٢٠) .

بيد أنّ طريق الرهبنة طريقٍ خاص، ولا يقدر عليه جميع الناس. وهو وإن كان طريقاً مفتوحاً للجميع، لكن لا يقبل عليه ولا يقوى عليه عادة إلاّ قلة من الناس، ممن لهم إستعداد له. **فهو يصعب على الغالبية، ولا يميل إليه ميلاً صادقا إلاّ من كانت قلوبهم مليئة بمحبة المسيح، إمتلاءً تاما،** بحيث تتجه كل عاطفتهم نحوه، فلا يكون فى القلب فراغ يشغله أحد آخر أو شئ آخر. وبعبارة أخرى يصبح القلب كله للمسيح، مشغولاً كله

بالمسيح، وبالتالى تنطفئ منه كل رغبة أو شهوة أو ميل أو عاطفة تتعارض مع محبته للمسيح. وليس معنى هذا أن الراهب يكره ماعدا المسيح، إنما معناه أنَّ محبته للمسيح تملك عليه كيانه، فيصير المسيح هو الأول، مكانته فى أعماق القلب، وفى بؤرة الشعور. ومن أجل المسيح يحب الناس، الأقارب والأباعد، ويخدمهم، من أجل سيده المسيح، لا لينال شيئا لنفسه من وراء خدمته لهم، وإنما من فيض حبه لسيّده المسيح يصير قلبه عامراً بمحبة الناس الذين خلقهم الله على صورته، فإذا عصوا سيّده وأغضبوه بتصرفاتهم، كان هو دائما إلى جانب سيّده ضدّ كل من يُغضب سيّده.

هذه المحبة الخاصة جدا فى هؤلاء القلة من الناس هى التى تدفعهم إلى أن يُعطوا حياتهم كلها لسيدهم. فهم يعشقون البتولية لذاتها، ويتركون سكناهم وسط الناس فى العالم، ويقصدون إلى الصحراء ليعيشوا كل حياتهم لسيّدهم، ينقطعون لعبادته، متبتّلين له، فلا يتزوجون ولا ينسلون. لا يتزوجون قريناً من بين الناس، إنما يتزوجون المسيح ذلك الزواج الروحى، فى شخوص دائم لله، يتوجهون بكل عاطفة الحب عندهم نحو الواحد الأحد . وكما قال بعض كبار الروحانيين يصف الحياة الرهبانية بأنها (الإنحلال عن الكل (كل أحد، وكل شئ) للاتّحاد بالواحد) ـ والواحد هو الله أو هو المسيح.

قلنا إن هذه الحياة الرهبانية طريق مفتوح للقادرين عليه، الراغبين فيه، والمؤهلين له بالحب والإرادة وصفاء النفس وطهارة القصد والنية.

قال المسيح له المجد فى بيان خصوصية هذا الطريق وأنه لا يُقبل إليه، ولا يسلكه، إلا الذين يرتضونه ويحبونه ويميلون بكل قلبهم إليه، ويؤثرونه عن طريق الزواج وولادة الأولاد. قال العليم بما فى ذات الصدور : (**ليس الجميع يقبلون هذا الكلام**، وإنمّا الموهوبون فقط، لأنه يوجد خصيان ولدوا على هذا النحو من بطون أمهاتهم، **ويوجد خصيان خصاهم الناس، ويوجد خصيان خصوا أنفسهم من أجل ملكوت السماوات. فمن استطاع أن يقبل فليقبَل**) (متى ١٩ : ١١، ١٢).

وقال عنه الوحى الإلهى على فم القديس بولس الرسول (وأقول **لغير المتزوجين وللأرامل، أنه خير لهم أن يبقوا مثلى، فإذا لم يطيقوا العفاف فليتزّوجوا، فالزواج أفضل من التحرُّق بالشّهوة**) (١. كورنثوس ٧ : ٨، ٩).

وإذن فطالما أن طريق الرهبنة طريق خاص، لا يقبله ولا يقبل عليه إلاّ من له رغبة فيه كاملة وإستعداد له، فلا مجال لإفتراض أن جميع المسيحيين يترهبون، فهذا الإفتراض لن يكون يوما صحيحا، ولن يصير حقيقة واقعة، لأنه مهما أقبل على الرهبنة أناس، يعشقون هذا النوع من

الحياة فإنه ستبقى الأكثرية العظمى ترغب فى الزواج وولادة الأولاد. ولعلك تعلم أنَ نمو السكان فى تزايد مستمر، ولقد ذهب العالِم الإقتصادى الإنجليزى مالثوس MALTHUS (١٧٦٦ - ١٨٣٤)م فى كتاب له عن (محاولة النظر فى التناسل) إلى أنَ عدد السكان يتزايد بمتوالية هندسية، وأنه يتضاعف كل ٢٥ سنة. ولذلك فإنه على الرغم من وجود رهبان فى كل بلاد المسكونة، وعلى الرغم من أنه كان ومازال عدد من الناس فى كل أمة لا يتزوجون لسبب أو لآخر، فالحقيقة الواقعة أنَ عدد الناس الأحياء فى كل وقت فى تزايد مستمر. وعلى الرغم من الحروب التى يموت بها الملايين وعلى الرغم من أعداد كثيرة من البشر يموتون بسبب الأوبئة والأمراض المختلفة، فضلاً عن أعداد كثيرة يموتون بحوادث الطائرات، والقطارات والسيارات وجنوح السفن فى البحار- ومن يحترقون ويهلكون بسبب الزلازل والبراكين وما إليها من كوارث الطبيعة.. نقول على الرغم من كل ذلك، فالعلماء يتحدثون اليوم عن الإنفجار السكّانى الذى يهدد البشرية والمعمورة كلها.

ولعلّك بعد ذلك كله قد اقتنعتَ أنَ الرهبنة - وهى طريق خاص للقادرين عليه - لن تقضى على العمران، بل لعلَ فيها بعض العلاج للإنفجار السكانى. أو قل، إنه بها يتحقق بعض التوازن فى أعداد الناس التى تتزايد تزايدا مستمراً بغير توقف.

٤١ - لا تجوز لك الرهبنة فى الدير ووالداك المريضان ليس لهما من يرعاهما غيرك (١)

سؤال من الإبن ....

يقول إنى أريد أن أدخل فى الرهبنة، ولكن لى أب وأم مريضان، فهل إذا بقيت فى العالم لخدمة أبى وأمى حتى لا يتعرضان للإهانة، فهل يعتبر سلوكى هذا محبة للأب والأم أكثر من محبتى للمسيح، وبالتالى فلا أستحق المسيح ؟ ألم يقل المسيح إنّ من أحب أباً أو أُما أكثر منى فلا يستحقنى ؟

الجواب :

اعلم أيها الإبن أنه لا يجوز للإبن أن يترك أباه وأمه المريضين، وهما فى حاجة إليه، ثم يذهب بعيدا عنهما إلى الدير.

إنّ قوانين الرهبنة لا تجيز للابن أن يترهب ووالداه مريضان وفى حاجة إلى رعايته لهما. لو كان لك شقيق أو أخ يمكن أن يرعاهما، جاز لك أن تتركهما تحت رعايته. أما فى غير ذلك، فلا يليق بك أن تهملهما. إن رعاية الابن لوالديه أو أحدهما واجب أولىّ وأساسى، وهو يدخل فى نطاق الوصية الخامسة من الوصايا العشر «أكرم أباك وأمك لكى تطول أيامك فى الأرض، التى يُعطيك الرب إلهك» (الخروج ٢٠ : ١٢)، (التثنية ٥ : ١٦) ، (متى ١٥ : ٤) ، (١٩ : ١٩) ، (مرقس ٧ : ١٠) ، (١٠ : ١٩) ، (لوقا ١٨ : ٢٠) ، (أفسس ٦ : ٢).

وجاء فى الرسالة إلى القديس تيموثيئوس «إذا كانت أرملة لها بنون أو حفدة، فليتعلّموا أوّلاً أن يتقوا الله فى أهل بيتهم وأن يفوا ماعليهم لوالديهم، لأن هذا صالح ومقبول أمام الله... وإذا كان أحد لا يعتنى بذويه، ولا سيما بأهل بيته، فقد أنكر الإيمان وهو شر من غير المؤمن» (١. تيموثيئوس ٥ : ٤ – ٨) ويقول أيضا «وإذا كان لمؤمن أو مؤمنة أرامل فليساعدهنّ ولا يثقّل على الكنيسة حتى يمكنها أن تساعد هى الأرامل اللواتى هنّ بالحقيقة أرامل» (١. تيموثيئوس ٥ : ١٦).

وجاء فى سيرة القديس يوحنا ذهبى الفم (٣٤٧ – ٤٠٧) م أنه اشتاق لحياة الوحدة والرهبنة، وكانت أمه لاتزال حيّة وكانت أرملة، فرجته أن لا يتركها وحيدة وهى أرملة، فقبل رجاء أمه وعاش فى العالم يخدم أمه ويرعاها حتى فارقت الحياة، وعندئذ، أى بعد أن توفيت والدته، ذهب وترهب... وهكذا صنع كثيرون من الأتقياء الملتزمين بمسئوليات عائلية.

---

(١) كتب فى ٧ من أبريل ١٩٩٣م - ٢٩ من برمهات ١٧٠٩ش.

أما قول المسيح له المجد «من أحبَّ أباه أو أمه أكثر منِى فلا يستحقنى» (متى ١٠ : ٣٧) فهو عندما يكون الأب أو الأم عائقاً للابن أو الإبنة عن تبعيتهما للمسيح أو الإيمان بالمسيح، كما هو الحال فى عصور الإضطهاد، مثلما حدث مثلاً للقديسة بربارة التى قتلها أبوها لإيمانها بالمسيح (انظر السنكسار تحت ٨ ـ كيهك) ومثلما حدث لإبنة خال الشهيد مارجرجس الأسكندرى التى لم يرض لها أبوها، وهو وثنى، أن تؤمن بالمسيح، فأمر بقطع رأسها. ونالت إكليل الشهادة (انظر السنكسار تحت اليوم السابع من هاتور) .

هنا فى مثل هذه المواقف الدقيقة التى يقف فيها المؤمن أمام خيارين عليه أن يختار أحدهما: إما أن يؤمن بالمسيح ويتحمل فى سبيل إيمانه غضب أهله، وإما أن يخضع لأمر والده أو والدته، إنه يقف أمام إمتحان صعب، وعليه أن يختار إمّا المسيح وفى سبيل ذلك عليه أن يحتمل اضطهاد والديه ورفضهما له، وإما أن يرفض المسيح طاعة لوالديه. هنا يكون عليه أن يقرر إما المسيح وإما والداه، لأنه فى مثل هذه المواقف الإيمانية لا يمكن أن يجمع الإنسان بين محبته للمسيح ومحبته لوالديه. لذلك يكون من واجبه إخلاصا لدينه، ووفاء للمسيح أن يرفض طاعة والديه. وبهذا نفهم قول المسيح له المجد «من أحب أباه أو أُمه أكثر منى فلا يستحقنى» (مت ١٠ : ٣٧) أو قوله «من يأتى إلىّ ولا يبغض أباه وأمه... لا يستطيع أن يكون لى تلميذاً» (لوقا ١٤ : ٢٦) .

٤٢ ـ قيمة حياتنا الرهبانية فى عصرنا

سؤال من الأب المحترم يوسف مظلوم صاحب ورئيس تحرير جريدة لميساجي. «قيمة حياتنا الرهبانية فى عصرنا هذا... وهل الأجدى الآن الصلاة وحدها أم العمل وحده... أم الإثنين معا.... وكيف التوفيق بينهما فى عالم كله تناقض ؟

الجواب :

ليست الحياة الرهبانية صلاة من غير عمل. حقا إن الرهبانية فى مفهومها السليم هى حياة «الصلاة بغير إنقطاع» (١. تسالونيكى ٥ : ١٧) ولكن الصلاة بغير إنقطاع، لم تفهم على أنها مجرد تسبيح وتأمل وإبتهال وتضرع، وإنما فهمت دائما ومنذ الإبتداء على أنها صلاة مصحوبة بعنصرين آخرين : هما الدرس، ثم العمل، أى أن الراهب يوزع ساعات يومه بين الصلاة والدرس والعمل. ولما كانت الرهبنة الحقيقية قوامها الصلاة، فإن الدرس أيضا درس مع الصلاة، ولتدعيم الصلاة، وليكون مادة للصلاة، وموضوعا لها. فالمعرفة عند الراهب ليست غاية فى ذاتها وإنما هى وسيلة لتنشيط العلاقة الروحية بين الراهب وبين الله. كذلك العمل ضرورى للراهب، لأنه ثمرة قريبة لروح الصلاة. فالعمل للراهب يوقظ حاسيته الروحية ويثيره للصلاة، كما يعطيه مجالا عمليا لممارسة نتائج الصلاة، بعمل يدوى وبدنى وجسمانى يقوم به. وقد قال الكتاب المقدس «وأن تحرصوا على أن تكونوا هادئين، وتمارسوا أموركم الخاصة، وتشتغلوا بأيديكم أنتم» (١. تسالونيكى ٤ : ١١) وقال أيضا «إن كان أحد لا يريد أن يعمل، فليس له أن يأكل» (٢. تسالونيكى ٣ : ١٠).

ولذلك نصت قوانين الرهبنة على أن الراهب الذى لا يعمل، يطرد من الدير. وقد عرفت أديرتنا التصنيع، وساد فيها العمل اليدوى والجسمانى فضلا عن الفكرى، فكانت الأديرة ولا زالت مجالا لأعمال الزرع والفلاحة، كما كانت ولا زالت مجالا للصناعات اليدوية والحرف والفنون، وكذلك كانت ولا زالت دورا للدرس وزيادة المعرفة والتأليف والبحث العلمى.

والفرق بين العمل بالنسبة للراهب، والعمل بالنسبة للإنسان المقيم فى العالم، أن العمل بالنسبة للراهب مصحوب بالصلوات والعبادة، وعمل مدفوع بنية الخدمة لله، وبروح الإحساس الكامل بالواجب. فهو عمل لا لتحصيل لقمة العيش ولا لنيل المدح من الناس، ولا لكى يترتب عليه الترقى فى الوظائف والمراتب والدرجات الإجتماعية والمالية، وإنما هو عمل نقى من كل تلك البواعث. إنه عمل كله من أجل الله، ولأجل الواجب المقدس، ومن أجل الدير ومجموع الرهبان، إذ أن عائد عمل الراهب لا يعود إليه، وإنما يعود إلى الدير..

على أنه من الخطأ أن يقال أن من الخير أن يترك الراهب عبادته وصلواته فى الدير لأجل العمل فى العالم بحجة أن العالم فى حاجة إليه. لأن عكوف الراهب على وحدته فى مكان بعيد عن الضوضاء والضجيج فى العالم، يتيح له فرصة ثمينة لحياة هادئة ينصرف فيها للعبادة والدرس، فى عمق لا يتوافر لمن يكون فى العالم، مثله فى ذلك مثل العالم الذى يصدف عن الإجتماعات بالناس واللقاءات بالناس، قابعا فى مكتبه أو معمله أو مرسمه منصرفا بكل حواسه إلى عمله، فيتوفر على إجادته وإتقانه والبلوغ به إلى الكمال. إن الرهبنة وإن كانت فلسفة روحانية تسمو بالراهب كإنسان وترفعه إلى مستوى رفيع من التقوى والعبادة والعلم والمعرفة، لكنها فى نفس الوقت تبنى المجتمع الإنسانى بما يجنيه المجتمع من حياة الرهبان الأفاضل من مثل عليا فى الفضيلة، ومن تواليف ودراسات نافعة.

٤٣ ـ الكاهن هو الذى يمنحك الحِل من نذر الرهبنة (١)

سؤال من الإبن ....

يقول إننى نذرت نفسى أن أكون راهبا ثمّ حدث بعد ذلك أن أُعجبت بإحدى البنات المشتركات فى الكورال، من حيث الأخلاق والأدب، والجمال، وتحوّل الإعجاب إلى حب فما الحل لمشكلتى مع نذر الرهبنة ؟

الجواب :

نعم إنّ الرهبنة نذر. ولذلك فإنّ من الخطأ أن ينذر شاب الرهبنة قبل أن يطمئن تماما إلى صدق عزيمته على حياة البتولية الطاهرة، فإنه كما يقول الكتاب المقدّس «إذا نذرت نذراً للهِ فلا تتأخر عن الوفاء به.. أن لا تنذر خير من أن تنذر ولا توفى» (الجامعة ٥ : ٤، ٥).

أما وقد أُعجبتَ بالفتاة وتعلّق قلبك بمحبتها، فنحن ننصح لك أن تتحرر من نذر الرهبنة والبتولية، على يد الكاهن المرشد وأب الإعتراف. فالكاهن هو الممثل للسلطة الإلهية، وهو من سُلطانه أن يمنحك الحلّ الكهنوتى من نذر الرهبنة، ولكن من بعد أن تمارس التأديب الكنسى الذى تأمر به الكنيسة لمن يكسر نذرا، وليكن مثلاً الصوم ليوم أو أكثر من يوم مع الصلاة والمطانيات مع بعض أعمال الرحمة والعطاء للفقراء أو كما يأمرك به الكاهن المسئول.

٤٤ ـ النذر السابق على الرهبنة (١)

الابن ....

سلام ومحبة ونعمة وبركة

ردا على سؤال الأخ الراهب عن النذر الذى نذره الراهب وهو فى العالم وقبل أن يلبس شكل الرهبنة بالدير، فهل هو مطالب بالنذر الذى نذره قبل الرهبنة؟ علما بأنه نسى هذا النذر حاليا ؟

الجواب :

نجيب بأنه من حيث المبدأ كان يجب الوفاء بالنذر قبل دخول الدير. وإذا كان المفروض فيمن يترهب أن يبيع كل ما يملك ويعطيه للفقراء قبل أن يتبع المسيح فى طريق الكمال، ويحمل الصليب معه (مرقس ١٠ : ٢١)، (متى ١٩ : ٢١) ، (لوقا ١٨ : ٢٢) فبالأحرى يجب وفاء النذر قبل دخول الرهبنة.

أما وقد لبس الراهب شكل الرهبنة وقدّم نذور الرهبنة، فمن الممكن ـ إذا تيسر له ذلك ـ أن يوفى بنذوره من نصيبه الذى يوزعونه على رهبان الدير.

فإذا لم يتيسر ذلك للراهب، فيمكن إعتبار نذره السابق على الرهبنة داخلاً فى نطاق النذر الكبير لحياته كلها للمسيح. على أنه يجب الإفصاح بهذا الأمر لأب إعترافه، فينال الحلّ عن النذر السابق، وحتى لا يتصرف من غير تدبير مرشده الروحى.

---

(١) كتب فى ٢١ من أغسطس ١٩٨٦م ـ ١٥ من مسرى ١٧٠٢ش.

٤٥ ـ هل يتخذ الراهب أبا لذمته غير رئيس الدير (١)

سؤال من أحد الرهبان :

راهب لا يثق فى أب إعترافه لأسباب كثيرة، علما بأن هذا الأب هو رئيس الدير الذى يجبر ويلزم الرهبان على الإعتراف عليه، بينما أنه لا توجد فى الراهب أدنى ثقة فى هذا الأب الرئيس أو محبة متبادلة أو شعور بأبوته، فهل يجوز للراهب أن يتخذ راهبا آخر ليكون أب إعترافه على الحقيقة، مع إحتفاظه بعلاقته بالأب الرئيس الذى يمكن أن يجلس معه جلسة روحية عامة ؟

الجواب :

أقول : نعم إن هذا جائز، بل هو الواجب، أى يجب أن يتخذ الراهب أباً لذمته كاهنا راهبا يضع فيه ثقته.

فالأصل فى الإعتراف أن يكون لله على يد شيخ روحانى عالم بالشريعة.

بل أقول إن من الخطأ أن يكون رئيس الدير هو أب إعتراف للرهبان، فإنه لا يليق بتاتا، روحيا ورهبانيا، أن يجمع رئيس الدير بين الرئاسة وبين أن يكون أبا لذمة الرهبان. إن الجمع بين الأمرين فتح لأبواب شرور كثيرة، منها : النفاق والرياء والكذب والخداع والخوف والتجسّس والتحيّز، والإذلال.. إلى غيرها من شرور أخرى كثيرة تتعارض جذريا مع كل القيم الروحية والرهبانية.

وعلى ذلك فإننا ننصح للراهب بأن يتخذ أبا لذمته شيخا يثق فى روحانيته وعلمه وحسن تدبيره ـ على أنه لا بأس من أن يتخذ الراهب من الرئيس مرشداً يستشيره فى شئون روحية عامة.

هذا إلى أنه لا داعى بتاتا أن يأخذ حلاً من الرئيس بذلك. فمن حق الراهب أن يتخذ أب إعترافه شيخا متميزا بالروحانية والعلم وحسن التدبير، ولا حجر على حريته فى ذلك، ولا داعى لإستئذان الرئيس فى ذلك، لما يسببه ذلك من حساسية ومن حرج.

ونعمة الرب تشملكم،،،

(١) كتب فى ٢١ من أغسطس ١٩٨٦م ـ ١٥ من مسرى ١٧٠٢ش.

٤٦ - لا يجوز إطلاقاً الإعتراف على الرهبان

سؤال من فتاة

الجواب :

إجابة على سؤالك بعد أن قرأت خطابك أفيدك بالآتى :

إن من الخطأ الإعتراف على الرهبان. إن الراهب يعترف على الراهب. وفيما عدا هذا ليس للراهب أن يسمع إعتراف العلمانيين، لا الرجال ولا النساء.

إن كنيستنا الأرثوذكسية بها النظامان : نظام الكهنة المتزوجين ثم نظام الرهبان. **وأباء الإعتراف لجمهور المؤمنين فى العالم هم عادة من الكهنة المتزوجين**. أما الرهبان فإذا خدموا فى الكنيسة أو فى العالم فيعفون من سماع الإعترافات ومن إفتقاد المؤمنين فى البيوت. وفيما عدا الإعترافات وزيارة البيوت، يمكن للراهب الكاهن أن يباشر الصلوات والقداسات.

لقد تكلمنا كثيرا، وكتبنا أيضا فى هذا الموضوع : **إن الإعتراف يجب أن يكون على كاهن الرعية وكاهن الرعية هو الكاهن المتزوج.**

اتخذى لك أب إعتراف لا من الرهبان، فهذا لا يجوز إطلاقا، ولكن ينبغى أن يكون شيخا معروفا بروحانيته وبعلمه وبحذقه فى فن قيادة النفوس.

٤٧ ـ لا يبدأ التوحد إلا تدريجيا

الابن............

سلام ونعمة وبركة

ردا على سؤالكم كيف كان الأنبا بولا وهو أول السواح يمارسِ سرّى الإعتراف والتناول طوال فترة توحده فى جبل القلزم، حيث أنه ذكر عنه أنه لم يرَ خلال هذه الفترة إنسانا ماخلا الأنبا أنطونيوس.

نجيب بأن أمثال هؤلاء الرهبان المتوحدين عموما، لا يبدأ التوحد إلاّ تدريجيا. ففى مبدأ الأمر يكون تحت تدبير كاهن ثم يعتكف فى مكان بعيد عن العمران، لكنه يكون أيضا على مقربة من الكنيسة، ومن الماء ومن مصادر الغذاء الجسدانى. والمعروف فى تاريخ الأنبا بولا بالذات، وكذلك الأنبا أنطونيوس أنه فى مبدأ الأمر كان إعتكاف الواحد منهما فى مكان قريب من النيل، حتى يأخذ منه نصيبه من الماء ـ وكذلك يروى التاريخ عن القديس الأنبا سمعان الملقب بالأنبا هيدرا الأصوانى أنه كان يراه الناس من وقت إلى آخر يحمل جرة من الماء يملؤها من النيل ماء، ثم يذهب بها إلى صومعته أو قلايته.

فإذا كان يقال إنه لم يرَ إنسانا ـ فهذا للدلالة على إعتزاله الإختلاط بالناس، وإعتزاله مجتمع الناس.

إن الأنبا بولا وأمثاله من المتوحدين لابدّ أنه فى مبدأ الأمر كان يذهب إلى أقرب كنيسة مجاورة متخفياً، لا يختلط بالناس ولا يتحدث مع أحد، يدخل الكنيسة ويحضر القداس ويتناول من الأسرار المقدسة ثم يخرج عائدا إلى مكانه فى تدريب صمت وعدم الإختلاط بالناس.

وكذلك شأنه بالنسبة للماء والغذاء، فإنه لا يدخل البرية الجوانية إلاّ بعد فترة طويلة، وبعد أن يكون عرف طريقة للحصول على الماء ثم على نوع من الغذاء ـ فالأنبا بولا وجد نخلة، ومنها كان يأخذ غذاءه من البلح. أما الخبز فكان يذهب بنفسه ليحصل عليه من مكان قريب أو بعيد، وأخيرا أعد له الرب غرابا يأتى إليه بنصف رغيف فى كل يوم.

وقد ورد فى تاريخ (الأب العظيم فى القديسين العابد المجاهد إبراهيم المتوحد) وكان متوحدا فى مغارة لمدة ست عشرة سنة لكنه (كان يقصد الدير فى كل سنتين أو ثلاث سنوات لتناول الأسرار المقدسة) (السنكسار تحت اليوم الثلاثين من شهر بابه).

وفى الأزمنة القريبة لا يقطع الراهب المتوحد صلته بالدير، فهو يتردد على الدير فى أوقات، لحضور القداس والتناول، ولأخذ نصيب من الطعام يكفيه لأيام، ثم يذهب إلى صومعته فى مكان بعيد، متعبدًا على حدة، ولكنه من وقت إلى آخر يعود إلى الدير للتموين الروحى والجسدى.

وبعد أن يبلغ الراهب المتوحد مرحلة متقدمة فى الوحدة، يتعرف على رهبان متوحدين من أمثاله، تجمعه بهم صلة محبة - يتعزون روحيا بلقائهم معاً، وقد يقصدون معاً إلى كنيسة قريبة أو بعيدة لحضور القداس والتناول من الأسرار المقدسة. وإذا كانت الكنيسة بعيدة، يحدث لهم إختطاف بالجسد. والإختطاف بالجسد ظاهرة روحية مألوفة فى حياة الرهبان المتوحدين المعروفين بالسواح.

والإختطاف بالجسد ظاهرة واردة فى الكتاب المقدس وفى كتب الكنيسة.

ففى الكتاب المقدس نقرأ فى سفر أعمال الرسل عن القديس فيلبس أنه بعد أن عمّد الوزير الحبشى، (خطف روح الرب فيلبس) ونقله من غزة إلى أشدود (أعمال الرسل ٨ : ٢٦ – ٤٠).

وكذلك حدث إختطاف بالجسد للنبى حبقوق وهو فى فلسطين (فأخذ ملاك الرب بجمّته وحمله بشعر رأسه. ووضعه فى بابل عند الجب) وذهب به إلى النبى دانيال عند جب الأسود فى بابل فى العراق، (ورد ملاك الرب حبقوق من ساعته إلى موضعه) فى فلسطين (دانيال ١٤ : ٣٢ – ٣٨).

٤٨ ـ شروط من يرغب فى الرهبنة (١)

العزيز الإبن ....

سلام ونعمة وبركة من ربنا يسوع المسيح

ردا على خطابكم واستفساركم عن الرهبنة، ننصح بأنه يُشترط فى من يرغب حياة الرهبنة :

أولاً ـ أن يكون مُحِباً وعاشقا للبتولية، لِذاتِها، وفى ذاتِها، وأن تكون محبته للبتولية ثابتة، وغير مترددة. لأن الرَهبنة نذر إختيارى، (وخير للإِنسان أن لا ينذر من أن ينذر ولا يفى) (الجامعة ٥ : ٥).

لذلك يجب أن يتثبت طالب الرهبنة من صدق رغبته فى البتولية لِذاتها، وفى ذاتها، وأن يتريث، ولا يتسرع بالنذر قبل أن يطمئن إلى نجاحه فى حياة الطهارة روحاً وفكراً وجسداً.

فإذا كان متردداً، فالزواج أصلح له، (لأن الزواج أصلح من التحرّق) (١ . كورنثوس ٧ : ٩).

ثانياً ـ على طالب الرهبنة أن يتثبّت من محبته للوحدة أى إعتزال العالم للتعبْد.

لأن الرهبنة فى تعريفها **هى نذر التبتل لله، مع إختيار الفقر طوعا، وإعتزال العالم للتعبد.**

فإذا لم يكن طالب الرهبنة يُحب الوحدة، ويعرف أن يستغل وقته، ويملأه بكل ما يبنى الشخصية الروحية من عبادة، ودرس فى الكتب، يمكن أن يحاربه الملل، أو الرغبة فى الحياة الإجتماعية.

لذلك يلزم أن يتثبّت طالب الرهبنة من إستيفاء شروط الحياة الرهبانية ومقوماتها، قبل أن يسرع بالنذر، حتى لا يعاوده الندم.

ونعمة الرب تشملكم،،،

---

(١) كتب فى ١٣ من اكتوبر١٩٩٢م ـ ٣ من بابه ١٧٠٩ش.

٤٩ - يراوده فكر الرهبنة (١)

سؤال من السيد ....

يقول أن فكر الرهبنة يراوده، وقد تردد فى مبدأ الأمر، ولكنه يجد ميله يزداد قوة، وطريقه إليها يشتد وضوحا. وهو مع ذلك يطلب الإرشاد قبل أن ينضم بالفعل إلى سلك الرهبان

الجواب :

قرأت خطابك، وفهمت مشاعرك وإحساساتك ويبدو واضحا من عرضك لتطورك الروحى والنفسى أن دعوة الرهبنة ملّحة عليك بصورة جلية.

لذلك مادامت الدعوة فى هذا الوضوح، فاستجب لها، مصليا بملء الخضوع أن تسير فى طريق الكمال بغير عوج أو إلتواء.

وليكن مثلك الأعلى السيد المسيح، وكبار لباس الإسكيم، ولا تلتفت يمينا أو شمالا لترى بشرا من الأحياء، ولا تدع سلوك شخص أو أشخاص يعثرك أو يحوّل فكرك عن التطلع شاخصا إلى الرب يسوع المسيح مثلنا الأعلى الحقيقى، وقدوتنا الكاملة.

واعلم أن طريق الرهبنة يتمثل فى نقطتين أساسيتين :

أولاً - البتولية الدائمة مدى الحياة.

ثانيا - الوحدة والإنفراد والعزلة عن العالم.

وعليك أن تسأل ذاتك : هل أصلح حقا للبتولية الدائمة، وهل هى طريقى، أم هى طريق أسير فيه بتغصب من أجل غرض آخر. ينبغى أن تكون البتولية مقصودا إليها لذاتها، وليست وسيلة لغرض آخر حتى لو كان هو الخدمة - ينبغى أن تكون البتولية هدف الراهب فى ذاتها، وأن تبدو أمام عينى قلبه مجيدة لذاتها، وشريفة لذاتها، ومحبوبة لذاتها.

ثانيا - هل تراك سعيدا فى الوحدة. وهل إذا قضيت وقتك كله فى غرفة لا تخرج منها يوما أو أكثر من يوم، هل ستملأ وقتك كله بما يفيد روحك ونفسك؟ أم أنك تشعر بالضيق من الوحدة؟ ثم إذا كانت الوحدة والإنفراد فى الدير أو فى مغارة هى لك كل الحياة، هل ستكون بها سعيداً ؟ عليك أن تمتحن ذاتك حتى لا تندم على الطريق فيما بعد، وفيما لو أنك بقيت فى الدير ؟

---

(١) كتب فى ٥ من يونيه ١٩٧٩م - ٢٨ من بشنس ١٦٩٥ش.

واعلم أيضاً أن الراهب ينبغى أن يوزع وقته بين ثلاثة مهام أساسية.

الأولى ـ الصلاة والعبادة.

الثانية ـ القراءة والدرس.

الثالثة ـ العمل اليدوى.

ويختلف نصيب الراهب من كل تلك المهام بحسب تطوره النفسى، فيكون العمل اليدوى أكثر بالنسبة للمبتدئ ويزداد الوقت المخصص للصلاة وللدرس كلما تقدم الراهب فى حياة الرهبنة.

وينبغى أن لا يترك الراهب دقيقة واحدة من وقته بلا عمل فى أى من تلك المهام الثلاثة، بحيث لا يكون فى حياته فراغ. يقول الآباء، آباء الإسكيم أن الراهب الذى يشتغل يحاربه شيطان واحد، والذى لا يشتغل تحاربه شياطين كثيرة.

ويقولون : أن عقل الكسلان معمل للشيطان.

فإذا سرت فى طريق الرهبنة، فانشد الكمال. اطلب أن تدخل إلى أعماقها ولا تكتفى بسطحيات الأمور. عش فى الداخل أكثر من الخارج ولكن لا تفتعل الأمور. كن طبيعيا، وليكن نموك طبيعيا. فلا تندفع بفورات العاطفة، ولكن اضبطها بالعقل والحكمة، وروح الصلاة والتريث.

٥٠ ـ الرهبنة نذر التبتل وإعتزال العالم للتعبد

سؤال من الإبن ....

يقول إنى شاب فى المرحلة الثانوية ولى إشتياق لحياة الرهبنة ولى بعض الأسئلة :

١ ـ ما هى السن التى أبدأ فيها فى التفكير فى الرهبنة ؟

٢ ـ ما هى تصرفاتى المناسبة ؟

الجواب :

جاء فى بعض المصادر أنه من المستحسن أن لا تقل سن الراغب فى الرهبنة عن الثانية والعشرين، علما بأنّ مفهوم الرهبنة هو :

١ ـ نذر التبتل لله. ٢ ـ إختيار الفقر عن طواعيه. ٣ ـ إعتزال العالم للتعبد.

هذه هى الأركان الثلاثة للرهبنة.

ويضاف إليها ركن رابع هو الطاعة والخضوع لتدبير أب الدير.

وللإجابة على أسئلتك الأخرى.

ننصح بأن تتمم دراستك العلمية قبل دخول الدير، وفى هذه الأثناء تحافظ على طهارتك، وتمتحن نفسك إذا كنت قادراً على أن تحفظ بتوليتك، وأن تكون محبتك للبتولية، هى فى ذاتها ولذاتها، وليس لهدف آخر، أى لا يكون هدفك الحقيقى الحصول على درجة كهنوتية، ولابد أن تمتحن ذاتك قبل أن تنذر الرهبنة لئلا يتعقبك الندم على عدم الزواج. فالرهبنة نذر التبتل «وأن لا تنذر خير من أن تنذر ولا تفى» (الجامعة ٥ : ٥).

فإذا كنت متردداً، أو كانت رغبتك فى البتولية أقل من مائة فى المائة، فلا تسرع بنذر الرهبنة أو البتولية قبل أن تكون واثقا من نفسك حتى لا تندم فيما بعد، كما جاء فى الكتاب المقدس «فإذا لم يطيقوا العفاف فليتزوجوا، لأن الزواج خير من التحرق بالشهوة» (١ . كورنثوس ٧ : ٩).

كذلك ننصحك، قبل أن ترتبط بنذر الرهبنة أن تتردد على بعض الأديرة فى خلوات روحية لبضعة أيام لترى ما إذا كان طريق الرهبنة يصلح لك، وأنت تصلح له..

وعلى العموم يجب أن تتريث وقتا كافيا قبل أن تقرر نذر الرهبنة.

ثم إنه يتضح من خطابك أنك تبغى التبشير فى البلاد التى لم تصلها المسيحية على قولك. ولهذا يلزم أن تتجه للتلمذة والإلتحاق بالكلية الإكليريكية لتحصل على المؤهلات اللاهوتية التى تتمكن بها من الخدمة، وأن ترجئ الرهبنة إلى وقت آخر.

---

(١) كتب فى ٢١ من أغسطس ١٩٨٦م ـ ١٥ من مسرى ١٧٠٢ش.

كلمات عن الرهبنة (١)

+ (الرهبان) فهموا عن الله، وساروا إلى الله، وأعرضوا عما سوى الله، خرقت الحجب أنوارهم، وجالت حول العرش أسرارهم، وجلّت عند ذى العرش أخطارهم، وعميت عما دون العرش أبصارهم، فهم أجسام روحانيون، وفى الأرض سماويون، ومع الخلق ربانيون، سكوت نظار، غيّب حضار، ملوك تحت أطمار. (التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذى ص ٤).

+ تركوا الدنيا فخرجوا عن الأوطان، وهجروا الأخدان (الأصدقاء)، وساحوا فى البلاد، وأجاعوا الأكباد، وأعروا الأجساد (التعرف ص ٥).

+ (الراهب) من صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر (الحقائق الروحية) وانقطع إلى الله من البشر، واستوى عنده الذهب والمدر (الطين) (التعرف ص ٩).

+ من لوازم الرهبنة : قلة الكلام، قلة المنام، قلة الطعام.

+ الوحدة هى ذلك البحر الذى يتصاعد منه الماء، فينعقد سحابا ويهبط أفكاراً من حين إلى حين.

الوحدة هى المحجر الروحى... الذى لا غنى عنه لكل صاحب رسالة عقلية أو دينية (فيكتور هيجو).

الوحدة هى الصفحة البيضاء التى يرسم عليها الإنسان مشاهد الطبيعة وخلجات الحياة.

مقال هام عن الرهبنة والتوحد بعنوان خطاب من مرشد روحانى حول حياة الكمال المسيحى - بمجلة مدارس الأحد سنة ١٦ عدد ٤ (مايو ١٩٦٢ - برمودة ١٦٣٨ صفحة ٧، ٨، ٩، ١٠، ١٣.

---

(١) كلمات عن الرهبنة جمعها نيافته بمعرفته.

٢- فهرس الموضوعات

صفحة